"الرواية الفائزة بالبوكر العالمية 2020"





قلق الأمسيات

ماريكا لوكاس رينفيلد

ترجمة: محمد عثمان خليفة



روايات مترجمة

قلق الأمسيات

تأليف: ماريكا لوكاس رينفيلد

الرواية الحائزة على جائزة البوكر 2020



ماريكا لوكاس رينفيلد

قلق الأمسيات

رواية من هولندا

ترجمة: محمد عثمان خليفة



Nederlands
letterenfonds
dutch foundation
for literature

This publication has been made possible with financial support from the Dutch Foundation for Literature.

بطاقة فهرسة

رينفيلد، ماريكا لوكاس

قلق الأمسيات / تأليف: ماريكا لوكاس رينفيلد، ترجمة محمد عثمان خليفة.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع - 2020.

ص، سم.

تدمك 9789773195991

1- القصص الهولندية

أ- خليفة، محمد عثمان (مترجم)

ب- العنوان 839,313

"يمنح القلق أجنحة للخيال"

موريس جيلبامس

"كُتب أنني "سأصنع كل الأشياء الجديدة"
لكن الأوتار ما هي سوى حبال من الحزن،
هبّات الرياح الحادة كالشفرة تكسر إيمان
ذلك الذي سيهرب من البدايات القاسية.
قطرات المطر المثلجة تضرب الزهور فتحوّلها
إلى كرة من زجاج، والكلب المسعور يهز
فروه في عنف حتى يجف تمامًا"

يان فولكرز
الأعمال الشعرية الكاملة

الجزء الأول



الفصل الأول



كنتُ في العاشرة عندما توقفت عن خلع معطفي. جمعتنا أمُّنا في ذلك الصباح، ودهنت أجسادنا الواحد تلو الآخر بالمرهم الذي تضعه على ضرع البقرة لكي تحمينا من قسوة البرد. كانت عبوته صفراء من الصفيح، وهو يُستخدم عادةً لحماية ضرع البقرة من القشف والبثور والدمامل. غطاء العبوة زلق للغاية، فلم يُمكن فتحه إلا بقماشة جافة. رائحة المرهم مثل رائحة قطع الدسم التي أشمُّها أحيانًا في المطبخ، ممتزجة برائحة الملح والفلفل في المقلاة. ملأتني تلك الرائحة رعبًا، تمامًا كما فعل هذا المرهم الفوّاح على جلدي. ضغطت أمي بأصابعها البضة على وجوهنا كما تفعل مع أقراص الجبن، وهي تتأكد من نضوج قشرتها. أشرقت وجناتنا بعد شحوب، تحت نور مصباح المطبخ الذي غطته طبقة من مخلفات الذباب. ظللنا ثلاث سنوات نتحدث عن تغييره بآخر له غطاء مزين برسومات

أزهار، ولكنَّ أمي لم تحسم قرارها مطلقًا في كل مرة نذهب فيها إلى القرية. وفي ذلك الصباح، قبل عيد الميلاد المجيد بيومين، شعرتُ بإبهاميها الزلقين من أثر المرهم فوق مقلتيّ. وللحظة، خشيت أن تزيد من ضغطها عليهما، فتنفلت عيناي إلى داخل جمجمتي مثل بِلْيَتَيْنِ، وعندئذ ستقول لي: "أرأيت؟ هذا ما يحدث عندما لا تُثَبِّتِينَ عينيكِ لأعلى نحو الرب مثل أي مؤمنة نقيَّة تعرف أن السماوات يمكن أن تنفتح في أي لحظة".

ولكنني أعرف أن السماوات هنا لا تنفتح إلا للعواصف الثلجية، وأن لا شيء هناك لأحدِّق إليه مثل الغبية.

في منتصف طاولة الإفطار سلة خبز حففناها بمنديل قماش مطرز بملائكة عيد الميلاد. يحمل كل ملاك آلة "ترومبيت" في يد وفي الأخرى غصنًا من الـ"هدال" ليستر به عضوه. لن يتسنى لك تمييز تلك الأعضاء، حتى ولو رفعت المنديل نحو ضوء المصباح، لذا خمنت أنها مثل شرائح لانشون ملفوفة. رتبت أمي قطع الخبز بنظام فوق المنديل: خبز أبيض، وخبز أسمر فوقه حبوب الخشخاش، ورغيف خبز بالزبيب. استعانت بغربال صغير لتنثر حبات السكر فوق الرغيف المقرمش، مثل ندف الثلج الأولى التي تتساقط فوق أظهر الأبقار في المروج، قبل أن نسارع بإدخالها الحظيرة. وفوق علبة البسكويت، ثبّتنا المِشْجَب البلاستيكي الذي نعلق فيه كيس الخبز؛ لو لم نضعه هناك لأضعناه، كما أن أمي لا تحب أن تُعقِّد فتحة كيس الخبز.

- تناولوا لحمًا أو جبنًا في البداية، وبعدها يمكنكم تناول الخبز الحلو.

هكذا تقول لنا دومًا. وتلك هي القاعدة التي سوف تجعلنا أكبر وأقوى، مثل "جالوت" العملاق و"شمشون" الجبار، اللذين يحكي الكتاب المقدس عنهما. كما يجب علينا في كل يوم شرب كوب حليب كبير لا يزال محتفظًا بدفء ضرع البقرة، وأحيانًا ما تعلوه طبقة دسم مصفرة، تلتصق بحلقك إن شربت الحليب ببطء لا داعي له. الأفضل هو أن تجرع الكوب بأكمله وأنت مغمض العينين، على الرغم من أن أمي تعدُّ ذلك "قلة أدب مع الرب"، مع أن الإنجيل لا يتحدث عن شرب الحليب ببطء، أو يأمرنا بأكل لحم بقرة. تناولت شريحة خبز أبيض من السلة ووضعتها مقلوبة في صحني فبدت مثل أرداف رضيع شاحبة، بل وتبدو كذلك أكثر عندما أضع فوقها الشوكولاتة، وهو ما يسليني أنا وأخواي كثيرًا، فدائمًا ما يسألانني ساخرين: "هل تلعقين الأرداف مجددًا؟".

همست في أذن "ماتياس" قائلة:

- إذا تركت سمكة ذهبية في غرفة مظلمة فترة طويلة للغاية، فإن لونها يصير شاحبًا للغاية.

أخبرته ذلك وأنا أضع ست شرائح من النقانق المطهوة فوق قطعة الخبز، فغطتها تمامًا. "لديكم ست بقرات، وأُكلت بقرتان منها، كم بقرة تبقت؟"، أسمع صوت المعلم داخل رأسي في كل مرة آكل فيها طعامًا. ما الذي يجمع بين مسائل الحساب الغبية هذه وأصناف الطعام؛ التفاح، والكعك، والبيتزا، والبسكويت، لم أعرف، ولكن المعلم ينس مني على أي حال، وأيقن أن كتاب مسائل الحساب خاصتي سيظل مليئًا بالخطوط

التي سيكتبها قلمه الأحمر. استغرقت عامًا حتى أتقن تمييز الوقت؛ أمضى أبي ساعات معي في المطبخ، نجلس إلى المائدة وبيننا ساعة التدريب على الوقت التي أعطتني إيّاها المدرسة، والتي كان أحيانًا ما يلقي بها أرضًا في يأس وسخط، فتضطرب الساعة ويرتفع صوت جرسها المزعج، وحتى اليوم، كلما أرمق الساعة، أجد عقاربها تتحوّل إلى ديدان أرض مثل تلك التي نستخرجها بشوكة من تلك البقعة خلف حظيرة الأبقار، لنستخدمها طعمًا في الصيد. عندما تمسك الدودة بين سبابتك وإبهامك، تظل تتلوى ولا تهدأ حتى تربت عليها، وعندئذ تستقر في راحة يدك، وتبدو مثل حلوى هلام الفراولة التي نأتي بها من متجر "فان لوك".

قالت أختي الصغيرة "هانا":

- من قلة الأدب أن تهمسي بالكلام وكلنا موجودون.

كانت تجلس قبالتي إلى جوار "أوبي". عندما لا يعجبها شيء، تحرِّك شفتيها من اليسار إلى اليمين. قلت لها وفمي ممتلئ بالطعام:

- إن بعض الكلمات أكبر من أذنيكِ الصغيرتين.

قلَّب "أوبي" في ملل بإصبعه في كوب الحليب، ليلتقط تلك الطبقة الباردة أعلى الحليب ويسارع بمسحها في مفرش الطاولة. التصقت به مثل كتلة مخاط أبيض. منظرها بشع، وبخاصة أنني أعلم أن هناك احتمالًا لأن

يكون ذلك الجزء من مفرش الطاولة عند مقعدي من الطاولة في الغد. عندئذ سأرفض أن أضع صحني على الطاولة. جميعنا يعرف أن مناشف المائدة موضوعة للزينة فحسب، وأن أمي تجمعها وتهندمها قبل أن تعيدها إلى درج المطبخ بعد الانتهاء من الإفطار. فهي ليست لأصابعنا وأفواهنا المتسخة. جزء مني يؤنبني للتفكير في تهشيم الملائكة في قبضة يدي، مثل البعوض، أو أن ألطخ شعرها الأبيض بمربى الفراولة.

همس "ماتياس" في أذني:

- عليّ أن أقضي المزيد من الوقت خارج المنزل، لأن وجهي أصبح شاحبًا للغاية.

ابتسم وهو يدس سكينه بكل تركيز في جزء الشوكولاتة البيضاء داخل برطمان "دو بينوتي"، محاذرًا أن ينال من نصل سكينه أي جزء من الشوكولاتة البنية. لا نتناول "دو بينوتي" إلا في أيام العطلات. لطالما اشتقنا إليها على مدى أيام، قبل أن تحل عطلة عيد الميلاد أخيرًا. أسعد لحظة هي تلك التي تجذب فيها أمي تلك الورقة الواقية لفوهة البرطمان، ثم تنظف آثار الصمغ عن حوافه قبل أن ترينا امتزاج اللونين البني والأبيض، والتي تذكرنا بالبقع التي تكون على جلد عجل وليد. أما أوّل مَن يستخرج الشوكولاتة من البرطمان فهو صاحب أفضل درجة في المدرسة خلال ذلك الأسبوع. وهكذا، كنت دومًا آخر مَن يستمتع بالبرطمان.

انزلقت بجسدي للخلف وللأمام على الكرسي؛ لا تزال أصابع قدمي بعيدة عن الأرض. كل ما أردته هو أن أحافظ على سلامة الجميع داخل المنزل، وأن أنشرهم في أنحاء المزرعة مثل شرائح النقانق المطهوة. في مراجعته الأسبوعية بالأمس لدرس القطب الجنوبي، قال معلمنا إن بعض طيور البطريق تذهب إلى الصيد ولا تعود أبدًا. وعلى الرغم من أننا لم نعِش في القطب الجنوبي، فإنَّ الجو بارد جدًّا هنا، بل قارس البرودة، لدرجة أن البحيرة تجمَّدت وامتلأت أحواض شرب الأبقار بالجليد.

لكل منا كيسان من الماء الساخن لونهما أزرق سماوي يوضعان عند صحن الإفطار. رفعت كيسًا وأنا أنظر إلى أمي في تساؤل، فقالت لي بابتسامة أظهرت غمازتيها:

- حتى تضعيهما فوق الجورب ليحافظا على دفء قدميكِ ويحافظا عليهما من البلل.

وقفتْ تجهز الإفطار لأبي، والذي كان يساعد بقرة ما في أثناء ولادتها؛ وبعد كل شريحة خبز، كانت تمرر السكين بين إبهامها وسبابتها فيتجمع الزبد في طرفي إصبعيها، ثم مسحت ما تجمَّع في حُد السكين الثلم. ربما كان أبي جالسًا الآن فوق كرسي الحلب قرب بقرة ليربت ضرعها ويخفف عنها آثار لدغ النحل، ومن حوله سحابة من أنفاسه الممتزجة بدخان السجائر سرعان ما تتصاعد فوق مؤخرتها الساخنة. انتبهت إلى عدم وجود كيسي الماء الساخن إلى جوار صحنه؛ ربما لأن قدميه كبيرتان جدًّا، وبخاصة قدمه

اليسرى التي شوهتها آلة حصاد وهو في العشرين من عمره تقريبًا. إلى جوار أمي، فوق الطاولة، تقبع مغرفة جبن فضية تستخدمها لتستطعم نكهة الجبن التي نصنعها في الصباح. فقبل أن تفتح قالب جبن، كانت تغرس مغرفة الجبن في قلبه عبر الطبقة البلاستيكية، وتلفها مرتين ثم تسحبها إلى الخارج ببطء. كانت تأكل قطعة من جبن الكمون بالطريقة نفسها التي تأكل بها الخبز الأبيض في أثناء القربان في الكنيسة، أي بالقدر نفسه من الاهتمام والتقوى، وبكل بطء وهي متسعة العينين. ذات مرة، قال "أوبي" مازحًا إن جسد "يسوع" مصنوع من الجبن، ولهذا السبب لا يسمحان لنا إلا بشريحتيْ جبنٍ فوق الخبز كل يوم، حتى لا نلتهم جسده بسرعة. وذات مرة، تلت أمي صلاة الصباح وشكرت الرب "على الفقر والغنى؛ وبينما يقتات كثيرون على خبز الأسى، إلا أنك أطعمتنا من جوع".

دفع "ماتياس" كرسيه للوراء، وعلَّق حذاء التزلج الجلدي الأسود حول رقبته، ثم دسَّ بطاقات عيد الميلاد في جيبه، لأن أمي طلبت منه أن يضعها في صناديق بريد بعض جيراننا. كان سيتوجه إلى البحيرة ليشارك في مسابقة التزلج المحلية مع صديقين له. مسافة السباق عشرين ميلًا، ومَن يفوز يحصل على صحن من حساء ضرع البقر بالخضروات والمستردة، ومعه ميدالية ذهبية منقوش عليها العام 2000. تمنيت لو وضعت كيس ماء ساخن فوق رأسه، حتى يبقى دافئًا فترة طويلة، وأن نكون سدادتها مغلقة حول عنقه. مرر يده على شعري للحظات. سارعت بإعادة خصلات شعري إلى مكانها، ثم نفضت بقايا طعام عن أعلى منامتي.

اعتاد "ماتياس" أن يفرق شعره من المنتصف، وأن يضع مُثبِّت الشعر على الخصلات النافرة على جبهته. كانت أشبه بقطعتيْ زبد مبشورتين في طبق. اعتادت أمي إعداد هذا الطبق مع حلول عيد الميلاد؛ فهي لا تجد في طبق الزبد التقليدي أي مظهر للاحتفال. فهذا الشكل للأيام العادية، وعيد ميلاد "يسوع" ليس باليوم العادي، حتى وهو يتكرر كل عام، كما لو أنه يموت لتطهيرنا من الخطايا كل عام، وأنا أستغرب ذلك. كنت أقول لنفسي: "هذا المسكين ميت منذ زمن بعيد، ولا بدَّ أنهم الآن قد نسوه". ولكنني تضلت ألا أذكر ذلك، وإلا توقفوا عن إعداد البسكويت المزين بحبات السكر، ولن يحكي أحد حكاية "الملوك الثلاثة" و"نجم الشرق" في عيد الميلاد.

ذهب "ماتياس" إلى الردهة ليتأكد من أناقة شعره، على الرغم من أن خصلاته ستتجمد! في الجو المتجمد بالخارج، سوف تلتصق الخصلتان بجبهته.

- هل يمكن أن آتيَ معك؟

كان أبي قد أخرج زلاجتي الخشبية من السندرة وربطها بحذائي بأربطتها البنية الجلدية. وظللتُ أيامًا أمشي في أرجاء المزرعة وأنا أرتديها، ويداي خلف ظهري والواقيان على نصليها حتى لا تترك أثرًا في أرضية المنزل. كانت سماننا ساقيٌّ قويتين. لقد تدربت بما يكفي لأن أخرج إلى مساحات الجليد دون أن أتعثر في أي شيء.

- كلا، لا يمكنكِ هذا، لأننا سنذهب إلى البر الثاني.

- وأنا أيضًا أريد الذهاب إلى البر الثاني.

- سوف آخذكِ معي حينما تكبرين.

ارتدى القبعة الصوفية وابتسم. لمحت مقوم أسنانه بأربطته المتعرجة الزرقاء المرنة. نادى أمي:

- سأعود قبل حلول الظلام.

دار على عقبيه مجددًا عند الباب ليلوح إليَّ مودعًا، في مشهد سأظل أستعيده وأسترجعه في عقلي إلى أن تعجز ذراعه عن الحركة، وإلى أن أشك فيما إذا كنا قد ودعنا بعضنا بعضًا من الأساس.



الفصل الثاني



لا يعرض جهاز التلفاز لدينا أيًّا من القنوات التجارية، بل ثلاث قنوات حكومية فحسب.. "نيدرلاند" 1، و2، و3. يقول أبي إنها قنوات لا تعرض أي عري. ينطق كلمة "عري" وكأن ذبابة دخلت فمه في الثانية نفسها؛ يبصق الكلمة. وهي كلمة تذكرني بحبات البطاطس التي تقشرها أمي كل مساء قبل أن تسلقها في الماء، وتذكرني كذلك بصوت غليان تلك الحبات. أتخيل أنك لو فكرت في أناس عراة فترة أطول من اللازم، فإن بثلات وبراعم ستنبت من جسدك، تمامًا مثل براعم البطاطس، وسيكون عليك أن تزيلها عن جسدك من جذورها بالسكين. نفعل هذا مع حبات البطاطس، ومن ثَمَّ نجمع تلك البراعم والبثلات لنلقيها للدجاجات، التي سرعان ما تلتهمها في نهم. أرقد على بطني أمام الخزانة الخشبية التي تحتضن جهاز التلفاز. يقبع أسفلها أحد أربطة حذاء التزلج، بعد أن

، كلنه في غضب عند ركن غرفة المعيشة. كنت أصغر من أن أذهب إلى البر الثاني وأكبر من أن أتزلج فوق السماد خلف حظيرة الأبقار. الصراحة، من غير الممكن أن يصف أحد ما أقوم به هناك بالتزلج؛ إنها حركات أقرب إلى جرّ القدمين، تمامًا كما تتخبط طيور الإوز التي تهبط بحثًا عن شيء صالح للأكل. ومع كل حركة فوق الجليد، تتحرر رائحة السماد الكريهة، ويكتسب نصلا الزلاجة لونًا بنيًّا فاتحًا. لا بدَّ أنه مشهد مثير للسخرية.. واقفان هناك مثل زوج من الإوز الأحمق، نقفز من بقعة عشبية إلى أخرى، بدلًا من أن نكون هناك مع بقية المتزلجين عند البحيرة الكبيرة. قال أبي:

- لا يمكننا الذهاب للفرجة على "ماتياس"، لأن أحد العجول مصاب بإسهال.

- ولكنك وعدتني، حتى إنني لففت قدميَّ بأكياس الماء الساخن.

- إنها ظروف قاهرة.

قالها وهو يحكم قبعة الـ"بيريه" السوداء على جبهته. أومأت برأسي وكأنني فهمت. ليس بيدنا شيء حيال الظروف غير المتوقعة، خصوصًا لو تعلق الأمر بالأبقار؛ هي الأهم دائمًا. وحتى عندما لا تكون بحاجة إلى أي اعتناء، حتى عندما تقبع بأجسادها السمينة الخرقاء في الحظيرة، تبقى مهيمنة ولها الأولوية. عقدت ذراعي في غضب. كل تدريبي بزلاجتي راح سدًى؛ كانت سماناتي أشد صلابة من تمثال "يسوع" الخزفي الكبير المستقر

في الردهة والذي يقترب في حجمه من حجم أبي. رميت أكياس الماء الساخن في سلة المهملات عن عمد، بل دسستها في عمق السلة وسط تفل القهوة وبقايا الخبز حتى لا تتمكن أمي من إعادة استخدامها مثل مناديل المائدة.

أسفل الخزانة الخشبية مليء بالغبار. وجدت مشبك شعر، وحبة زبيب جافة، ومكعب "ليجو". تغلق أمي درفتَي الخزانة كلما حضر أفراد من العائلة أو قساوسة الكنيسة الإصلاحية لزيارتنا. يجب ألا يروا التلفاز فيدركوا أننا نسمح لأنفسنا بالابتعاد عن درب الرب في كل مساء. وفي أيام الإثنين، تحب أمي أن تشاهد برنامج مسابقات اسمه "لينجو"، وكان علينا جميعًا أن نبقى هادئين وقتها مثل الفئران، وهي تحاول تخمين الإجابات في أثناء وقوفها خلف طاولة الكي؛ نسمع صوت مسهسة بخار المكواة مع كل إجابة صحيحة وسط تصاعد البخار. كانت في العادة كلمات غير تلك الواردة في الكتاب المقدس، ولكن يبدو أن والدتنا تعرفها. تسميها "كلمات بلا حياء" لأن بعضها تحمر له وجنتاك. أخبرني "أوبي" ذات مرة أنه عندما تنطفئ الشاشة وتصبح سوداء، يصبح التلفاز وقتها عينًا للرب، ولذلك تغلق أمي درفتَي الخزانة، لأنها لا تريد له أن يرانا. ربما تفعل ذلك خجلًا بسببنا، لأننا ننطق أحيانًا تلك الكلمات عديمة الحياء في أثناء مشاهدة "لينجو". حاولت غسلها من أفواهنا بقطعة صابون خضراء، وكأنها بقع دهن أو طين في ملابسنا المدرسية النظيفة.

تحسست الأرضية بحثًا عن الرباط. يمكنني رؤية المطبخ من مكاني. ظهر حذاء أبي البلاستيكي الأخضر عالي الرقبة بغتة أمام الثلاجة، وقد تعلق القش وروث البقر بجوانبه. لا بدَّ أنه قد أتى ليجلب حزمة أخرى من رؤوس الجزر الخضراء من درج الخضروات. سوف يزيل الأوراق بتلك السكين الصغيرة التي يضعها في جيب البدلة الوقائية التي يرتديها للعمل. يفعل ذلك منذ أيام، متنقلًا بين الثلاجة وأقفاص الأرانب. أخذ معه شريحة التورتة المتبقية من عيد ميلاد "هانا" السابع؛ والتي كثيرًا ما سال لعابي لأجلها في كل مرة ينفتح فيها باب الثلاجة. عجزت عن مقاومة إغراء خطف بعض من كريمتها الوردية بطرف إصبعي ودسها في فمي. صنعت بإصبعي ممرًا في الكريمة التي جفت في الثلاجة والتصقت بطرف إصبعي مثل قبعة صفراء. لم يلحظ أبي ذلك. تقول عنه جدتي المتدينة:

- عندما يعتزم القيام بشيء لا يمكن لأحد أن يثنيه عنه.

لهذا كنت أشك في أنه يطعم أرنبي "ديفيرنجي" - الذي أخذته من جارنا "لين" - لأجل عشاء عيد الميلاد الكبير الذي لم يبقَ عليه سوى يومين. هو في العادة لا يهتم لأمر الأرانب، فالحيوانات الصغيرة مصيرها صحن طعامك في النهاية، وهو ميال إلى الحيوانات التي يملأ وجودها مجال رؤيته بالكامل، لكن أرنبي لا يملأ حتى نصف ذلك المجال. قال ذات مرة إن فقرات العنق هي أضعف جزء قابل للكسر في الجسم؛ وقد سمعتها تتهشم في رأسي كما لو كانت والدتي تهشم حفنة من الشعيرية فوق

المقلاة. رأيت حبلًا ينتهي بمشنقة في العلية، يتدلى من العوارض الخشبية. قال أبي إنه من أجل أرجوحة، لكن لم تكن هناك أي أرجوحة. لم أفهم سبب تعليق الحبل في العِلِّيَّة وليس في المخزن، حيث بقية المفكات ومجموعة البراغي والمسامير الخاصة به. فكرت أن أبي يريدنا أن نشاهد؛ ربما سيجعلنا نفعل ذلك إذا أخطأنا. تخيلت أرنبي مشنوقًا مكسور العنق وهو يتدلى من الحبل في العِلِّيَّة، خلف سرير "ماتياس"، حتى يتمكن والدنا من سلخه بسهولة أكبر. ربما ينسلخ جلده بالطريقة نفسها التي ينسلخ بها غِلاف النقانق المطبوخة الكبير الذي تقشره أمي بسكين البطاطس في الصباح؛ سوف يضعون "ديفيرتجي" في قلب طبقة من الزبدة في وعاء خزفي كبير فوق الموقد، وسرعان ما تفوح في البيت كله رائحة لحم الأرنب المحمر. وسوف يتمكَّن كل فرد من عائلة "مولدر" من شم رائحة عشاء عيد الميلاد الجاهز للتقديم من بعيد. كنا ماهرين في عدم إفساد شهيتنا على الرغم من كل ما نعرفه من تفاصيل. ولاحظت أنه قد صار مسموحًا لي بإطعام أرنبي. على الرغم من أنه ذكر، فقد سميته على اسم مقدمة البرامج ذات الشعر المجعد في قناة الأطفال لأنني أراها جميلة جدًّا. ورغبت في أن تكون على رأس قائمة أمنياتي لعيد الميلاد، لكنني انتظرت ولم أطلبها، لأنني لم أجدها في أي دليل لمشتريات الألعاب حتى الآن.

كنت متيقنة من أن الأمر ينطوي على سر يختفي وراء هذا الكرم المفاجئ تجاه أرنبي. ولهذا السبب اقترحت حيوانات أخرى عندما لحقت

.ابي وهو يجلب الأبقار من أجل العلاج الشتوي قبل الإفطار. كنت أحمل ..منا لتوجيهها. أفضل شيء هو أن تضرب على ضلوعها وعندها تبدأ المشي.

- في فصلي تلاميذ لديهم بط أو طائر دراج أو ديك رومي، وعند ..اهوها، يحشونها بالبطاطس والكراث والبصل والشمندر، حتى .فيض الحشو من مؤخراتها.

رمقت أبي فأومأ إليَّ. هناك أنواع مختلفة من الإيماءات في قريتنا. وهي في حد ذاتها تعد طريقة يميِّز بها كل واحد نفسه. وأنا أعرفها جميعها الآن. أما هذه الإيماءة التي استخدمها أبي، فهي الإيماءة نفسها التي يرد بها على تجار الماشية عندما يعرضون عليه سعرًا بخسًا ولكنه مضطر لأن يقبله، لأن البقرة ليست سليمة تمامًا وستصبح عبئًا عليه لو لم يبعها.

- هناك العديد من الطيور الدراجة هنا، وخصوصًا بين أشجار الصفصاف

كنت أنظر إلى المنطقة الوارفة إلى اليسار من المزرعة. رأيتها هناك أحيانًا بين الأشجار أو قابعة في الأرض. وعندما تراني، كانت تلتصق بالأرض مثل حجر وتتظاهر بأنها ميتة حتى أرحل. وعندئذ، تطل برؤوسها مرة أخرى. أومأ أبي مرة أخرى، وضرب بعصاه الأرض وهو يصيح في الأبقار حتى تتحرك. بحثت في المجمد بعد هذا الحوار القصير مع أبي، ولكني لم أجد بطة أو طائرًا دراجًا أو ديكًا روميًا بين علب اللحم المفروم وأكياس الخضروات.

لم أعد أرى حذاء أبي، فقد ذهب. خلّف وراءه بضعة عيدان قش فوق أرض المطبخ. وضعت الرباط في جيبي وصعدت إلى غرفة نومي التي تطل على فناء المزرعة. جلست على حافة السرير، واستحضرت يد أبي على رأسي ونحن ندخل الأبقار ونسير عائدين إلى المرج لنتفقد مصائد الخلد. إن كانت خاوية، فإن أبي سيبقي يديه في جيبيْ بنطاله؛ فليس هناك من شيء يستحق المكافأة، ولكننا عندما نجد جثتها الدامية في الفخاخ نغيرها بمفك براغي صدئ، ولن يلحظ أبي تلك الدموع وهي تنهمر على خديّ بعد مرأى مخلوق صغير مسكين وقع بريئًا في براثن الفخ. تخيلت الطريقة التي يستخدم بها أبي اليد نفسها في اعتصار رقبة أرنبي، مثل الجزء العلوي الذي لا يمكن للأطفال فتحه من عبوة النيتروجين؛ هناك طريقة واحدة صحيحة للقيام بذلك. وتخيلت أمي وهي تضع حيواني الأليف الذي انتهت حياته على الطبق الفضي الذي تستخدمه في تحضير السلطة الروسية أيام الأحد بعد العودة من الكنيسة. سوف تقدّمه على طبقة من الخس وتزينه بشرائح الخيار والطماطم والجزر المبشور وغصن زعتر. نظرت إلى يديَّ وما فيهما من خطوط غير منتظمة، لا تزالان صغيرتين جدًّا، ومن غير الممكن أن تُستخدما في مهام أخرى خلاف حمل الأشياء. لا تزالان تستقران داخل يديْ أبي ولكن يد أمي ويد أبي لا تتناسب ويدي. هذا هو الفارق بيني وبينهما؛ هما قادران على خنق أرنب، أو الإمساك بقالب جبن لم ينضج بعد. أيديهما تبحث دائمًا عن شيء ما، وإذا لم تعد قادرًا على حمل حيوان أو شخص بحنان، فمن الأفضل لك أن تتركه وتهتم بأشياء أخرى مفيدة.

ضغطت على جبهتي بقوة أكبر على حافة سريري. شعرت بضغط الخشب البارد على بشرتي وأغمضت عينيَّ. أستغرب أحيانًا صلاتي في الظلام، على الرغم من أنه أمر يشبه لحافي الفسفوري الذي يتوهج في الظلام؛ تنير النجوم والكواكب لتحميك من ظلمة الليل. لا بدَّ أن هذه هي طريقة الربِّ أيضًا. وضعت يداي متشابكتين على ركبتيَّ. وفكرت بغضب في "ماتياس" الذي يشرب الآن كوبًا من الشوكولاتة الساخنة ابتاعه من أحد الأكشاك عند الجليد. تخيلته يتزلج وقد احمرت وجنتاه، وتذكرت أن ذوبان الجليد يبدأ في الغد؛ فقد حذرت المذيعة مجعدة الشعر من ذلك وقالت مازحة إن الأسطح ستكون زلقة على "بابا نويل" وهو يتسلل عبر مداخن المنازل، ومن أن هناك ضبابًا قد يتوه فيه، وكذلك "ماتياس"، على الرغم من أن ذلك سيكون خطأه هو وحده. وللحظة، رمقت زلاجتي القابعة في صندوقها أمامي، بعد أن نظفتها ولمعتها، في انتظار أن أعيدها إلى العلية. فكرت أن الوقت يمر ويمر وأنا بعد ما زلت صغيرة، وأنك حتى إن كبرت فإن أحدًا لن يخبرك بأنك كبرت، وفكرت في طولي المدون على عمود الباب، ودعوت الرب أن يأخذ روح "ماتياس" بدلًا من أرنبي.. آمين.

الفصل الثالث



- ولكنه لم يمُت.

قالت أمي ذلك للطبيب البيطري، نهضت من على حافة حوض الاستحمام وأفلتت يدها من خرقة زرقاء باهتة. كانت تهم بتنظيف ردفيْ "هانا"، حتى لا تُصاب بالديدان، فهي تحدث فيك ثقوبًا صغيرة، أشبه بتلك التي نجدها في أوراق الملفوف. كنت كبيرة بما يكفي لأحمي نفسي من الديدان. حضنت ركبتيَّ بذراعيَّ، حتى أستر ما يمكنني من جسدي العاري الآن بعد أن دلف البيطري إلى الحمام بغتة دون أن يطرق الباب.

قال بنبرة متعجلة:

- إن طبقة الجليد المتكونة عند الجانب القصيِّ من البحيرة هشة للغاية بسبب قنوات الملاحة. لقد كان في المقدمة فترة طويلة، حتى غاب عن أنظار الجميع.

أدركت من فوري أنه لا يتحدث عن أرنبي القابع في قفصه، يأكل رؤوس الجزر الخضراء، كعادته. كانت لهجة البيطري جادة. كان كلامه في أغلب المرات التي دخل خلالها منزلنا عن الأبقار. قليلون مَن يقصدون منزلنا لموضوع آخر خلاف الأبقار، ولكنني أحسست هذه المرة بأن أمرًا ما خطأ؛ فهو لم يذكر قطيع الأبقار ولو مرة، ولا حتى في المرة التي كان يقصدنا فيها نحن - الأطفال - وهو يسأل عن حال "القطيع". ولما أطرق برأسه، تطاولت بجذعي حتى يتسنى لي النظر عبر النافذة الصغيرة فوق حوض الاستحمام. بدأت العتمة تحل بالفعل؛ اقتربت جماعة من الشمامسة المتشحين بالسواد أكثر فأكثر إلى أن حاصرونا بين أذرعهم، اعتادوا المجيء كل يوم ليجلبوا الليل بأنفسهم. قلت لنفسي إن "ماتياس" فقد إحساسه بالزمن، وهو ما لم يكن مستغربًا منه، ولهذا أعطاه والدنا ساعةً ذات عقارب فسفورية كان يرتديها بالمقلوب، ربما دون قصد منه، أم أنه لا يزال يوزع بطاقات عيد الميلاد؟

رجعت بظهري في حوض الاستحمام، وأسندت نقني إلى ذراعيَ الرطبتين، مُحدِقة إلى أمي عبر رموشي. كنا قد زودنا فتحة صندوق البريد الموجودة بالباب الأمامي لمنزلنا بحاجز تيار يشبه الفرشاة، حتى لا تسمح بالرياح داخل المنزل، وأحيانًا ما كنت أنظر عبرها إلى الخارج، وهو ما أشعر به الآن وأنا أنظر عبر

رموشي. خطرت لي فكرة أن أمي والطبيب البيطري لم يدركا أنني أسمعهما، وأنني قادرة في أفكاري على محو تلك التجاعيد حول عينيْ أمي وفمها لأن مكانها ليس هنا، وأن أضع غمّازات في وجنتيها بطرف إبهامي. لم تكن أمي من النوع الذي يومئ ويلمح، فهي تحب الكلام كثيرًا، لكنها الآن اكتفت بالإيماء تومئ في صمت؛ أرجوكِ يا أمي، قولي أي شيء، تحدثي حتى عن الهندمة والترتيب، أو عن العجول التي أصيبت بالإسهال مجددًا، أو عن توقعات الطقس للأيام المقبلة، أو عن أبواب غرف النوم التي لا تُغلق أقفالها جيدًا، أو عن تصرفاتنا المتمردة عليكِ، أو عن آثار معجون الأسنان التي جفت في زوايا أفواهنا. لم تتفوه بشيء وهي تحدّق في الخرقة التي أمسكت بها. سحب البيطري المقعد الصغير من أسفل الحوض وجلس عليه. كان المقعد يئن تحت وطأة ثقله.

- انتشله "إيفرتسن" من البحيرة.

سكت لحظة، ونظراته تتنقل ما بيني وبين "أوبي"، ثم أردف:

- مات أخوكِ.

أشحت بناظري بعيدًا عنه، ونظرت إلى المناشف المعلقة على الشماعة إلى جوار الحوض والتي تيبست من البرد. تمنيت أن ينهض الطبيب البيطري ويخبرنا أن في الأمر خطأ ما، وأن الأبقار لا تختلف كثيرًا عن الأبناء، فهي مهما غابت في العالم الكبير في الخارج، فإنها تعود إلى حظيرتها قبل الغروب لتقتات طعامها. قالت أمي:

- لقد خرج للتزلج وسيعود قريبًا.

عصرت الخرقة فوق مياه حوض الاستحمام، فصنعت القطرات حلقات لي الماء. اصطدمت أمي بركبتيَّ البارزتين. وحتى أنشغل بشيء، عوَّمت ناربي الذي صنعته بمكعبات "الليجو" فوق الأمواج التي صنعتها أختي "هانا". لم تفهم ما قيل حولها للتو، وأدركت أنني بدوري يمكن أن أتظاهر بأن أذنيَّ مسدودتان، معقودتان إلى الأبد. بدأت مياه حوض الاستحمام تصبح فاترة، وقبل أن أنتبه إلى ما أفعل، تبولت فيها. تأملت البول ولونه الأصفر الداكن بينما يتصاعد في دوامات مثل السحاب قبل أن يمتزج بالماء. لم تلحظ "هانا" ما فعلتُ، وإلا لكانت قد قفزت من الماء وجلة وهي تصرخ وتسبني بـ"أيتها البنت القذرة". كانت تمسك بدمية "باربي"، تلعب بها على سطح الماء. قالت:

- ستغرق لو أنزلتها تحت الماء.

كانت الدمية ترتدي رداء سباحة ذا خطوط عريضة. ذات مرة، لامست بإصبعي أسفل ذاك الرداء، لأتحسس الثدي البلاستيكي، ولم يلحظ ذلك أحد. وجدته أقسى من ذلك الكيس الدهني في ذقن أبي. تأملت جسد "هانا" العاري الذي يشبه جسدي، جسد "أوبي" وحده المختلف. كان يقف بجانب حوض الاستحمام، ولا يزال بملابسه، يحكي لنا عن لعبة حاسوب كان عليه فيها أن يطلق النار على أشخاص فتنفجر أجسادهم مثل حبات الطماطم الكبيرة. كان سيستخدم مياه حوض الاستحمام هذه بعدنا. أعرف أن لديه

صنبورًا صغيرًا يتبول منه ومن تحته عثنون، مثل عثنون الديك الرومي. ما أقلقني هو أن لديه هذا الشيء المعلق في جسده، ولكنَّ أحدًا لم يتحدث عنه. فلربما كان مريضًا بمرض خطير. كانت أمي تسميه "قوقعة"، ولكن ربما كان اسمه الحقيقي هو السرطان ولكنها لم ترغب في أن تخيفنا لأن جدتي، الأقل تدينًا، ماتت بسبب السرطان. اعتادت أن تصنع لنا شراب البيض الـ"إيج نوج" قبل أن تموت. أخبرنا أبي أن اللبن كان متخثرًا عندما عثروا عليها، وقال إن كل شيء يتخثر عندما يموت إنسان، سواء أكان موته متوقعًا أم لا. عجزت عن النوم لأسابيع لأنني ظللت أرى وجه الجدة عندما كانت في نعشها؛ بفم شبه مفتوح، ومقلتين ومسام ينضح منهما شراب البيض.

بادرت أمي بإخراجي و"هانا" من حوض الاستحمام، حملت كل واحدة منَّا من إبطيها، خلفت أصابعها علامات بيضاء على جلدنا. عادةً ما تقوم بلف المناشف حول جسدينا وتتأكد من أن جسدينا قد جفا تمامًا، حتى لا يعترينا الصدأ، أو يحدث لنا الأسوأ؛ أن يظهر في جسدينا عفن مثل الذي في الشقوق بين بلاط الحمام، لكنها الآن تركتنا، تصطك أسناننا بردًا، واقفتين على بساط الحمام، ورغوة الصابون لا تزال في إبطينا.

- جففي نفسكِ جيدًا.

همست لأختي التي ترتجف، وأنا أناولها منشفة جافة للغاية.

- وإلا سيكون علينا أن نزيل القشور عن جلدك فيما بعد.

انحنيت لأتحقق من نظافة أصابع قدميَّ، فمنها يبدأ العفن في الظهور؛ لم يستطع أحد رؤية حمرة وجنتيَّ، التي حولت وجهي إلى قطعة من سكاكر الـ"فايربول". سمعت صوت المعلم في رأسي وهو يسألني: "**إذا تسابق صبي وأرنب، فما عدد الأميال/ الساعة التي ينبغي أن يركضها أحدهما أسرع من الآخر حتى يربح السباق؟**"، وهو يلكزني في بطني بمؤشر السبورة، ليستحثني على أن أجيبه. بعد أصابع قدميَّ، تفحصت أناملي؛ كان أبي أحيانًا ما يمزح قائلًا إن جلود أجسادنا ستتساقط إذا أطلنا المكوث في حوض الاستحمام فترة أطول مما ينبغي، وعندئذ سيجمعها ويعلقها بالبراغي على جدار المخزن الخشبي، إلى جوار فراء الأرانب التي سلخها. عندما نهضت مرة أخرى ولففت المنشفة حول جسدي، ظهر أبي فجأة بجانب الطبيب البيطري. كان يرتجف وكانت هناك رقاقات ثلج على كتفيْ معطفه الثقيل؛ بدا وجهه في شحوب ميت. أخذ ينفخ وينفخ في يديه المضمومتين. في البداية، تذكرت الانهيار الجليدي الذي أخبرنا عنه معلمنا، على الرغم من أن حدوثه مستبعد تمامًا في الريف الهولندي. لم أدرك أن الأمر لا علاقة له بأي انهيار جليدي إلا عندما أجهش أبي بالبكاء، وحرَّك "أوبي" رأسه يَمْنةً ويَسرةً، مثل مسَّاحة زجاج السيارة، لينفض الدموع عن وجهه.



بطلب من أمي، أخرجت جارتنا "ليان" شجرة عيد الميلاد من المنزل في تلك الأمسية. كنت جالسة على الأريكة مع "أوبي"، أتوارى خلف وجهيْ "بيرت"

و"إرني" الياسمين على سترة منامتي، على الرغم من أن مخاوفي كانت تطل عليهما بقوة. بقيت أصابع يديَّ معقودة، على النحو الذي تكون عليه في فناء المدرسة وقتما نتفوه بكلمات لا نقصدها، أو عندما نتمنى إبطال مفعول وعودك، أو دعواتك. نظرنا في أمي إلى الشجرة وهي تُخرج من الغرفة، مخلفة وراءها آثارًا من المواد البراقة ومخاريط الصنوبر. لحظتها، شعرت بطعنة في صدري، كانت تؤلم أكثر من الخبر الذي نقله إلينا الطبيب البيطري. كان من المؤكد أن "ماتياس" سيعود ولكن شجرة عيد الميلاد لن تعود. قبل بضعة أيام، سُمح لنا بتزيين الشجرة بدمى "بابا نويل" السمينة الصغيرة، والكرات اللامعة، والملائكة، وسلاسل الخرز، وقطع الشوكولاتة على شكل الإكليل، على خلفية أغنية "جيمي" بصوت "بودويجن دي جروت". كنا نحفظ كلمات الأغنية عن ظهر قلب ونغني معه، بينما نترقب اللحظة التي يغني فيها الكلمات الممنوع علينا أن ننطق بها. والآن، ننظر إلى "ليان" عبر نافذة غرفة المعيشة، وهي تستخدم عربة يدوية لتضع بها الشجرة على جانب الطريق، بعد أن لفتها بمشمع برتقالي. لم يعد يظهر منها سوى النجمة الفضية في قمتها؛ لقد نسوا إزالتها. لم أذكّرهم بذلك، فما جدوى النجمة ما دامت الشجرة لم تعد موجودة؟ أعادت "ليان" هندمة المشمع البرتقالي عدة مرات، كما لو أن ذلك قد يغير من وجهة نظرنا، أو وضعنا. منذ وقت غير بعيد، كان "ماتياس" يتجول بي وأنا قابعة في عربة اليد تلك. وكان عليَّ أن أتشبث بكلتا يديَّ بجانبي العربة المغطاة بطبقة رقيقة من السماد الجاف. لاحظت في ذلك الوقت أن ظهره تقوّس من فرط العمل الشاق، كما لو أنه سيجثو تمامًا على الأرض. ولكن أخي انطلق

بالعربة سريعًا فجأةً، مما جعل جسدي يتقافز أكثر فأكثر داخلها مع كل تعرج ونتوء في الأرض. فكرت الآن أن الأمر كان ينبغي أن يكون العكس. كان يجب أن أكون أنا مَن يدفع العربة وفيها "ماتياس" مستمتعًا بجولة في أنحاء المزرعة، وأنا أصدر أصواتًا مثل أصوات المحرك، على الرغم من أنه سيكون ثقيلًا للغاية، وأنه سيصعب عليَّ أن ألقي به على جانب الطريق بعد ذلك، وأغطيه بالمشمع البرتقالي، مثل عجل نافق، حتى يأتي مَن ينقله بعيدًا وننسى أمره. في اليوم التالي، سيولد من جديد، وعندئذ ستكون هذه الأمسية مثلها مثل جميع الأمسيات الأخرى. همست في أذن "أوبي":

- الملائكة عارية.

كانت الدمى ملقاة على الخزانة أمامنا إلى جوار النجوم الشوكولاتة التي ذابت في أغلفتها. لم تكن تلك الملائكة تحمل أبواقًا ولم يكن يغطي ذلك الـ"هدال" المجعد موضع القواقع في أجسادها. لم يكن أبي ليلحظ أنها لا ترتدي أي ملابس وإلا لكان قد أعادها بالتأكيد إلى داخل أغلفتها الفضية. ذات مرة، كسرت جناحيْ ملاك لأرى ما إذا كانا سينموان من جديد أم لا. الرب قادر بالتأكيد على فعل ذلك. كنت أريد علامة تدلني على وجوده وأنه كان معنا خلال ساعات النهار أيضًا. بدا لي هذا معقولًا لأنه حينئذ سيراقب كل شيء، ويعتني بـ"هانا"، ويحمي الأبقار من حمى الحليب والتهاب أضرعها. وعندما لم يحدث شيء، وبقيت الرقعتان البيضاوان مكان الجناحين على حالهما، دفنت الملاك في أرض الخضروات بين بصلتين حمراوين منسيتين فيها.

- الملائكة عارية دومًا.

همس لي "أوبي". لم يأخذ حمامه بعد، وكان يطوق عنقه بالمنشفة؛ كان يمسك بطرفيها كأنما يتأهب لشجار. لا بدَّ أن مياه حوض الاستحمام، وبولي الذي امتزج بها، قد أضحت باردة كالثلج الآن.

- ألا يشعرون بالبرد؟

- إنها من فصيلة الدم البارد، مثلها مثل الأفاعي وبراغيث الماء، لذلك لا تحتاج إلى ملابس.

أومأت برأسي متفهمة، ولكنني سارعت بوضع يدي لأستر العضو الخزفي لأحد الملائكة خشية أن تراه جارتنا "ليان" التي دخلت المنزل مجددًا. سمعتها في الردهة، وهي تمسح قدميها لفترة أطول من المعتاد. فمن الآن وصاعدًا، سيجب على كل زائر للمنزل أن يمسح قدميه لفترة أطول من اللازم. تعلمت أن الموت في البداية يطلب من الناس الانتباه إلى التفاصيل الصغيرة؛ مثل الطريقة التي تتفحص بها أمي أظفارها بحثًا عن بقايا جافة من مادة تصنيع الجبن "المنفحة" بعد أن صنعت الجبن، أملًا في تأخير الألم. للحظة، تمنيت لو أن "ليان" قد جلبت "ماتياس" معها، بعد أن وجدته مختبئًا في تلك الشجرة المجوفة أعلى المرج، وأنه سئم الاختفاء بداخلها وخرج منها؛ انخفضت درجة الحرارة في الخارج إلى ما دون درجة التجمد. سيسد الجليد الفجوات التي صنعتها الرياح، ولن يتمكن أخي من إيجاد مخرج من أسفله، وسيتعين عليه أن

يبحث في أنحاء البحيرة بأكملها بمفرده في ظلام داكن. ولا بدَّ أنهم قد أطفؤوا الآن ذلك المصباح في مشروع البناء بنادي التزلج. عندما فرغت "ليان" من مسح قدميها، تحدثت مع أمي، بكلمات هامسة لم أسمعها. رأيت شفتيها تتحركان وشفتيْ أمي مزمومتين، كأنهما حشرتا بزاق تتزاوجان. وعندما تأكدت من أن أحدًا لا ينظر، رفعت يدي عن عضو الملاك، وراقبت أمي وهي تتجه إلى المطبخ، وهي تدس مشبك شعر آخر في كعكة شعرها. وهي تكثر من دس مشابك الشعر فيها، كما لو كانت تحاول تثبيت رأسها حتى لا تنفتح بغتة وتكشف عما يجري بداخلها. عادت ومعها طبق بسكويت عيد الميلاد. اشتريناه معًا من السوق. كنت أتوق للاستمتاع بهشاشة قلبه، وقرمشة السكاكر فوقه، ولكن أمي أعطت الطبق لـ"ليان"، ومعه وعاء بودنج الأرز من الثلاجة واللحم الملفوف الذي أحضره أبي من محل الجزار، وحتى لفافة عقد اللحم، ذات الخيوط الحمراء والبيضاء والتي يبلغ طولها ثمانين مترًا. كان بإمكاننا استخدام الخيط في لفه حول أجسادنا حتى لا تتداعى إلى شرائح. لاحقًا، كنت أفكِّر أحيانًا في أن تلك اللحظات مثلت بداية الخواء. ولم يكن سبب الخواء هو وفاة "ماتياس"، بل يوما عيد الميلاد اللذان ضاعا في المقالي وطبق السلطة الروسية الفارغة.



الفصل الرابع



كان التابوت الذي يحوي جثة أخي في الغرفة الأمامية. كان مصنوعًا من خشب البلوط وله فتحة زجاجية فوق وجهه، ومقابضه من المعدن. ظل هناك ثلاثة أيام. في اليوم الأول، طرقت "هانا" بخفة على زجاج فتحة التابوت وهي تهمس:

- هيًا الآن، اكتفيت من كل هذا. كفى عبثًا يا "ماتياس".

ظلت بلا حراك للحظاتٍ، كما لو كانت تخشى من أنه ربما يكون يهمس لها فلا تسمعه. عندما لم تجد منه ردًّا، عادت تلعب بدميتها خلف الأريكة، وجسدها الرقيق يرتجف مثل اليعسوب. أردتُ أن أمسكها بين إصبعي وإبهامي وأنفخ فيها حتى تدفأ، ولكنني عجزت عن إخبارها بأن "ماتياس" ذهب في نوم أبدي، وأنه من الآن فصاعدًا، لن يتبقى لنا سوى

نوافذ في قلوبنا نطل منها على أخينا الراقد وراءها. وبغض النظر عن جدتي - التي لم تكن متدينة تمامًا - لم نعرف أحدًا نام إلى الأبد، على الرغم من أننا في النهاية ننهض جميعًا مجددًا. كانت جدتي الأخرى، وهي المتدينة أكثر، تقول غالبًا عن هذا: "نحن نعيش بمشيئة الرب".

كلما استيقظتْ صباحًا، تألمت من خشونة ركبتيها، وانزعجت من رائحة فمها الكريهة.

"وكأنني ابتلعت عصفورًا ميتًا".

لن يستيقظ ذاك الطائر أبدًا، وكذلك لن يفعل أخي.

كان التابوت على الخزانة، فوق قماشة كروشيه بيضاء، من النوع الذي نجده في حفلات أعياد الميلاد، حيث أصابع الجبن، والمكسرات، والكؤوس والمشروبات المختلفة، وكما هو الحال في الحفلات، وقف الناس في حلقة؛ الفارق هو أنهم وقفوا حول التابوت الآن، وأنوفهم إما في مناديل وإما في رقاب آخرين. وعلى الرغم من كلماتهم اللطيفة عن أخي، فقد ظل الموت قبيحًا من الصعب هضمه مثل حب العزيز التي سقطت ووجدناها بعد أيام من حفلة عيد ميلاد خلف كرسي أو أسفل خزانة التلفاز. بدا وجه "ماتياس" في التابوت وكأنه مصنوع من شمع العسل؛ ناعم ومشدود. دست الممرضات مناديل ورقية أسفل جفنيه لإبقائهما مغلقين، في حين

كنت أفضل أن يظلا مفتوحين حتى نتبادل النظرات مرة أخيرة، وحتى أتيقن من أنني لم أنسَ لون عينيه، وأنه لن ينساني.

عندما غادرت المجموعة الثانية من المعزِّين، حاولت فتح عينيه، مما جعلني أتذكر "نموذج عيد الميلاد" الذي صنعته من الورق في المدرسة، صنعته بمناديل ورقية ملونة تشبه الزجاج الملون وصنعت منه تماثيل ورقية صغيرة للعذراء والقديس يوسف النجَّار. وفي إفطار يوم عيد الميلاد، وضعنا خلف النموذج شموعًا صغيرة حتى تنير من وراء المناديل الورقية لتضيء مشهد ميلاد "يسوع" في الإسطبل. لكن عينيْ أخي كانتا باردتين ورماديتين ولا تشبهان رسومات الزجاج الملون. سارعت بترك الجفنين يرتخيان مرة أخرى وأغلقت الفتحة الزجاجية. حاولوا الحفاظ على شكل خصلات شعره المتجمدة، ولكنها بدت مثل قرون بازلاء بنية ذابلة. ألبسته أمي وجدتي سروال الـ"جينز" وسترته المفضلة؛ تلك التي باللونين الأزرق والأخضر والتي يحمل صدرها أحرف HEROES كبيرة. معظم الأبطال الذين قرأت عنهم في الكتب لا يموتون، حتى لو سقطوا من مبانٍ عالية أو حاصرهم الجحيم، فلا تصيبهم إلا بعض الخدوش. لم أفهم السبب الذي منع "ماتياس" من أن يكون مثلهم، ولماذا لا يمكنهُ سوى أن يصبح خالدًا في ذاكرتنا من الآن فصاعدًا. ذات مرة، أنقذ طائر مالك الحزين من براثن "الحصادة" في اللحظة المناسبة، ولولاه لتمزق الطائر ولأصبح جزءًا من القش الذي نطعمه للأبقار.

كنت مختبئة خلف الباب وجدتي تُلبِس جثمانه، سمعتها تخاطبه، قالت:

- عليك أن تسبح دائمًا إلى الرقعة المظلمة من الجليد. كنت تعلم ذلك، أليس هذا صحيحًا؟

أنا نفسي لم أستطع أن أتخيلك قادرًا على السباحة حتى الرقعة المظلمة من الجليد. يتعلق الأمر باختلاف اللون. فعندما يكون هناك ثلج على الجليد، فإن عليك أن تبحث عن الضوء، ولكن إذا لم يكن هناك أي ثلج، يصبح الجليد أخف من الحفرة ويكون عليك السباحة إلى حيث الظلام.

أخبرني "ماتياس" ذلك بنفسه عندما دخل يومًا إلى غرفة نومي قبل الخروج للتزلج وأراني - وهو يرتدي جواربه - كيفية تحريك القدمين باتجاه بعضهما بعضًا وبعيدًا عن بعضهما خلال التزلج. قال: "كأنكِ تمتطين سمكتين".

كنت أراقبه وأنا في سريري، وأصدرت صوت طقطقة بلساني وسقف فمي، أحاكي به صوت الزلاجات الذي أسمعه من التلفاز الذي يعرض الزلاجين وهم يمرقون فوق الجليد. أحببنا ذاك الصوت. أما الآن، فلساني راقد في فمي مثل قناة ملاحة تتزايد خطورتها في قلب بحيرة. لم أعد أجرؤ على إصدار صوت الطقطقة بعد اليوم.

جاءت الجدة إلى الغرفة الأمامية ومعها زجاجة صابون سائل؛ ربما لهذا السبب وضعوا مناديل ورقية أسفل جفنيه، حتى لا يدخل الصابون إلى عينيه ويلسعهما. سيخرجون تلك المناديل من جديد بعد أن ينتهوا من هندمة الجثمان، تمامًا مثل ضوء شموع نموذج عيد الميلاد الذي أخمدناه حتى نترك

العذراء والقديس يوسف النجّار لحالهما ليواصلا حياتهما. عانقتني الجدة للحظات. تفوح منها رائحة فطائر العسل واللحم وشراب العسل؛ لا تزال هناك كميات كبيرة منها على منضدة الغداء، جعلتها الزبدة دهنية، وكانت حوافها مقرمشة. تساءل والدي عمن صنع وجهًا على فطيرته بمربى التوت وحبات الزبيب وشرائح التفاح، وهو ينظر إلى كل واحد منا. توقفت عيناه على وجه الجدة، التي ابتسمت له بكل بهجة تلك الابتسامة المرسومة فوق فطيرته.

- يبدو الولد المسكين مهندمًا.

يتزايد عدد البقع الداكنة على وجهها، مثل التفاح الذي قطعته وصنعت به أفواهًا فوق الفطائر. أو بعبارة أخرى، يفقد المرء نضارته كلما تقدم به العمر.

- أمن الممكن أن نضع فطيرة ملفوفة بجواره؟ لقد كانت الحلوى المفضلة لـ"ماتياس".

- ستفوح رائحتها. هل تريدين أن تنجذب لها الديدان؟

رفعت رأسي عن صدرها، ونظرت إلى تماثيل الملائكة التي كانت في صندوق على العتبة الثانية من الدرج، تمهيدًا لإعادتها إلى السندرة. تركوني أعيد التماثيل واحدًا تلو الآخر في أغلفتها الفضية، ووجوهها للأسفل. لم أكن قد بكيت بعد. حاولت، وفي كل مرة أفشل، حتى عندما حاولت أن أتخيل "ماتياس" وهو يسقط عبر الجليد، بكل دقة في تفاصيل المشهد؛ يده وهي تتحسس الثلج بحثًا

عن الفتحة، وهو يبحث عن الضوء أو الظلام، وملابسه وزلاجته ثقيلة تحت الماء. حبست أنفاسي مثله، ولكنني لم أحتمل أكثر من نصف دقيقة. قلت:

- كلا، أنا أكره تلك الديدان الغبية.

ابتسمت جدتي لي. أردتها أن تتوقف عن الابتسام، وأن يتناول أبي شوكته ليعبث بها في وجهها ويهرس كل ملامحه، كما فعل مع فطيرته. لم أسمع صوت نحيبها المكتوم، إلا عندما صارت وحيدة في الغرفة الأمامية.

ظللتُ في الليالي التالية أتسللّ إلى الطابق السفلي لأتأكد مما إذا كان أخي قد مات بالفعل. وكنت في البداية أستلقي في الفراش، أتقلب فيه أو أحاول أن أصنع بجسدي "شمعة" كما سميتها؛ بأن أرفع ساقيَّ في الهواء وأسند خصري بيديَّ. يبدو لي موته مؤكدًا في كل صباح، ولكن ما إن يسود الظلام حتى تتنامى في نفسي الشكوك. ماذا لو أننا لم نتأكد بجدية كافية واستيقظ وهو في باطن الأرض؟ وفي كل مرة، كنت آمل لو أن الرب قد غيَّر رأيه ولم يسمع صلاتي له بأن يحمي "ديفيرتجي"، تمامًا مثل تلك المرة، وأظن أنني كنت في السابعة، التي طلبت منه فيها دراجة جديدة؛ حمراء ذات سبعة تروس على الأقل، ومقعدًا ناعمًا له مساعدان، حتى لا تتألم عظام حوضي خلال مشوار العودة إلى المنزل من المدرسة وقت أن أقاوم الرياح. لم أحصل على تلك الدراجة مطلقًا. تمنيت لو أنني هبطت إلى الطابق السفلي الآن لأجد أرنبي راقدًا أسفل غطاء التابوت، وليس "ماتياس". سأحزن بالطبع، ولكنه سيكون حزنًا مختلفًا عن ذلك الذي تنتفخ له عروق جبهتي في أثناء

محاولاتي فهم الموت وأنا راقدة في الفراش، أو وأنا أصنع بجسدي "شمعة" مدة طويلة، حتى إن الدم يتجمع في رأسي مثل الشمع الذائب. وفي النهاية، أترك ساقيَّ تسقطان على الفراش وأنهض لأفتح باب غرفة نومي بحذر. هبطتُ الدرج على أطراف أصابعي، ولكنني اكتشفتُ أن أبي سبقني إلى هناك؛ رأيته من بين أعمدة الدرابزين جالسًا على كرسي بجوار التابوت، وقد أسند رأسه إلى زجاج تلك الفتحة. تأملت شعره الأشقر الأشعث الذي تفوح منه دائمًا رائحة الأبقار، حتى لو كان قد استحم لتوه. تأملت جسده المنحني نحو التابوت. كان يرتجف. مسح أنفه في سترة منامته، وفكرت كيف أن قماش تلك البقعة من المنامة سيستحيل صلبًا عندما يجف المخاط، تمامًا كما يحدث لكمّي معطفي. تأملته، وأنا أشعر بطعنات صغيرة تنهش صدري. تخيلت أنني أشاهد الموسم الأول أو الثاني أو الثالث من "نيدرلاند" وأن بمقدوري أن أتوقف عن ذلك في أي لحظة ما إن أشعر بالملل منه. جلس أبي هناك فترة طويلة، حتى تمكّن البرد من قدميّ. عندما نهض عن كرسيه وعاد إلى فراشه - لفراش والدَيّ مرتبة مائية لا بدَّ وأن جسد والدي يغوص فيها الآن - هبطت بقية الدرج وجلست على كرسيه. كان لا يزال دافئًا. ألصقت فمي بزجاج الفتحة، مثل الثلج في أحلامي، ونفخت. وجدت في فمي مذاق دموع والدي المالح. وجه "ماتياس" شاحب في لون بذرة شمر. شفتاه أرجوانيتان من برودة تصنعها الآلة التي تحفظ جثمانه متجمدًا. أردتُ أن أوقفها عن العمل حتى يذوب بين ذراعي ويتسنى لي حمله إلى الطابق العلوي حتى "ننام عليه"، مثلما اعتاد أبي أن يأمرنا أحيانًا عندما نسيء

التصرُّف ويرسلنا إلى النوم دون تناول العشاء. كنت لأسأله إن كانت تلك هي أفضل طريقة يفارقنا بها.

في الليلة الأولى التي أمضاها في التابوت في الغرفة الأمامية، رآني أبي جالسةً ويداي تتشبثان بالدرابزين ورأسي محشور بين عمودين فيه. تشمم الهواء من حوله، وقال:

- لقد وضعوا حشوات قطنية في مؤخرته حتى لا يخرج برازه منها. لا بدَّ أن جسده لا يزال دافئًا من الداخل. وهو أمر يجعل نفسيتي أفضل.

حبست أنفاسي وبدأت أعد: ثلاث وثلاثين ثانية من الاختناق. لن يمر وقت طويل قبل أن أتمكن من حبس أنفاسي لفترة تتيح لي انتشال "ماتياس" من سباته، ومثلما حدث مع بيض الضفادع التي أخرجناها من الحفرة خلف حظيرة البقر بشبكة صيد وأبقيناها في سطل ماء حتى فقس عن شراغيف، نمت لها ذيول ثم سيقان شيئًا فشيئًا؛ ومثلها، سيعود "ماتياس" ببطء من الموت إلى الحياة ويتحرك.

في صباح اليوم الثالث، سألني أبي من عند أسفل الدرج عما إذا كنت أرغب في الذهاب معه إلى المزارع "يانسن" لنأتي ببعض شتلات النجل لزرعها في رقعة الأرض الجديدة. كنت أفضل البقاء إلى جوار أخي حتى لا

يذوب في غيابي، ويذوب من حياتنا مثل ندفة ثلج، ولكنني لم أرغب في أن أخيب أمل أبي، ولذلك ارتديت معطفي الأحمر فوق ردائي، وأحكمت إغلاق السحَّاب حتى لامس ذقني. الجرار قديم لدرجة أن جسدي كان يرتج مع كل نتوء في الأرض، واضطررت إلى التشبث بحافة النافذة المفتوحة. كنت أنظر بقلق إلى والدي؛ آثار النوم ما زالت على وجهه، وقد تركتْ المرتبة المائية بصمتها على جسده. اهتزاز جسد أمي يمنعه من النعاس، وكذلك تمايل جسده هو، أو فكرة أن الأجساد تكون أثقل عند سقوطها في الماء. غدًا يشتريان مرتبة عادية. قرقرت معدتي.

- أريد أن أدخل الحمَّام.

- ولماذا لم تذهبي إلى الحمام عندما كنا في المنزل؟

- لم أكن أحتاج إليه حينها.

- مستحيل، لا أحد يحتاج إلى الحمام فجأةً.

- لكن هذه هي الحقيقة. أعتقد أن عندي إسهالًا.

أوقف أبي الجرار عند الأرض، وأطفأ المحرك، ومد يده ليفتح الباب لي.

- اقضي حاجتكِ هناك، عند شجرة الدردار.

سارعت بالنزول من الجرار، وخلعت معطفي وملابسي وبنطالي حتى ركبتيَّ. تخيلت الإسهال وهو يتناثر على العشب مثل صوص الكراميل

الذي تسكبه جدتي فوق بودنج الأرز، بينما أعتصر مؤخرتي اعتصارًا. اتكأ أبي على إطار الجرار، وأشعل سيجارة، ثم نظر إليَّ:

- لو أطلتِ التبرز أكثر من ذلك، سيحفر حيوان الخُلد في ثقب مؤخرتك.

بدأت أتصبب عرقًا، وأنا أتخيل عيدان القطن التي حدثني عنها أبي، وأتخيل حيوانات الخُلد وهي تنهش جثة أخي بعد أن ندفنها، والطريقة التي ستنقب بها كل شيء داخلي بدوري بعد ذلك. برازي ملكي، ولكن ما إن يسقط فوق العشب، يصير ملكًا للعالم.

- ادفعي وحسب.

قالها أبي، قبل أن يقترب مني ليناولني منديلًا مستعملًا. عيناه قاسيتان. لم أعتد رؤية هذا التعبير على وجهه من قبل، على الرغم من أنني أعرف أنه يمقت الانتظار، لأنه يجبره على الوقوف ساكنًا فترة طويلة، وهكذا يبدأ عقله في التفكير في كل اتجاه، وهكذا يشعل السيجارة تلو الأخرى. لا أحد في القرية يحب أن يبقى ساكنًا بلا حراك، فقد تفسد المحاصيل، ونحن لا نعرف إلا ذاك الحصاد الذي تنبته الأرض، ونجهل ذلك الذي ينمو بداخلنا. استنشقت دخان أبي حتى تصبح همومه همومي. وبعدها، تلوت صلاة سريعة للرب حتى لا يصيبني بالسرطان من دخان السيجارة ووعدته أنني سأساعد على هجرة الضفادع ما دامت قد سمحت سني بذلك.

"البَازُ يَهْتَمُّ بِحَاجَةِ بُهيقَتِهِ".

قرأتها ذات مرة في الكتاب المقدس، وعرفت أنني في أمان من الإصابة بأي مرض.

- راحت الحاجة.

سحبت بنطالي وهندمت ملابسي، وارتديت معطفي وأحكمت إغلاق سحابه حتى ذقني. بوسعي الآن أن أحتفظ ببرازي. ولن أكون بحاجة إلى فقدان أي شيء أرغب في الاحتفاظ به بعد الآن.

نهض أبي عن جُحْر الخلد، وهو يقول لي:

- اشربي الكثير من الماء، فهذه طريقة مجربة مع العجول أيضًا. لو لم تفعلي لخرج من الناحية الأخرى ذات يوم.

وضع يده على رأسي، وحاولت المشي منتصبة القامة أسفل راحة يده قدر استطاعتي. الآن صار عليَّ الانتباه إلى شيئين في كلا طرفي جسدي.

عدنا إلى الجرار. كانت رقعة الأرض الجديدة أكبر عمرًا مني، ومع ذلك لم يتوقفوا عن ذكرها بالجديدة. ذكرني هذا بأرض كان يعيش فيها طبيب عند سفح السد، حيث توجد الآن ملاعب تنتهي عند جرف، ومع ذلك ما زلنا ندعوها بـ"أرض الطبيب العجوز" في كل مرة نخطط للعب هناك.

- هل تعتقد أن اليرقات والديدان ستأكل "ماتياس"؟

سألته ونحن نعود إلى الجرار. لم أجرؤ على النظر نحوه. ذات مرة تلا أبي من سفر "إشعيا": "**طُرِحَتْ كُلُّ عَظَمَتِكَ فِي الْهَاوِيَةِ مَعَ رَنَّةِ عِيدَانِكَ، وَأَضْبَحَتِ الرِّمَمُ فِرَاشَكَ وَالدُّودُ غِطَاءً لَكَ**". والآن كنت قلقة من أن يحدث هذا لأخي أيضًا. فتح أبي باب الجرار دون أن يرد عليَّ. وفزع عقلي وهو يرسم صورة لجثة أخي المثلثة بالثقوب، مثل أوراق الفراولة في الحقل.

عندما وصلنا إلى حيث شتلات الفجل، وجدنا بعضها فاسدًا. علق ذلك اللُّب الأبيض الطري الذي يشبه الصديد بأصابعي عندما التقطته. ألقى بها أبي بلا مبالاة في المقطورة. سقطت في قلبها بصوت مكتوم. كلما نظر إليَّ، احمرت وجنتاي. فكرت في أن علينا أن نتفق على أوقات لا يمكن فيها لوالدي النظر إليَّ، كما نفعل عندما نحدد أوقاتًا لمشاهدة التلفاز. ربما كان هذا هو السبب الذي منع "ماتياس" من العودة إلى المنزل في ذلك اليوم؛ لم يعد لأن خزانة التلفاز كانت مغلقة ولم يكن أحد يراقبنا.

لم أجرؤ على طرح أي أسئلة أخرى على والدي بشأن "ماتياس" وألقيت آخر حزمة فجل في المقطورة، ثم اتخذت مكاني بجانبه في مقعد الجرار. كان هناك ملصق على الحافة الصدئة فوق مرآة الرؤية الخلفية، "احلبوا البقرة، لا المزارع".

عدنا إلى المزرعة، وسحب أبي و"أوبي" المرتبة المائية، ذات اللون الأزرق الداكن، الى الخارج. فتح أبي الفوهة وغطاء الأمان وترك المياه تتدفق في الفناء. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تتشكّل طبقة رقيقة من الجليد. لم أجرؤ على الوقوف عليها، خشيتُ أن أقع في قلبها. انكمشت المرتبة داكنة اللون ببطء، مثلما يحدث لعبوة بُن محكمة الغلق. عقب ذلك، لف أبي المرتبة ووضعها على جانب الطريق، بجوار العربة اليدوية التي تحتوي على شجرة عيد الميلاد، والتي ستأخذها شركة جمع النفايات يوم الإثنين. لكزني "أوبي"، وهو يقول:

- ها هو ذا.

حدقت إلى المكان الذي كان يشير نحوه، فرأيت سيارة نقل الموتى السوداء تقترب من ناحية السد؛ اقتربتْ أكثر فأكثر، مثل غراب كبير، ثم انعطفتْ يسارًا في الدرب إلى المزرعة، ومرت فوق طبقة الجليد التي تكوّنت من مياه المرتبة، والتي تصدعت بالفعل. ترجل منها القس "رينكيما" برفقة اثنين من أعمامي. كان أبي قد اختارهما والمزارع "إيفرتسن" والمزارع "يانسن" لحمل النعش المصنوع من البلوط إلى داخل عربة الموتى، ومن ثم حمله لاحقًا إلى داخل الكنيسة، حيث ننشد من حول التابوت الترنيمة 416، لنصاحب الفرقة التي عزف معها "ماتياس" الـ"ترومبون" طيلة سنوات، ويبقي الأمر الصائب الوحيد في تلك الظهيرة هو أن الأبطال يُحملون عاليًا على الدوام.

الجزء الثاني



الفصل الأول



عندما تمعن النظر عن قرب، ترى الحبوب على صغار الضفادع وكأنها نبات القبار. وأنا أكره طعم نبات القبار، تلك البراعم الخضراء الصغيرة، والتي إذا فرقعت واحدة بين إبهامي وسبابتي، يخرج منها سائل حامض، تمامًا مثل الذي تفرزه الغدة السامة لدى الضفدع. أنكز أرداف ضفدع سمين بالعصا. على ظهره خط أسود رفيع. إنه لا يتحرك. أدفعه بقوة أكبر وأراقب جلده الخشن وهو يلتف حول طرف العصا؛ وللحظة، يلامس بطنه الناعم الأسفلت الذي جعلته أشعة شمس الربيع أكثر دفئًا حيث تحب الضفادع أن تجلس. أهمس له:

- أريد مساعدتك وحسب.

أضع المصباح الذي قدموه لنا في الكنيسة الإصلاحية جواري على أسفلت الطريق. إنه أبيض ذو طيات بارزة. "**كلمة الرب مصباح ينير**

خطاكم وطريقكم"، هكذا قال القس "رينكيما" وهو يوزع المصابيح على الأطفال. وعلى الرغم من أن الساعة لم تكن الثامنة بعد، فإن شمعتي تقلصت إلى نصف حجمها. تمنيت ألا تتلاشى كلمة الرب مثلها.

رأيت في ضوء مصباحي أن قدميّ الضفدع الأماميتين بلا غشاء أو أوتار كما أعرف. ربما عضه مالك الحزين أو عذبه صبي فجعلهما على هذا النحو. ربما هي مثل ساق أبي التي يجرها خلفه عبر أنحاء المزرعة وكأنها جوال ملأه بالعلف.

"هناك بطاطس مهروسة وشوكولاتة "ميلكي واي" للجميع".

سمعت إحدى المتطوعات في الكنيسة وهي تصيح بهذه الكلمات من خلفي. مجرد التفكير في تناول الـ"ميلكي واي" في مكان لا توجد فيه مراحيض يربك معدتي. فأنت لن تعرف أبدًا ما إذا كان هناك مَن عطس فوق أطباق البطاطس المهروسة أو بصق في أحدها أو ما إذا كانوا قد تحققوا من تاريخ انتهاء صلاحية قطع الشوكولاتة. ولربما تحوَّل لون طبقة الشوكولاتة فوق [illegible] إلى الأبيض، تمامًا كما يستحيل لون وجهك إن أصابك طعام ما بالمرض. وعندئذ، يأتي الموت بسرعة، وأنا متأكدة من ذلك. وها أنا ذا أحاول أن أنسى أمر الـ"ميلكي واي"، بأن أهمس للضفدع:

- إن لم تبتعد سريعًا من هنا، فإن ذلك الخط الأسود على ظهرك سيحصل على آثار إطارات السيارات أيضًا.

بدأت ركبتاي تؤلمانني من طول جلوسي القرفصاء، والضفدع ساكن لا يتحرك. حاول ضفدع آخر القفز على ظهر ذلك الضفدع؛ محاولًا تثبيت نفسه بوضع قدميه الأماميتين تحت إبطي الضفدع الأول، لكنه ظل ينزلق. ربما يخافان من الماء، مثلي. أقف مجددًا، وألتقط مصباحي وأدس الضفدع بسرعة في جيب معطفي دون أن ينتبه أحد إلى ذلك، ثم أبحث في المجموعة عن شخصين يرتديان سترات فسفورية.

أصرت أمي على أن نرتديها، قالت:

- وإلا دهستكم الشاحنات وسوتكم بالأرض مثل الضفادع. وهو أمر بشع ولا أحد يريد حدوثه. أمّا إذا ارتديتم هذه السترات، فستتحولون إلى مصابيح.

تشمم "أوبي" السترة، ثم قال:

- مستحيل، لن أرتديها. سنبدو أغبياء في هذه السترات العفنة نتنة الرائحة. كما أن لا أحد سيرتدي سترات السلامة هذه.

تنهدت أمي وقالت:

- دائمًا ما أسيء التصرف، أليس كذلك؟

ثم ارتسم الحزن على وجهها؛ مال طرفا شفتيها لأسفل، وهي حركة أظهرتها كثيرًا في هذه الأيام الأخيرة، كأن فاكهة ثقيلة تعلقت بشفتيها. بادرتها وأنا أرسل لـ"أوبي" إشارات خاصة:

- بل أنتِ رائعة يا أمي. سنرتديها بالطبع.

لا يرتدي السترات إلا الأولاد والبنات في عامهم الأخير من المرحلة الابتدائية، يوم أن يخوضوا اختبار كفاءة ركوب الدراجات، والذي تشرف عليه أمي. يومها، تجلس على كرسي قابل للطيّ من القماش عند مفترق الطرق الوحيد في القرية، وعلى وجهها تعبيرات الاهتمام والقلق. تزم شفتيها، مثل زهرة خشخاش لم تتفتح بعد. مهمتها هي التأكد من أن كل شخص يمد ذراعه للإشارة إلى حركة المرور ومن ثم يتجاوزها بأمان. كانت أول مرة أشعر فيها بالخجل من أمي في ذلك اليوم الذي جلست فيه عند مفترق الطرق.

تقترب سترة فسفورية نحوي. إنها "هانا".. كانت تحمل في يدها اليمنى دلوًا أسود ممتلئًا بالضفادع، وسترتها نصف مفتوحة، يتلاعب الهواء بها. مشهد يشعرني بالتوتر والقلق.

- عليكِ أن تحكمي سترتكِ على جسدك.

ترفع "هانا" حاجبيها في دهشة، فيبدوان كدبوسين مشبوكين بوجه من القماش. استمرت في النظر إليّ هكذا، مع بعض السخط، لفترة طويلة.

ستصبح الشمس أشد حرارة خلال النهار، وتستمر حرارتها في الارتفاع.

المزيد من النمش حول أنفها. ارتسمت في مخيلتي صورة جسد "هانا"، وقد انهرس ملتصقًا بأسفلت الطريق وتناثر النمش حول وجهها نقاطًا حمراء فوق سواد الطريق، مثلها مثل تلك الضفادع التي تقطعت أوصالها. عندئذ، سنضطر إلى انتزاع جثتها من براثن الأسفلت بجاروف.

- ولكنني أشعر بالحر.

في تلك اللحظة، انضم "أوبي" إلينا. شعره الأشقر طويل ويتدلى في خصلات دهنية أمام وجهه. في كل مرة يزيح خصلاته خلف أذنيه، تعود ببطء إلى مكانها مرة أخرى.

- انظرا. هذا الضفدع يشبه القس "رينكيما". أتريان هنا الرأس السمين والعينين الجاحظتين؟ كما أنه بلا رقبة، مثل "رينكيما".

حدقنا إلى ضفدع بني يقبع في راحة يده. ضحكنا ولكن ليس بصوتٍ عالٍ؛ يجب ألا نسخر من القس، تمامًا كما يجب ألا نسخر من الرب؛ فهما صديقان مقربان علينا التعامل معهما بحذر. وأنا ليس لديَّ صديق مقرب حتى الآن، ولكن هناك الكثير من الفتيات في المدرسة الجديدة اللواتي قد يصبحن كذلك. "أوبي" في المرحلة الثانوية منذ وقت طويل، و"هانا" أصغر مني بعامين في المدرسة الابتدائية. لديها أصدقاء وصديقات كثر، تمامًا كما للرب حواريون كثر.

فجأة، حمل "أوبي" مصباحه فوق رأس الضفدع. رأيت جلده يتوهج بلون مصفر شاحب. أغمض الضفدع عينيه بقوة، وابتسم "أوبي".

- إنها تحب الدفء. ولهذا تدفن رؤوسها القبيحة في الطين خلال الشتاء.

كان يقرب مصباحه من الضفدع أكثر. عندما تحمر حبات القابر، تصير سوداء مقرمشة. أردت أن أبعد يد "أوبي" التي تحمل المصباح، ولكن السيدة التي توزع البطاطس المهروسة والـ"ميلكي واي" اقتربت منا. سارع "أوبي" بإعادة الضفدع إلى الدلو. ترتدي السيدة "تي-شيرت" مطبوعًا عليه: "احترس! ضفادع تعبر الطريق!". لا بدَّ أنها لاحظت تعبيرات وجه "هانا" المنزعجة، لأنها سألتنا إذا كان كل شيء على ما يرام، وعمَّا إذا كنا نشعر بالضيق بسبب الضفادع التي هرستها الشاحنات على الطريق. لكنني احتضنت بحنان أختي الصغيرة المنزعجة. كنت أعرف أنها قد تنخرط في البكاء سريعًا، كما فعلت هذا الصباح عندما دهس "أوبي" جرادة بحذائه الثقيل. ظننت أن صوت الدهس هو الذي أرعبها، ولكن ما أرعبها حقًّا كان انتهاء تلك الحياة الصغيرة، ومرأى جناحي الحشرة وقد تحولا إلى ستارة صغيرة تغطي وجهها المنهشم. كانت ترى الحياة.. أما أنا و"أوبي"، فلم نرَ سوى الموت.

ابتسمت السيدة ابتسامة مصطنعة، وهي تخرج من جيب معطفها قطعة "ميلكي واي" لكل منا. تناولتها منها أدبًا، وانتهزت فرصة لم تكن تنظر فيها إليَّ وأخرجت القطعة من غلافها وألقيت بها في دلو الضفادع؛ أعتقد أنها لا تصاب أبدًا بالمغص أو الإسهال. أقول:

- "الملوك الثلاثة" بخير.

أطلقتُ علينا "الملوك الثلاثة" منذ اليوم الذي لم يعد فيه "ماتياس" إلى البيت، وهذا لأننا قررنا أن نعثر على أخينا ذات يوم، حتى لو اضطررنا للسفر بعيدًا محملين بالهدايا.

لوحت بمصباحي تجاه طائر حتى أهشه. ارتجفت الشمعة بشدة، وسقطت قطرة شمع ذائبة ساخنة على حذائي. جفل الطائر وحط على شجرة قريبة.



أينما تتنقل بدراجتك عبر القرية أو الحقول، ترَ جثث الضفادع الجافة مثل مفارش المائدة الصغيرة. ومع عدد الأطفال والمتطوعين الذين جاؤوا للمساعدة، كنا نحمل الدلاء الممتلئة والمصابيح إلى الجانب الآخر من الحافة التي تمتد حتى البحيرة. تبدو المياه بريئة على نحو شديد الاستفزاز اليوم. يمكنني من بعيد تبين خيالات المصانع العريضة، وتلك العمارات الشاهقة ذات عشرات المصابيح متلونة الأضواء وذاك الجسر الذي يربط بين القرية والمدينة، فأتذكر مسار "موسى" وهو يمد يده فوق البحر، كما يحكي الكتاب المقدس: **"فَأَجْرَى الرَّبُّ الْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ الْبَحْرَ يَابِسَةً وَانْشَقَّ الْمَاءُ. فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ".**

تقف "هانا" جواري، وهي تنظر نحو الجانب الآخر.

- انظري إلى كل هذه الأضواء. ربما يقيمون استعراض مصابيح في كل ليلة.

- كلا، إنهم يخشون الظلام فحسب.

- أنتِ تخشين الظلام!

هززت رأسي في نفي، ولكن "هانا" كانت منشغلة بإفراغ دلوها. انتشرت عشرات الضفادع الكبيرة والصغيرة فوق سطح الماء. أصابني صوت ارتطامها الضعيف بالماء بالدوار. وانتبهت إلى أن بطانة معطفي تلتصق بإبطي. وحتى أتخلص من شعوري بالحرارة، رفرفت بذراعي مثل طائر يريد أن يحلق. سألتني "هانا":

- هل تودين الذهاب إلى الجانب الآخر؟

- لا شيء يستحق أن تراه هناك؛ إنهم حتى لا يمتلكون أي أبقار.

وقفت في مجال رؤيتها، وأنا أحكم سترتها الفسفورية على جسدها.

تنحت أختي خطوات إلى الجانب. كانت قد عقصت شعرها ذيل حصان، فكان يربت على ظهرها مع كل حركة. انتابتني رغبة شديدة في أن أخلع رباط شعرها. كنت أريدها ألا تظن أن كل شيء ممكن، وأن بوسعها أن ترتدي زلاجتها ذات يوم ثم تختفي.

- ألا تريدين أن تعرفي كيف يعيشون هناك؟

- بالطبع لا، أيتها العنيدة. تعرفين أن الـ.

لم أتم جملتي، واكتفيت بوضع الدلو الفارغ فوق العشب جواري.

ابتعدت عنها بخطوات.. أحصيتُ عددها. ما إن خطوت الخطوة الرابعة حتى كانت "هانا" تسير بجواري مرة أخرى. الرقم أربعة هو المفضل لديَّ. للبقرة أربعة بطون، وهناك أربعة فصول، وللكرسي أربع أرجل. شعرت بذلك الشعور الثقيل في صدري، مثل فقاعات هواء تطفو على صفحة البحيرة قبل أن تتفرق. قالت بسرعة:

- لا بدَّ أن الحياة هناك مملة من دون الأبقار.

في ضوء الشموع، لا يمكن لأحد أن يميز أنفها المعقوف. لديها حَوَر في عينها اليمنى؛ لذلك فهي تبدو دائمًا وكأنها تعدل نظرها لكي تثبت عينها عليك، مثل عدسة الكاميرا. أتمنى لو أمكنني أن أضع في داخل عينها فيلم تصوير جديدًا حتى أتأكد من أنها سوف تبصر جيدًا بما يكفي لتظل في أمان. أتناول يد "هانا" في يدي، فأجد أصابعها لزجة. تقول:

- "أوبي" يتحدث مع فتاة.

أنظر خلفي. لاحظت أن جسده النحيف يتحرك على نحو أفضل عما اعتدت أن أراه؛ وأنه يبالغ في إيماءاته بيديه ويضحك بصوته المميز العالي، وهو ما لم يفعله منذ وقت طويل. جلس القرفصاء عند ضفاف البحيرة. ربما يحكي لها

قصة لطيفة عن الضفادع، عن بِيَّاتنا الحسنة، ولكنها ليست حكاية عن الماء، الذي بالكاد دفأته الشمس، حيث تسبح الضفادع الآن وحيث غرق أخونا إلى قاعه منذ عام ونصف العام. يسير مع الفتاة جوار السد. وما هي إلا لحظات حتى تواريا عن أنظارنا. ذابا في الظلام. لم نجد سوى مصباحه على الأسفلت وإلى جانبه الشمعة الخضراء الصغيرة وقد سُويت بالأرض فبدت أشبه بفضلات إوزة. كشطتها بجاروفي الصغير. لا يسعنا أن نتركها هنا وحدها هكذا بعد خدمة دامت أمسية كاملة. وعندما نعود إلى المزرعة، سأعلقها على فرع من أفرع شجرة الصفصاف العديدة. تصطف الأشجار ورؤوسها منحنية نحو غرفة نومي، مثل وفد من قساوسة الكنيسة يستمعون لنا داخل منزلنا. شعرت بحركة الضفادع في جيب معطفي. أضع يدي عليها لأحميها. التفتُّ إلى "هانا" وأنا أقول لها:

- لا تتحدثي مع أمي وأبي عن الجانب الآخر، حتى لا ينزعجا.
- لن أتحدث معهما.. كانت فكرة حمقاء.
- جدًا.

نرى أمنا وأبانا بواسطة النافذة، جالسين على الأريكة. يبدوان من الخلف مثل بقايا الشمعتين في مصابيحنا. بصقنا على شمعتينا لنطفئهما.

الفصل الثاني



تزايدت المرات التي صارت فيها أمي تخطئ في تقدير كمية الطعام التي
تضعها في صحننا، وبمجرد أن تجلس إلى المائدة بعد توزيع الطعام، تقول:

- بدت لي الكمية أكثر من ذلك بكثير وأنا واقفة.

أحيانًا أشعر أننا السبب، وأننا ننهش فيها من الداخل، مثلما يحدث
لعنكبوت "الدانتيل الأسود". أخبرتنا عنها معلمة الأحياء؛ بمجرد أن تلد
تلك العنكبوت، حتى تهب جسدها طعامًا لصغارها. وسرعان ما تلتهم
العناكب الصغيرة الجائعة الأم، كل قطعة منها، حتى لا يتبقى منها ولو
حتى ساق واحدة. لا تحزن الصغار عليها ولو للحظة. اعتادت أمي أن
تترك "الكوردون بلو" الخاص بها على حافة صحننا، بحجة أنها تفضل

"ترك الأفضل حتى نهاية الوجبة"، رغم أني أعرف أنها تتركها تحسبًا لئلا يكون صغارها "نحن" قد شبعوا بعد.

أنا أيضًا بدأت أنظر إلى عائلتي من أعلى، حتى لا ألحظ إلى أي مدى تضاءلنا من دون "ماتياس". ذلك المكان الفارغ على الطاولة الآن به مجرد كرسي لم يعد باستطاعة أخي الجلوس عليه، والذي اعتاد أن يميل به إلى الخلف حتى يقف الكرسي على ساقين فقط، فيصرخ به أبي قائلًا: "أربعة سيقان!". ليس مسموحًا لأحد منا بالجلوس على هذا الكرسي. أعتقد أنه يفعل هذا تحسبًا لعودته يومًا ما.

- إذا عاد "يسوع"، فسيكون يومًا مثل أي يوم آخر. سوف تستمر الحياة كالمعتاد. تمامًا مثلما بنى "نوح" سفينته، سيكون الناس مشغولين بالعمل والأكل والشرب والزواج. وسوف تكون عودة "ماتياس" متوقعة تمامًا مثل عودة "يسوع".

هكذا قال أبي في الجنازة. عندما يعود، سأدفع كرسيه للداخل حتى يلامس حافة الطاولة، حتى لا ينسكب طعامه أو ينفلت منَّا دون صوت. منذ وفاته ونحن نتناول الطعام في خمس عشرة دقيقة بالتمام. عندما تنتصب اليد الكبيرة واليد الصغيرة للساعة، ينهض أبي. يرتدي "البيريه" الأسود ويذهب للاعتناء بالأبقار، حتى ولو كان قد فعل ذلك بالفعل.

تتساءل "هانا":

- ماذا سنأكل؟

- بطاطس جديدة وفاصولياء.

أجيبها، بعد أن أكشف غطاء الوعاء لأعرف. ألمح وجهي الشاحب منعكسًا على معدنه. أبتسم لنفسي بحذر، وللحظة سريعة، وإلا انتبهت أمي ووبختني. لا يوجد هنا ما يستحق أن نبتسم من أجله. المكان الوحيد الذي ننسى فيه كل شيء، أحيانًا، هو خلف الحظيرة، بعيدًا عن أنظار والدينا.

- من دون لحم؟

- لقد احترق. مرة أخرى.

تلطم أمي يدي، فأترك غطاء الوعاء، ليسقط مخلفًا دائرة رطبة على مفرش الطاولة. تقول أمي:

- لا تكوني طماعة.

ثم تغمض عينيها، وفي الحال نقلدها جميعًا، على الرغم من أن "أوبي"، مثلي، يتعمد إغماض عين واحدة حتى لا يفوته شيء. دومًا ما يبدأ أبي صلاة المائدة من دون سابق إنذار.

"أدعو الرب ألا تتشبث أرواحنا بهذه الحياة العابرة، بل أن تمتثل لأمر الرب وإليه مآل كل شيء.. آمين".

بعد صلاته بنبرة وفورة مميزة، يفتح أبي عينيه. وتشرع أمي في ملء الصحون بالطعام. ولأنها تنسى تشغيل شفاط الهواء، يعبق المنزل برائحة اللحم الذي احترق ويتجمع الدخان عند النوافذ. فلا يكون بمقدور أي من المارة في الخارج أن يلحظ أنها لا تزال ترتدي منامتها الوردية. اعتاد الناس في القرية التحديق خلال نوافذ بعضهم بعضًا، ليعرفوا عدد الساعات التي يعمل فيها الآخرون، وكيف يحافظ أفراد كل عائلة على الدفء في منزلهم. يجلس أبي عند مقدمة الطاولة ورأسه بين يديه. لقد احتفظ به مرفوعًا طوال اليوم لكن ها هو ذا يسقط على الطاولة؛ أصبح ثقيلًا جدًّا. وبين حين وآخر، يرفعه ليدس الشوكة في فمه، ثم يتركه ينتكس مرة أخرى. تلك الطعنات الصغيرة في بطني تزداد وطأة، كما لو أن ثقوبًا تنفتح في جدارها. لا أحد يتكلم، ولا صوت يعلو على صوت السكاكين والشوكات على الأطباق. أحكم حبال معطفي حول جسدي أكثر. وأتمنى لو أمكنني أن أجلس القرفصاء فوق الكرسي. عندئذ، قد يخف ألم معدتي، التي أشعر بها وهي تنتفخ، وسيكون لديَّ مجال رؤية أفضل. ولكن أبي يجد أن هذا الوضع غير محترم، ويلكزني بالشوكة في ركبتي حتى أجلس باعتدال من جديد. في بعض الأحيان، أحصي عدد الخطوط الحمراء التي انطبعت على ركبتي، فأجدها مثل عدد أيام غياب "ماتياس". يميل "أوبي" على أذني ويقول:

- أتعرفين كيف يبدو حادثًا يقع في نفق؟

كنت قد صنعت للتو أربعة ثقوب في عود فاصولياء، وانسابت العصارة منها، في شكل أشبه بمزمار. ولكن "أوبي" فتح فمه قبل أن أرد عليه.

ـبه البطاطس المهروسة الممتزجة بقطع فاصولياء خضراء مع بقايا
ـه التفاح. وكأنه قيء. فتح فمه ليضحك، قبل أن يبتلع ذلك القيء.
ـط أزرق شاحب على جبهته. رأسه يرتطم بحافة الفراش وهو
وهو أصغر من أن يقلق حيال ذلك. يقول أبي إن الأطفال لا يقلقون
ـمرنون، فهي مشاعر لا تأتي إلا لمن يعمل ويكد بيديه في الحقول
على الرغم من أنني لا أتوقف عن الشعور بالحزن والقلق بداخلي،
لا أنام ليلًا بسبب ذلك. أشعر وكأنها تنمو بداخلي.

الآن، بعد أن صارت أمي أنحف وملابسها أوسع على جسدها، صرت
من أن تموت سريعًا وأن يلحق بها أبي. أتابعهما طوال اليوم حتى
ـون أيهما ويختفي بغتة.

ـرسهما. أبقيهما دائمًا في عينيّ، مثل الدموع على "ماتياس". ولا
نور الكرة الأرضية على منضدة فراشي أبدًا قبل أن أسمع شخير أبي
ـرير فراشه مرتين على الأقل. تتقلب أمي على الفراش دائمًا، يمنة
ـرة، ثم يمنة مجددًا إلى أن تستقر في وضعية تناسبها. عندئذ، أرقد
ـله في ضوء الكرة التي استقرت عند بحر الشمال، أرقب خفوته
ـبجيًا إلى أن ينطفئ. وعندما يذهبان إلى زيارة أصدقاء في القرية مساءً،
لا تجيبني أمي عندما أسألها عن موعد عودتهما، أستلقي لساعات وأنا
ـظر إلى السقف. ثم أتخيل كيف سيعاملني الناس عندما أصير يتيمة، وما
ـف أقوله لمعلمتي عن سبب وفاتهما. هناك قائمة في رأسي تضم أهم

عشرة أسباب للوفاة. بحثت عنها في "جوجل" ذات مرة خلال الفسـ
سرطان الرئة هو السبب رقم واحد. ودونت قائمتي الخاصة سرًا: الغر
حوادث المرور، والانزلاق داخل حظيرة الأبقار من أهمها.

بعد أن حددت ما سوف أقوله للمعلمة، وبعد أن توقفت عن الانغماس
الشفقة على نفسي، غصت برأسي في وسادتي. أنا أكبر من أن أومن بوجود جـ
الأسنان، ولكني أصغر من أن أمنع نفسي من تمني ظهورها. يسميها "أوبـ
أحيانًا بسخريته "عاهرة الأسنان" لأنها توقفت عن وضع النقود له ذات يـ
على الرغم من أنه وضع كل ما سقط من أسنانه وضروسه تحت وسادته. تر
مكانها آثار دم، لأنه لم يغسلها. لسوف أعتصرها بيدي إن جاءت لزيارتي ذ
يوم. عندئذ، ستكون أسيرتي، وسأطلب منها أن تحضر لي أبوين جديدين
زال لديَّ ضرسي العقل، حتى أستخدمهما طعمًا لها. في بعض الأحيان، أهبط
الطابق السفلي عندما أجد أنهما لم يعودا بعد. أجلس في الظلام بمنامتي
الأريكة، وأضم ركبتيَّ إلى صدري، ومن حولهما ذراعاي، وأدعو الرب بأ
مستعدة للإصابة بالإسهال مرة أخرى في مقابل أن يعيدهما سالمين إلى المنـ
أتوقع أن يرن جرس الهاتف في أي لحظة وأن أسمع من يخبرني بأنهما ـ
مصرعهما في حادث سيارة. لكن جرس الهاتف لا يرن أبدًا. عادةً ما يغلبني ا
بعد فترة، فأعود إلى الطابق العلوي حيث أواصل انتظاري تحت الأغطية الدا
لا يعودان إلى الحياة في مخيلتي حتى أسمع صوت صرير باب غرفة نوم
وصوت خطوات أمي. وبعدها أنام بكل راحة بال.



ألهو مع "هانا" قبل أن نذهب إلى الفراش. تجلس "هانا" على السجادة خلف الأريكة. أنظر إلى جواربي التي تكاد تصل إلى ركبتيَّ، فأشدها حتى لا تكون مرتخية من أعلى. تجلس أختي جوار جزيرة "ثندربيردز". كانت لعبة "ماتياس"، وكنا كثيرًا ما نلعب بها معًا. نطلق صواريخ وهمية نحو السماء ونقاتل العدو! وكنا نختار في أي صف نقاتل. يرقد "أوبي" على بطنه فوق الأريكة، والسماعات على أذنيه. ينظر إلينا في استهتار. لا يعرف أن هناك بقعة مايونيز على هيئة خريطة فرنسا تلطخ الـ"تي-شيرت" الرمادي الذي يرتديه.

- سوف أجعل كلَّ مَن يحطم هذه الأشجار على الطريق في اللعبة يسمع أغنية فرقة "هيت زون" الجديدة عشر دقائق عن طريق مُشغِّل الأسطوانات المدمجة هذا.

ترك "أوبي" السماعات تنزلق عن رأسه لتستقر حول عنقه. كل مَن في فصلي يمتلك جهاز مشغِّل الأسطوانات، إلا "قديمو الطراز". وأنا لا أريد أن أكون "قديمة الطراز"، لذلك أدخر من مصروفي لشراء مشغِّل أسطوانات يخصني وحدي؛ ماركة "فيليبس" من النوع الذي يتحمل الصدمات، حتى لا تتوقف الأغاني وأنا أسمعها في طريقي إلى المدرسة بسبب المطبات على الطريق. وسوف أشتري له جرابًا بلون معطفي نفسه. ادخرت الكثير ولم يبقَ إلا القليل. يمنحنا أبي 2 يورو كل سبت مقابل مساعدتنا له في المزرعة.

- ادخروا النقود حتى تجدوها عندما تحتاجون لها.

أفكّر في مشغّل الأسطوانات فأنسى كل شيء آخر حولي، حتى التفكير في أن أبي يتمنى لو نرحل من البيت.

ذات يوم، كانت أشجار الجزيرة خضراء يانعة، لكن لونها خفت على مر السنين. وكما لو أن هناك مَن يستحثني على فعل ذلك، فقد كسرتُ صفًا كاملًا من الأشجار البلاستيكية دون أن أدري. أسمعها تتهشم بين أصابعي، وكل ما يمكنك أن تحطمه بيد واحدة فهو رقيق. انتبهت إلى بكاء "هانا" وعويلها. بادرني "أوبي":

- كنت أمزح أيتها الغبية.

أشاح بوجهه عني. جاءت أمي من المطبخ. أعاد وضع السماعات على أذنيه. أحكمت أمي رباط منامتها، وعيناها تتنقلان بين "هانا" و"أوبي" وأنا. رأت الأشجار المحطمة بين أصابعي. ومن دون كلمة، جذبتني من ذراعي، وغرست أظفارها في نسيج معطفي، الذي لم أعد أخلعه قطُّ. أحاول أن أجعل مشاعري محايدة. أحرص على ألا أنظر في عينيْ أمي حتى لا تفكر في خلع معطفي عن جسدي، من دون رحمة، بالطريقة نفسها التي تقشر بها حبات البطاطس. لم تتركني إلا عند الدرج.

- أحضري حصالتكِ.

أمرتني، وهي تزيح خصلة من شعرها الأشقر عن وجهها. تتسارع نبضات قلبي مع كل خطوة أخطوها لأعلى. وللحظة، تذكرت مثلًا سمعته من جدتي وهي تقرأ في سفر "إرميا"، بينما تلعق إصبعها بين فينة وأخرى حتى لا تلتصق الكلمات بيدها:

"اَلْقَلْبُ أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ، مَنْ يَعْرِفُهُ؟".

ولكنَّ أحدًا لا يعرف قلبي. إنه مختبئ أسفل معطفي وجلدي وضلوعي. كان لقلبي أهمية وأنا داخل بطن أمي طيلة تسعة أشهر، ولكنني ما إن فارقت بطنها حتى لم يعد يهم أحد. لا أحد يقلق بشأنه: هل ينبض بانتظام أم توقف، أم أنه ينبض سريعًا في وجل، لينبهني أن هناك شيئًا ما ليس على ما يُرام.

عدت إلى الطابق السفلي، ووضعت حصالتي فوق طاولة المطبخ. إنها على شكل بقرة صينية لها فتحة في ظهرها، هناك سدادة بلاستيكية تغطي فتحة أخرى في الأسفل تخرج منها النقود. كما أن هناك شريطًا لاصقًا فوقها، لذا عليَّ أن أتجاوز هذين الحاجزين وأن أفكر مرتين قبل أن أتهور فأنفق أموالي على ما لا يستحق. قالت لي أمي:

- بسبب خطاياكِ فهو يحجب نفسه عنكِ ولا يريد أن يسمعكِ.

كانت تقبض على مطرقة؛ لا بدَّ أنها أحضرتها في انتظار أن أعود. أحاول ألا أفكر في مشغِّل الأسطوانات الذي أتمنى امتلاكه. على أن خسارة أبويَّ أسوأ.. فلا يمكنهما الادخار لأجل الحصول على ابن جديد.

- ولكنَّ هناك ثَقبًا فيَّ..

تجاهلتني أمي، وهي تضغط برفق على بطني المنتفخ بالمطرقة التي نستخدمها في اقتلاع البراغي من الخشب؛ تشبه أذني أرنب من المعدن. تذكرتُ ما ضحيت به لكي يظل أرنبي حيًّا. سارعت بتناول المطرقة. وجدت مقبضها دافئًا. رفعتها وهويت بها على الحصالة بقوة. تهشمت إلى ثلاث قطع. سارعت أمي بجمع أوراق النقود الحمراء والزرقاء والعملات المعدنية. أحضرت المقشة والجاروف لتكنس ما تكسر.

قبضت على المطرقة بشدة، حتى تحولت مفاصل يدي إلى اللون الأبيض.



الفصل الثالث



رأسي مليء بصور بالأبيض والأسود، وأنا راقدة فوق لحافي الديناصور.
ِراعاي ساكنتان إلى جوار جسدي، وساقاي متباعدتان قليلًا، مثل جندي
لا يقف انتباهًا، ومعطفي هو سترتي الواقية. تعلمنا اليوم في المدرسة عن
الحرب العالمية الثانية، وشاهدنا فيلمًا عنها في تلفاز المدرسة. شعرت بتلك
الغصة في حلقي على الفور. شاهدت صور اليهود، وهم راقدون فوق
بعضهم بعضًا مثل شرائح اللحم المطهوة، والألمان صُلع الرؤوس في
سياراتهم القديمة. تبدو رؤوسهم مثل المؤخرات المُنتَفَة لدجاجاتنا
البيَّاضة، لونها وردي وتنتشر فيها شعيرات سوداء.

اعتدلت في الفراش، وخدشت بأناملي نجمة من الفلورسنت تتدلى من
السقف المائل. كان والدي قد نزع بعضها بالفعل، كما اعتاد أن يفعل كلما

عدت إلى المنزل وقد حصلتُ على درجة سيئة ويتصادف أن يكون دور؛ لوضعي في فراشي ليلًا. اعتاد أبي تأليف حكاية عن "جوني" الصغير الذي لا نفع منه فهو دائمًا ما يرتكب أمرًا محظورًا. والآن، ويبدو أن "جوني" قد صار صبيًّا صالحًا لا يتلقى عقابًا؛ فإمَّا أن هذا ما جرى بالفعل، وإما أن أبي نسي اليوم أن يحكي لي عنه. سألته:

- أين "جوني"؟

- إنه متعب جدًا.

أدركت من فوري أن رأس أبي يتعبه، جدًّا، لأن "جوني" يعيش بداخله.

- هل سيعود؟

- لا تنتظري حدوث ذلك.

عندما ينتزع نجمة، فإنها تخلف وراءها أثر اللاصق الأبيض؛ حتى صار كل واحد يمثل سؤالًا فشلت في الإجابة عنه. ألصق النجمة المنتزعة على المعطف، قرب قلبي. عندما كانت المعلمة تحكي لنا عن الحرب، فكرت في الطريقة التي يمكن بها تقبيل وجه مثل وجه "هتلر". لا يظهر شارب فوق فم أبي إلا حينما يشرب البيرة. خط من الرغوة فوق شفته العلوية. كان شارب "هتلر" أشد كثافة.



أسفل التختة في المدرسة، أضع يدي على بطني في محاولة لتهدئة تلك الحشرات التي تدغدغها. صرت أشعر بالمزيد منها داخل بطني وبين ساقيَّ. مما يمكنني أن أجعل تلك الحشرات تتحرك مرة أخرى عندما أتخيل نفسي الفذة فوق "چوني". أحيانًا ما أظن أنه انسحق لهذا السبب، ولكنني أستبعد تلك الفكرة سريعًا، ما دام أن رأس والدي لا يزال فوق جسده. نادرًا ما أطرح أسئلة؛ فهي لا تخطر لي. ولكنني في هذه المرة رفعت يدي.

- هل تعتقدين أن "هتلر" كان يبكي أحيانًا عندما يكون وحده؟

نظرت المعلمة، التي هي مرشدتي التربوية كذلك، إليَّ مليًا قبل أن تجيب. عيناها تلمعان دومًا، وكأن خلفهما مصباحين صغيرين خبا نورهما ونفدت بطاريتهما بعد سنين من النور. ربما هي تنتظر حتى أبكي وعندئذ تقرر ما إذا كنت بنتًا طيبة أم شريرة. فأنا لم أبكِ حتى الآن على أخي، ولو حتى بكاءً صامتًا، بل تحجرت دموعي في طرف عينَيَّ. خمنت أن معطفي هو السبب. فالجو دافئ داخل الفصل، مما يعني أن دموعي سوف تتبخر بكل تأكيد قبل أن تصل إلى وجنتيَّ.

- الأشرار لا يبكون.. الأبطال فقط هم مَن يفعلون هذا.

أطرق رأسي. هل يعني هذا أنني و"أوبي" من الأشرار؟ أمي لا تبكي إلا عندما يكون ظهرها لنا، وبصوت غير مسموع. إنها تفعل كل شيء في صمت، حتى إطلاق الريح.

حكت لنا المعلمة أن هواية "هتلر" المفضلة في وقت الفراغ كان الاستغراق في أحلام اليقظة، وأنه كان يهاب المرض، كان يعاني اضطرابات المعدة، والأكزيما، وغازات الأمعاء، وهذه الأخيرة بسبب حبه لحساء الفاصولياء. فقد "هتلر" ثلاثة إخوة وأختًا، وجميعهم لم يبلغ سن السادسة قبل أن يموت. قلت لنفسي، في سري، إنني مثله. بل إن عيد ميلادنا في اليوم نفسه.. العشرون من أبريل. وقتما يكون رائق البال، يحكي لنا أبونا وهو في مقعده المفضل أنني ولدت في أحد أبرد أيام شهر أبريل التي عاشها منذ سنوات، وأنني وُلدت ولوني أزرق في ذلك السبت، حتى إنهم انتشلوني من رحم أمي وأنا أشبه تمثالًا جليديًّا.

في ألبوم صوري وأنا رضيعة، أجد لفيفة ملتصقة بأول صورة أشعة لي وأنا مجرد جنين؛ أنبوب نحاسي مقوس تبرز منه نتوءات أشبه بأسنان سمكة قرش، فهي قادرة على قتل أي حيوان منوي يقترب منها، وخيط في أسفله شيء ما يشبه المخاط الجاف. قالوا إن الحيوان المنوي نجح في تفادي هذا الأنبوب في أثناء عبوره إلى رحم أمي. ولما سألت عن سبب احتفاظ أمي بأسنان سمكة قرش بداخلها، قال أبي:

- يقول الرب: "**فَأَثْمِرُوا أَنْتُمْ وَاكْثُرُوا وَتَوَالَدُوا فِي الأَرْضِ وَتَكَاثَرُوا فِيهَا**". ولكن علينا أن نتأكد من وجود غرف نوم كافية أولًا. وهذا الذي تقصدينه مجرد وسيلة لوقف ذلك، ولكنكِ كنتِ عنيدة مثل بغل.. تريدين المجيء إلى هذه الدنيا.

لم تضع أمي لفيفة أخرى بعد ولادتي. "الأطفال عيال الرب". ولا يمكن لأحد أن يرفض عيال الرب.

في السر، بحثت على "جوجل" عن يوم مولدي. ونحن لا نتصل بالإنترنت إلا حين ننزع سلك التليفون ونضع سلك الإنترنت مكانه، وعندئذ نسمع صوت خشخشة مع "تيت.. تيت.." فنعرف أن الاتصال جارٍ. غير مسموح لنا بوقت طويل على الإنترنت، تحسبًا لاستقبال مكالمة مهمة لأبي أو أمي، على الرغم من أن هذا لا يحدث أبدًا في الغالب، وإن حدث فإن موضوع المكالمة لا يتعدى الإبلاغ عن خروج بقرة مجددًا إلى قطعة الأرض الجديدة. يعتقدان أن الشر كامن في جنبات الإنترنت، ولكن أبي يقول أحيانًا:

- "لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ".

لا يسمح لنا باستخدامه إلا لأغراض مدرسية، على الرغم من أنني أشك في مقولة أبي (التي هي من إنجيل "يوحنا")، كلما نظر الناس في وجوهنا عرفوا من أي قرية نحن. عرفت من الإنترنت أن ذلك اليوم شهد رياحًا، ولكن أبي قال إنه كان يومًا هادئًا للغاية حتى إن أغصان الصفصاف بقيت ساكنة. وعرفت أنه في ذلك اليوم من أبريل، كان قد مر على وفاة "هتلر" ستة وأربعين عامًا. وأن الفارق الوحيد بينه وبيني هو أنني أخشى التقيؤ والإسهال، ولكنني لا أخشى اليهود؛ رغم أنني لم أرَ يهوديًا في الحقيقة، ولكن ربما كانوا ما زالوا مختبئين في عليات أو أقبية منازل المزارعين الهولنديين مثلما حدث أيام الحرب، وربما كان هذا هو سبب

منعنا من النزول إلى القبو. فلا بدّ أن هناك سببًا لحرص أمي على حمل كيسين كاملين من أكياس محل البقالة إلى الأسفل مساء كل جمعة وبداخلها علب النقانق، مع أننا لا نأكل النقانق.

أخرجت الرسالة المكورة من جيب معطفي، والتي طلبت منا المعلمة أن نكتبها إلى "آن فرانك". كنت أجد في هذا عبثًا وجنونًا. "آن فرانك" ميتة، كما أن صندوق البريد في القرية لا يحتوي إلا على فتحتين؛ إحداهما "للرموز البريدية الأخرى" والأخرى للأرقام المحلية، من 8000 إلى 8617. وليس من بينها الرمز البريدي للجَنَّة. وهذا بدوره جنون، لأننا نفتقد الميتين أكثر من الأحياء، ومن ثَمَّ فإن كم البريد إليهم أكبر بكثير.

- الهدف هو أن نتعاطف مع موقفها.

هكذا شرحت المعلمة. شعرت أنني أجيد وضع نفسي مكان الآخرين، ولكنني لا أجيد التخلص حينئذ من شخصيتي والانطلاق على سجيتي. وأحيانًا ما أبقى حبيسة ذلك الشخص الآخر فترةً طويلة، لأنني أجد هذا أسهل من البقاء داخل نفسي. اقتربت بالكرسي من "بيل". نجلس متجاورتين منذ أول أسبوع في المدرسة الثانوية. أعجبت بها فورًا، لأن لها أذنين كبيرتين تظهران خلال خصلات شعرها الأشقر، كما أن فمها غير متناسق مع وجهها، وكأنها عروس من الصلصال جفت قبل أن يكتمل صنعها. أرى أن الأبقار المريضة أجمل من غيرها؛ فأنا أقدر على التربيت عليها من دون أن أخشى رفسها.

مالت "بيل" نحوي، وهمست:

ألا تشعرين بالملل من ارتداء زيك هذا؟

تتبعت عينيها، إنها تضع كحلًا محددًا للعينين، فتبدو تلك الخطوط حول ..مبها مثل منحنيات على سطر من الأرقام يصعب التوصل منه إلى أي نتيجة.. ..انت ترمق معطفي. يتدلى حبلا غطاء الرأس فوق صدري، وقد اكتسبا قساوة ..ن فرط اللعاب الذي جف عليهما. أحيانًا ما يلتفان حول عنقي مع هبوب الرياح، وكأنهما حبلان سُريّان. هززت رأسي بالنفي. فأردفت:

- إنهم يتحدثون عنكِ في أثناء الفسحة.

- وماذا عليَّ أن أفعل إذًا؟

كنت أفتح درج التختة قليلًا. أنا الوحيدة التي لا يزال لديها درج في ..ختتها؛ فقد أحضروا التختة من المدرسة الابتدائية المجاورة للمدرسة الثانوية. شعرت بالهدوء عندما رأيت غدائي الملفوف في ورق الألومنيوم؛ الكثير من قطع البسكويت بالحليب. قرقرت معدتي. بعض القطع فقدت ..ساوتها بالفعل، وكأن أحدهم دسها في فمه قبل أن يعاود وضعها داخل اللفافة الفضية. يتحول الطعام إلى براز بعدما يمر من أمعائك. وفي داخل ..ميع الحمامات هنا قواعد؛ لسوف يقدمون برازي لي على صحن أبيض، ..هو ما لا أريده. لذلك أحتفظ به في داخلي.

- يقولون إنكِ ليس لديكِ نهدان، ولذلك ترتدين المعطف دومًا. وأنك لا تغسلينه أبدًا، لذلك تفوح منه رائحة الأبقار.

وضعت "بيل" نقطة بقلمها الحبر بعد أن كتبت العنوان في صفحتها تمنيت للحظة أن أكون تلك النقطة الزرقاء، وألا يكون هناك أي شيء بعدي، لا توائم.. لا أفكار.. لا شوق. لا شيء.

حدقت "بيل" إلى وجهي مترقبة، ثم قالت:

- أنتِ مثل "آن فرانك". أنتِ تختبئين.

دسست قلمي الرصاص في المبراة التي أخرجتها من حقيبتي، وأخذت أبريه حتى صار سنه حادًا للغاية. تركته ينقصف مرتين.



[illegible]ت على الفراش الذي كان فراش "ماتياس" لكي أرقد على بطني. [illegible] م في غرفة نومه بالعلية، وحصلت هانا [illegible] على غرفتي. أفكر احيانًا في أن "چوني" لا يزال في غرفتي القديمة، وأنه يخاف العلية جدًا، خصوصًا أن أبي توقف منذ ذلك الحين عن قص حكاياته عليّ. ترك أخي أثر جسده في قلب الفراش. إنه الأثر الذي يخلفه الموت، وأحاول مهما تقلبت وتقلبت ألا أسقط فيه.

أبحث عن دميتي الدب ولكنني لا أجدها. ليست عند أقدام السرير، ولا تحت اللحاف، ولا تحت السرير. لحظتها، أسمع صوت أمي في رأسي: "مقرفة". هذا ما قد تقوله وما قد يبدو على وجهها عندما تدخل غرفتي فجأة. إنها كلمة مضحكة. تبدو وأنت تقولها كأنك تود لو تتقيأ. تنطق بها، ثم تكررها حرفًا حرفًا.. "م.. ق.. ر.. ف.. ة.." بينما ترفع أنفها لأعلى. أدرك بغتة مكان دبي. أتسلل عبر اللحاف وأطل من نافذة غرفتي على الحديقة، فأرى دبي معلقًا إلى حبل الغسيل، مشجب خشبي أحمر في كل أذن. تتلاعب به الرياح بقوة، الحركات نفسها التي أقوم بها عندما أرقد فوقه، وعندما تصفق أمي منبهة ثلاث مرات وكأنها تبعد بقرة عن شجرة كرز. كانت تراقب الطريقة التي أحك بها ما بين ساقيّ في مؤخرته الوثيرة. اعتدت أن أفعل ذلك منذ أن صرت أنام هنا في العلية. أغمض عينيّ، وأسترجع أحداث اليوم بينما أبدأ في التحرك، وأكرر في عقلي كل كلمة قالها أحدهم لي وبالطريقة التي نطقوها بها، وعندئذ أفكر في مشغل الأسطوانات ماركة "فيليبس" الذي تمنيت أن أمتلكه، وفي حلزونين يتزاوجان، وكيف باعد "أوبي" بينهما مستخدمًا مفكًا، وفي الذبيحة "ديفيرتجي بلوك"، وفي "ماتياس" وهو يتزلج على الجليد، وفي الحياة من دون معطفي ولكن مع نفسي. وهكذا، إلى أن أشعر بحاجتي إلى التبول.

- المعبود هو مَن تفرِّين إليه قبل أن تلقي ربكِ.

هكذا قالت عندما نزلت لتناول كوب حليب بالينسون. وعقابًا لي، وضعت الدب في الغسالة ثم علقته إلى الحبل. أتسلل إلى الأسفل بكل هدوء مرتدية

واربي، ثم أنسل إلى الصالة ومنها إلى الحديقة الخلفية، ليستقبلني هواء المساء الفاتر. لا تزال أضواء البناء موجودة من خلفي في فناء المزرعة. يمنح أبواي العجول حليبها قبل أن يناما، وهي مقادير لا يمكنني أن أنساها: ملعقة من مسحوق البروتين تضاف إلى لترين من المياه. هكذا تحصل العجول على البروتين الإضافي. وبعد أن تشربها، تفوح من أنوفها رائحة الفانيلا. أسمع الجلبة التي تصنعها العجول. أبادر بارتداء حذاء أمي القابع عند الباب. وأسرع الخطى فوق العشب إلى حبل الغسيل، وأخلص أذني الدب من المشجبين قبل أن أضمه إلى صدري بشدة، وأنا أهدهده عدة مرات وكأنه "ماتياس"، وكأنني أنقذته من ظلام البحيرة في ظلمة الليل.

تشعر به مبتلًا ثقيلًا. لن يجف قبل ليلة كاملة على الأقل، ولن تذهب عنه رائحة مسحوق الغسيل إلا بعد أسبوع آخر. عينه اليمنى فيها ماء. عندما عدت أدراجي عبر العشب، كان صوت أبي وأمي أعلى. أدركت من طبيعة الصوت أنهما يتشاجران. وأنا لا أطيق شجارهما، تمامًا كما لا يطيق "أوبي" أن يرد عليه أحد، فيضغط بيديه على أذنيه ويبدأ في الهمهمة. ولأنني لا أرغبُ في الوقوف وحدي في الظلام، وضعت يدي على النجمة الفلورسنت الملتصقة بمعطفي، وبيدي الأخرى حملت دبي، ثم تواريت وراء أقفاص الأرانب. تنساب رائحة الأمونيا الدافئة من مكامن الأرانب عبر شقوق في الخشب. كان "أوبي" قد أحضر بعض الديدان السمينة ليصطاد بها. أشحت بوجهي بعيدًا وهو يغرس أجسادها

الضئيلة في صنارته. أسمع من مكمني موضوع نقاشهما المحتد، وأرى أمي وهي تقف جوار كومة السماد وتقبض على شوكة العلف.

- لولا أنك كنت ترغب في التخلص من الطفل..

- هي غلطتي أنا إذًا؟

- لهذا عاقبنا الرب بحرماننا من ابنتنا الكبير.

- لم نكن قد تزوجنا بعد..

- إنه الوباء العاشر، وأنا على ثقة بذلك.

حبست أنفاسي. أضحى معطفي رطبًا من الدب المبتل الذي أحتضنه، والذي يتدلى رأسه أمامي. أتساءل للحظة إذا كان "هتلر" قد أخبر أمه عمًا ينوي القيام به وما سوف يفشل فيه فشلًا ذريعًا. لم أخبر أحدًا بأنني صليت لأجل نجاة أرنبي "ديفيرتجي". أيمكن أن يكون الوباء العاشر بسببي؟ يصيح أبي:

- علينا أن نتعامل مع ما تبقى لدينا.

أرى حدود جسده في ضوء المصباح. كتفاه أعلى مما أعرفهما. ارتفعت كتفاه بضعة سنتيمترات، تمامًا مثل شماعة المعاطف التي قرر أن يعلقها في بقعة أعلى بعدما صرنا أطول. تضحك أمي. ليست ضحكتها الطبيعية؛ بل تلك التي تضحكها على أمر لا تعدُّه مضحكًا. هذا أمر يربكني، ولكن الكبار مربكون، وهذا لأن عقولهم تعمل مثل لعبة "تيتريس" ويجب عليهم ترتيب كل شئونهم ووضع كل شأن منها في مكانه الصحيح أولًا

بأول. وعندما تتكاثر الشئون داخل عقولهم، فإنها تتراكم على بعضها، فتصاب العقول بالشلل.. وتنتهي اللعبة.

- أفضل أن أقفز من فوق الخزَّان.

تتزايد قسوة تلك الطعنات في بطني، وكأن بطني وسادة دبابيس جدتي، التي تغرس فيها دبابيس الحياكة حتى لا تضيعها.

- أنتِ لم تخبري أحدًا بأمر الطفل. ومن أين لنا أن نعرف رأي العائلة؟ وحده الرب يعلم، ويغفر.

أجابته أمي، وهي تعطيه ظهرها:

- سيغفر ماذا أم ماذا؟

جسدها في نحافة شوكة العلف التي أسندتها إلى جدار الحظيرة. الآن، أدركت سبب امتناعها عن تناول الطعام. أخبرني "أوبي" خلال موسم هجرة الضفادع أنها تتوقف عن تناول الطعام خلال فترة بياتها الشتوي، فلا تأكل حتى تتزاوج، وليس قبل ذلك أبدًا. أعرف أن أبي وأمي لم يلمسا بعضهما منذ زمن، ولو حتى لثوانٍ. لا بدَّ أن هذا يعني أنهما توقفا عن التزاوج.

عندما عدت إلى غرفة نومي، ألقيت نظرة على الضفدعين في الدلو أسفل مكتبي. لم أجد أحدهما فوق الآخر بعد، كما أن أوراق الخس في قاع الدلو لم تُمس.

- سوف تتزاوجان غدًا.

عليك أن توضح الأمور أحيانًا، وأن تحدد القواعد، وإلا تطاول عليك الجميع واستهانوا بك.

أقف أمام المرآة جوار خزانتي، وأمشط شعري في خصلات على جانبي وجهي، هكذا كان "هتلر" يمشط شعره حتى يخفي أثر رصاصة خدشت وجهه. ما إن شعرتُ بالرضا عن هيئة شعري حتى رقدت في فراشي. وفي ضوء كرتي الأرضية، أرى الحبل المعلق فوق رأسي متدليًا من عارضة السقف. لم تعد هناك أرجوحة، ولم يعد هناك أرنب. في طرفه عقدة، واسعة كافية لتحتوي عنق الأرنب. أطمئن نفسي بالتفكير في أن عنق أمي أكبر بثلاث مرات على الأقل من اتساع هذه العقدة.. كما أن لديها رهاب الأماكن العالية.



الفصل الرابع



- هل أنتِ غاضبة؟

- لا.

- حزينة؟

- لا.

- سعيدة؟

- أنا على طبيعتي.

أقول لنفسي لا، إن أمي ليست على طبيعتها. حتى طبق "الأومليت" الذي تعده الآن ليس كما اعتادت تحضيره أبدًا؛ نجد به بقايا قشر بيض، ويلتصق أغلبه بالمقلاة، ويجف بياض البيض والصفار. توقفت عن استخدام الزبد في إعداده، ونسيت مجددًا أن تضع عليه الملح والفلفل الأسود. أصبحت عيناها

مرتين أكثر في الأيام الأخيرة؛ تذكرانني بكرتي القديمة الممزقة التي ظلت تموص شيئًا فشيئًا في حفرة السماد بجوار حظيرة الأبقار. جمعت قشر البيض من فوق رخامة المطبخ وألقيته في سلة القمامة. رأيت فيها شظايا سمالتي التي كانت على شكل بقرة. التقطتُ رأسها. وجدتها سليمة، عدا القرنين.. دسستها في جيب معطفي. أحضرت منشفة الأطباق الصفراء من الحوض لأمسح بها آثار البيض اللزجة. سرت في جسدي قشعريرة؛ أكره مناشف المطبخ الجافة؛ أشعر أنها أقل قذارة عندما تكون مبتلة، ولكن وهي جافة تكون مليئة بالبكتيريا. أشطفها بماء الصنبور وأقف إلى جوار أمي مرة أخرى. أقترب منها أكثر هذه المرة أملًا في أن تلمسني ولو بالخطأ وهي تضع الملاءة في حامل الأطباق على الرخامة. تلمسني ولو للحظات. أن يمس جلدها جلدي.. أن يمس جوعها جوعي. طلب منها أبي أن تقف على الميزان قبل الإفطار، وأخبرها أنها إن لم تفعل ذلك فإنه لن يذهب معها إلى الكنيسة. لكنه تهديد فارغ. فأنا لا أتخيل قداسًا لا يحضره أبي، حتى إنني أتساءل أحيانًا عما قد يفعله الرب من دون أبي، وحتى يؤكد كلامه، ارتدى حذاء الأحد فور تناول الإفطار، ولم ينتظر تلميعه حتى؛ فقد كانت أمي تخبرنا أحيانًا أنه يجب ألا نقف أمام الرب دون أحذية لامعة. ويكتسب هذا اليوم بالذات أهمية خاصة، لأنه يوم الصلاة من أجل أن يبارك الرب المحاصيل.. يوم مهم لجميع مزارعي القرية. تُقام هذه الصلاة مرتين في العام، قبل الحصاد وبعده، ويتجمع رعايا الكنيسة الإصلاحية للصلاة وشكر الرب على ما وهبه من حقول ومحاصيل، وحتى تزدهر المحاصيل وتنمو.. بينما ينحف جسد أمي أكثر وأكثر.

- أقل من وزن عجل ونصف عجل صغير.

علّق أبي وأمي تقف على الميزان. كان يمعن النظر في أرقامه. وقفت و"أوبي" عند مدخل الباب، نتبادل النظرات. كنا نعرف ما يحدث للعجل الذي يولد ضئيل الوزن، والذي يبقى هزيلًا، فلا هو نافع في بيعه للمذبح ولو علفته فإن علفه يكون غاليًا للغاية. لهذا يحقنونه. كلما طالت وقفة أمي على الميزان، تراجعت الأرقام ببطء، مثل حلزون يزحف. تهدأ أمي أكثر فأكثر وتبدو لي وكأنها تنكمش، كما لو أن محصول العام يختفي من أمام أعيننا ونحن لا نملك فعل أي شيء لنمنعه من الاختفاء. تمنيت لو أمكنني أن أضع كيس دقيق وكيس سكر نا. م معها فوق الميزان حتى يتوقف أبي عما يفعله. حكى لنا ذات مرة أن لحم عجل عفي واحد يطعم ألفًا وخمسمائة شخص، لهذا أعرف أن وقتًا طويلًا سيمر قبل أن ننتهي من أكل لحم أمي، حتى لا يتبقى منها سوى العظام. إن تحديقنا فيها طوال الوقت منعها من الأكل؛ لم يبدأ أرنبي في أكل الجزر الذي أضعه له إلا بعد أن اطمأن إلى أنني لا أراقبه. بعد أن أعاد أبي الميزان إلى مكانه أسفل الحوض، نزعت البطاريات منه.



لم تمسني أمي ولو مرة في أثناء توزيعها "الأومليت" علينا، ولا حتى بالصدفة. أتراجع خطوة إلى الوراء.. ثم خطوة أخرى. يستقر الحزن في عمودك الفقري، ينحني ظهر أمي مقوسًا أكثر وأكثر. هذه المرة، نقصت

،صحون المائدة صحنين؛ صحن أمي وصحن "ماتياس". توقفتُ عن تناول الطعام معنا، على الرغم من تظاهرها بالانشغال في إعداد شطيرة لنفسها، وعلى الرغم من أنها لا تزال تجلس على رأس المائدة قبالة أبي، لتراقبنا بعينيها التي صارت مثل عينيْ "أرجوس"، فتجبرنا على دس الطعام في أفواهنا. للحظة، أتخيل طفلًا ميتًا، والذئب الشرير الكبير الذي كانت جدتي تحكي لنا عنه في الليالي التي نبيت فيها بمنزلها، قبل أن تغطينا ببطانية شعر الحصان الخشنة. ذات يوم، فتحوا بطن الذئب الشرير الكبير ليخرجوا منه الماعز السبعة وليضعوا حجارة بدلًا منها، قبل أن يخيطوا بطنه مرة أخرى. لا بدَّ أنهم وضعوا حجرًا في بطن أمي، ولهذا صار بطنها قاسيًا باردًا.. أحيانًا.

أقضم لقمة خبز. يحكي لنا أبي على العشاء عن الأبقار التي لا تبيت في حظائرها الخاوية ولكن على الأرضية المغطاة بألواح الخشب، وعندئذ تتضرر أضرعها. يرفع إلى فمه قطعة "أوطيت":

- ليس عليه ملح.

امتعض وجهه وهو يرشف من قهوته. استبدل مذاق القهوة بالملح الغائب. يقول "أوبي":

- كما أنه محروق من الأسفل.

وأردفت "هانا":

- فيه قشر بيض.

تتجه أنظارنا إلى أمي، التي تبادر بالنهوض لتلقي بشطيرة الجبن بالكمون في سلة المهملات وتضع طبقها في الحوض. تريدنا أن نعتقد أنها لم تكن تنوي تناول الشطيرة، وأننا السبب فيما أصابها من هزال. تتحاشى النظر إلينا، كما لو كنا أطراف الخبز اليابسة التي تضعها بعناية جوار صحنها، كأنها درجات سوف تخصمها من مجموعنا النهائي لاحقًا. تقول وظهرها لنا:

- أرأيتم؟ أنتم دائمًا في صفه.

- إنها بيضة فاسدة.

أصبحت نبرة صوته أخفض، فهو يتحسب لبداية شجار؛ قادر هو على أن يخترع أي شجار. يتشمم قطعة "الأومليت" ويتفحصها. أجبرني الجو المتوتر على أن أدس إصبعي الصغير في أنفي لأستخرج قطعة مخاط يابسة. أرمق اصفرار لونها، قبل أن أدسها في فمي. يهدئني مذاق المخاط المالح. لطم أبي معصمي وأنا أهم برفع يدي ثانية إلى أنفي.

- ليس معنى أن اليوم يوم صلاة المحاصيل أن نبدأ في حصدها قبل الصلاة.

أسارع بإعادة ذراعي إلى مكانها، وبحيلة اعتدتها، ألعق بلساني مؤخرة حلقي فأجتر المخاط الذي يملأ فمي، فيتسنى لي ابتلاعه من جديد. استدارت أمي نحونا، والتعب باديًا عليها.

- أنا أم فاشلة.

تحدق إلى المصباح فوق طاولة المطبخ. حان وقت تغطيته. سواءً أكان للغطاء زخارف الورد أم لا. كلما تحدثنا في هذا الأمر، تقول إنه لم يعد يستحق العناء، فهي كبيرة في السن وأن الأمر لن يعني لنا سوى مزيد من العمل عند توزيع كل هذا الأثاث بيننا بعد وفاتهما، تمامًا مثل كل الأشياء الأخرى التي لم تعد ترغب في أن تنفق المال عليها بعد أن زهدت في الدنيا. أسارع بالوقوف إلى جانبها وصحني في يدي. عندما نلعب كرة القدم في المدرسة، يكون من المهم أن يحدد كل منا موقعه في الملعب. يجب أن يكون هناك قائد، ومهاجم، ومدافع. أدس قطعة "أومليت" كبيرة جدًا في فمي.

- مذاقه ممتاز.. لا ملح زيادة ولا ملح قليل.. وليس طريًا أكثر مما ينبغي.

عندئذ، تقول "هانا":

- والكالسيوم في قشر البيض مفيد.

فيقول أبي:

- هل سمعتِ يا ماما؟ لستِ فاشلة أبدًا.

يبتسم للحظة، ويلعق سكينه بلسانه، لونه أحمر داكن ومقبضه أزرق، مثل لون ضفدع حقل خلال موسم التزاوج. يتناول قطعة "موسلي" من سلة الخبز ويتأملها من كل جانب. كل أربعاء، نجلب الخبز من المخبز في القرية قبل موعد المدرسة. خبز انتهت صلاحيته ويفترض أن نضعه طعامًا للدجاج، لكننا نأكله. يقول أبي:

- ما دام الدجاج لا يمرض منه، فلن تمرضوا منه بدوركم.

ولكنني ما زلت أشعر بالقلق أحيانًا من أن ينمو عفن الخبز بداخلي، وأن تتحول بَشرتي في يوم من الأيام إلى لون يمتزج فيه الأزرق بالأبيض، مثل قطع الخبز التي يزيل أبي العفن منها بسكين كبير قبل تقديمها لنا. وعندئذ تكون مسألة وقت قبل أن أتحول إلى علف للدجاج.

عادةً ما يكون مذاق الخبز معقولًا، كما أن الرحلة إلى الخباز هي أفضل أحداث الأسبوع بالنسبة إلينا. يستعرض أبي بفخر غنيمته: كعكة كشمش يغطيها السكر، وكعك بالبيض، وخبز مختمر، وبسكويت متبل، و"دونات". تأخذ أمي "الكرواسون" دائمًا، على الرغم من أنها تجدها دسمة للغاية. تنتقي أفضلها، حتى يرتاح بالها إذا ما تناولناها. أما باقي الغنيمة فيذهب إلى الدجاج. نشعر بسعادة للحظات وجيزة، حتى لو قال والدي إن السعادة لا تليق بنا، وإننا لم نخلق لنكون سعداء، تمامًا كما لا ينبغي أن تبقى بشرة أجسادنا الباهتة تحت أشعة الشمس لأكثر من عشر دقائق، ولذلك نشتاق دومًا إلى الظلال والظلام. أما هذه المرة، فكان لدينا كيس خبز إضافي. لا بدَّ أن مصيره سيؤول إلى يهود القبو.

ربما تصنع أمي لهم "أومليت" جيدًا، تناوله لهم وتعانقهم، مما يجعلها تنسى أن تحتضننا بقوة، كما أفعل أحيانًا مع قطة جارنا "لين"، حتى إنني أشعر بأضلاعها خلال فروها على بطني، وبقلبها الصغير ينبض فوق قلبي.



نحرص على الجلوس في الصف الأول بقاعة الكنيسة المجاورة للسد؛ صباحًا ومساءً وأحيانًا خلال الظهيرة عند إقامة قداس الأطفال، حتى يرانا الجميع في أثناء دخولهم فيعرفون أننا ما زلنا نرتاد بيت الرب على الرغم من خسارتنا، وأننا على الرغم من كل شيء ما زلنا نؤمن به؛ مع أن مزيدًا من الشكوك بدأت تساورني حول ما إذا كنت أعتبر الرب لطيفًا لدرجة أن أرغب في الذهاب إليه والتحدث معه. اكتشفت أن هناك طريقتين يفقد بها المرء إيمانه؛ فالبعض يفقد إيمانه بالرب عندما يجد نفسه، والبعض يفقد إيمانه بالرب عندما يفقد نفسه. وأعتقد أنني أنتمي للنوع الثاني.

ضاقت عليَّ ملابس الأحد، كما لو أنها كانت تناسب نسختي القديمة. تشبِّه جدتي الذهاب إلى الكنيسة ثلاث مرات بطريقة عقد رباط الحذاء؛ أنت تصنعين عقدة مسطحة أولًا، ثم عقدة مستديرة، ثم عقدة أخيرة تضمنين بها إحكام الرباط، وهكذا نحن في الكنيسة.. لن نتذكر رسالة الواعظ كما ينبغي إلا بعد ثالث مرة. وفي أمسيات الثلاثاء، أذهب مع "أوبي" وعدد من زميلاتي من أيام المدرسة الابتدائية لتلقي دروس التعليم المسيحي في منزل

القس "رينكيما"، تمهيدًا لـ"سر التثبيت". توزع زوجته علينا أطباق هريس القرع مع شريحة من خبز الزنجبيل "الفريزيان". لذا أحب أن أذهب، من أجل خبز الزنجبيل وليس لتلقي كلمات الرب.

أتمنى في أثناء القداس، في سري، أن يصاب أحد كبار السن الجالسين في آخر صف، حتى يسهل عليهم الانصراف أولًا، بإغماءة أو وعكة. وهي حالات تحدث دومًا، حيث تسمع ذلك الصوت المكتوم لارتطام عجوز بالأرض وقد انطوى جسده على نفسه مثل دفتي كتاب صلاة، وفي حال اقتضى الأمر حمله إلى خارج الكنيسة، يُصاب جميع الرعية بالضيق، وهو شعور يوحدنا أكثر مما تفعل كلمات الكتاب المقدس. وهو الشعور الطاغي نفسه الذي يعتريني، لكني لست وحدي، تلتفت رؤوسنا، ونراقب الجسد المسجى حتى يتوارى ع الأنظار، في إيذان لاستئناف القداس من جديد. جدتي مسنة، لكن لم يحد إطلاقًا أن حملت على الأعناق إلى خارج الكنيسة.. إطلاقًا. خلال الوعظ، أتخيلها أحيانًا وهي تنهار أرضًا فأبادر بحملها مثل بطلة خارقة، بينما تتبعني أنظا الجميع. لكن الجدة لا تزال بصحة بقرة صغيرة. تقول إن الرب مثل الشمس معكِ دائمًا، مهما حاولتِ الابتعاد عنه. يسافر معك، يلحق بك. وأعلم أنها عل حق. حاولت أحيانًا أن أراوغ الشمس بأن أكون أسرع منها، ولعبت معها الغميضة، لكن بقيتُ أشعر بها خلف ظهري أو ألمحها بطرف عينيَّ.

أرمق "أوبي" الجالس إلى جواري. أغلق كتاب الترانيم، الذي تذكرن صفحاته الرقيقة للغاية بجلد أمي، كما لو أننا نقلب جسدها مع ؟

ـزمور وننسى أمرها. يداعب بثرة في راحة يده. والآن وقد حل الصيف، ـجب تنظيف المقاعد في انتظار الشتاء. هكذا نحن.. لا نعيش الموسم أبدًا، لأننا مشغولون دومًا بالموسم الذي يليه.

حين ينضج، يقسو غلاف البثرة الناعم ليصير مثل حجر، وعندئذ يمكنك أن ـتلاعب به بين إبهامك وسبابتك. نحن نجدد أنفسنا باستمرار، عدا أمي وأبي. إنهما مثل العهد القديم، يستمران في ترديد الكلمات نفسها والتصرفات والعادات والطقوس نفسها، حتى لو كنا، نحن رعيتهما، نبتعد عنهما أكثر وأكثر. يطلب منا القس أن نغمض أعيننا وأن نصلي من أجل ازدهار الحقول ووفرة المحاصيل. لكنني أصلي من أجل والديَّ؛ لأجل أن تخرج أمي من الصومعة التي ـ..نها داخل عقلها العنيد وألا تلاحظ الحبل المتدلي من عارضة العلية عندما ـ..فض الغبار عن غرفة نومي. أفكر بها في كل مرة أرسم فيها حلقة في كراستي أو وأنا أربط عقدة في كيس الخبز، لأن مشجب غطاء سلة الخبز لم يعد في مكانه ـرقها. أظن أن أبي يضعه في جيب البدلة الوقائية. أحيانًا، عندما أرقد على بطني ـوق فراشي متحركةً بجسدي فوق دبي، أتخيل أن لدينا آلة صغيرة في المطبخ مثل تلك الموجودة في كشك سوق "ستوبيه"، والتي تغلق كيس الخبز بقطعة شريط بلاستيكي أحمر. عندئذ، لن نهتم لفقدان المشاجب ولن تحزن أمي.

أسترق نظرة إلى أبي عن طريق جفوني. وجنتاه مبتلتان. ربما لا نصلي من أجل المحاصيل، ولكن من أجل محصول القرية من الأطفال، لكي يكبروا ويصبحوا أقوى. ربما أدرك أبي أنه لم ينتبه لمحصوله الخاص، بل أهمله

فغمرته المياه. نحن بحاجة إلى الاهتمام، إلى جوار المأكل والملبس. يبدو أنهما ينسيان هذه الحقيقة دومًا. أغمض عينيَّ ثانيةً وأصلي لأجل الضفدعين القابعين أسفل مكتبي، على أمل أن يكون في موسم تزاوجهما تشجيع لأمي وأبي، فيتزاوجان، وأصلي لأجل اليهود في القبو، على الرغم من أنني أرى ظلمًا في أن يحصلوا هم على رقائق الذرة والنقانق. لا أفتح عينيَّ، حتى أشعر بيد "أوبي"، وهو يلكزني في جانبي ويعرض عليَّ قرص نعناع، قائلًا:

- وحدهم العصاة والآثمون مَن يصلون طويلًا.



الفصل الخامس



جانب جبهة "أوبي" أزرق مثل عفن الخبز. يتحسس أعلى رأسه كل بضع دقائق ويهندم خصلات شعره فوقها بثلاث أصابع. تقول أمي إن رؤوسنا "ناشفة". وأعتقد أن هذا لأننا نفتقد ذلك الضغط على جباهنا منذ أن توقف أبي عن وضع يده على رؤوسنا واكتفى بدس يديه في جيبي البدلة الوقائية. أعلى الرأس هو النقطة التي نمت أجسادنا منها، وحيث تجتمع أجزاء جماجمنا. وربما لهذا يتحسسه "أوبي" بين فينة وأخرى، ليتأكد من أنه موجود.

لا تلحظ أمي ولا أبي ارتعاشاتنا. ولا يدركان أنه كلما قل عدد القواعد المفروضة علينا، زادت القواعد التي نخترعها لأنفسنا. رأى "أوبي" أن علينا أن نجتمع لنتحدث عن ذلك، وهكذا تجمعنا في غرفته بعد القداس. جلست على الفراش مع "هانا" التي استندت إليَّ لكنها لم تكن مرتاحة. أداعب عنقها

بلطف، تفوح منها رائحة نفاد صبر أبي، وفي المعطف الذي ترتديه عبق دخان سجائره. هناك تشققات صغيرة في الخشب عند مقدمة سرير "أوبي"، في المكان الذي يخبط فيه رأسه وهو يتقلب على الوسادة متمتمًا بإيقاع رتيب. أحاول أن أتخيل من ذاك الإيقاع وتلك التمتمة نغمات أغنية ما، بينما أنصت السمع إليه عبر الجدار الذي يفصلنا. أنا متأكدة من أنه لا يتمتم بآيات من سفر "المزامير"، لأنها تجعلني تعيسة. عندما أسمع صوت خبط رأسه في خشب الفراش، أهرع إلى غرفته لأطلب منه الهدوء حتى لا تستيقظ أمي، وتبدأ بالقلق من أننا لن ننام جيدًا إذا ذهبنا إلى المخيم في العطلة وكان علينا أن نبيت في خيمة. يهدأ لعدة دقائق، ثم أعود فأسمع الخبط من جديد. أحيانًا أتخيل أن رأسه هو الذي سينشق وليس خشب السرير، وعندها سيكون علينا أن نرممه من جديد. وكذلك "هانا" يرتطم رأسها بالخشب، ولهذا السبب صارت تنام في فراشي أغلب الوقت، لكي أحيط رأسها بذراعي إلى أن يغلبها النوم.

نسمع جلبة أمي في الأسفل وهي تنظف الغرفة الأمامية بالمكنسة. كم أمقت ذلك الصوت. تستخدم أمي المكنسة الكهربائية ثلاث مرات في اليوم، حتى ولو لم يكن هناك فتات متناثر فوق الأرضية، وحتى لو التقطناه كله من فوق السجادة وحملناه لنلقي به إلى الخارج فوق الحصى. تتساءل "هانا":

- أتعتقدان أنهما ما زالا يتبادلان القبلات؟

يسخر "أوبي":

- ربما هي قبلات فرنسية.

أضحك مع "هانا". قبلة بفم مفتوح وألسنة تتلامس. إنها تذكرني دائمًا بحبات الكمثرى المطهوة اللزجة ذات اللون الأرجواني، والتي تعدها أمي بالقرفة وعصير العنب الأسود والقرنفل والسكر، ليكون كل هذا عجينة واحدة.

- أو أنهما ينامان فوق بعضهما عاريين.

يخرج "أوبي" سنجابه من قفصه القابع جوار فراشه. أطلق عليه مؤخرًا اسمًا جديدًا، "تايسي". إنه سنجاب صحراوي صغير. في قفصه عجلة دوارة، اصفرت من عدم تنظيف البول عنها، ويتناثر أسفلها قشر لب عباد الشمس. يجب عليك أن تحرك إصبعك في نشارة الخشب أولًا قبل أن تخرجه من قفصه، وإلا فزع منك وعضك. كم أود لو تعاملوا معي بالحذر نفسه، فأبي يجرني في كل صباح من تلك الفجوة في فراش "ماتياس" بعد أن يسحب اللحاف من فوق جسدي.

- وقت الأبقار. إنها تخور من الجوع.

دخول الفراغ أسهل من الخروج منه. يمشي السنجاب على ذراع أخي. وجنتاه منتفختان بالطعام. يذكرني بأمي؛ وجنتاها على عكسه غائرتان. لا يمكنها أن تختزن فيهما طعامًا لتجتره لاحقًا في المساء، رغم أنني رأيتها ليلة أمس وهي تلعق غطاء علبة الزبادي بعد العشاء.

رأيتها دون أن تدري بي. فتحت الغطاء الرقيق، ووضعت على أطرافه بعض مربى التوت. سمعت صوت إصبعها التي دستها في فمها، ثم صوت امتصاص هادئ، قبل أن أرى خيط لعاب. يحصل السنجاب مرة في الأسبوع على خنفساء أو أبو مقص، مما نجده في تبن الأبقار. ولكنها وليمة لا تكفيه. لا بدَّ أن تعاود أمي تناول الطعام من جديد. أقول لـ"أوبي":

- "تايسي"؟ إنه تصغير لاسم "ماتياس".

يلكزني "أوبي" بقوة في جانبي؛ فأسقط من فراشه على ساعديَّ. أحاول ألا أبكي، برغم أن السقوط أوجعني وسرى في جسدي ألم كالكهرباء. سيكون من الظلم ألا أبكي على "ماتياس" لكن أبكي ألمًا. ما زلت أجد صعوبة في حبس دموعي. ربما أصبحت هشة مثل عشاء أمي، ومع الوقت سيكون عليهم أن يلفوني في ورق جريدة قبل الذهاب إلى المدرسة. "تشجَّعي".. أهمس لنفسي: "تشجعي".

وفجأة، تظهر الشفقة على "أوبي"، ويرق صوته. يلمس قمة رأسه سريعًا. يقول في مرح مصطنع إنه لم يقصد هذا، وأنا لا أعرف كيف يمكن أن يقصد شيئًا غير هذا، ولكنني وجدت أنه من الحكمة أن أصمت. ترمق "هانا" الباب في توتر. أحيانًا ما يجن جنون أبي عندما يسمعنا نتشاجر، حتى إنه لا يتورع عن الركض وراءنا في أنحاء المزرعة، على الرغم من أنه يواجه صعوبة في ذلك بسبب ساقه المصابة. ولو أنه أمسك بك، فإنه يبادر بركلك على مؤخرتك أو لطمك على قفاك. لذا، أفضل شيء هو المسارعة بالاختباء أسفل طاولة المطبخ. فهو يستسلم بعد

الكبير من اللف والدوران، ويتوقف ليتنفس المزيد من الأكسجين، الذي يمتصه كما
...ل الفراشات عن طريق فتحات علبة الجبن حيث يحتفظ "أوبي" بها في درج
...تبه. وعندما يحل الصمت، يمكنك سماع رفرفة أجنحتها وهي تضرب الغطاء
البلاستيكي. يحتفظ بها من أجل تجربة مدرسية مهمة لتحديد العمر الافتراضي
لنوع معين من الفراشات.. وهو ما يقول إنه مطلوب منه في المدرسة. يحرص أبي
على إخفاء ساقه. لا يرتدي "الشورت" أبدًا، ولا حتى عندما تشتد حرارة الجو..
أتخيل أحيانًا ساقيه مثل عصا المثلجات المزدوجة التي يمكن قسمتها إلى اثنين؛
وأنهما ستنفصلان عن بعضهما في يوم من الأيام وعندئذ نتخلص من الساق
المصابة، أو ندعها تذوب تحت الشمس خلف السقيفة. يقول "أوبي":

- سوف أريكِ شيئًا مدهشًا إن لم تبكِ.

هكذا، آخذ أنفاسًا قصيرة متسارعة، وأنا أجذب كمَّيْ معطفي ليغطيا يديَّ.
ألاحظ أنهما بدآ يهترئان. أتمنى ألا يَقْصُر الكُمَّان ويقصران إلى أن يتعرى ذراعيَّ
بالكامل. ولا خير في التقاط اليرقات في الحديقة الخلفية قبل أن تفقس الفراشات.
عندها ستكون فراشات عاجزة، ولن يسمحوا لها بالمشاركة في تجربة "أوبي".

أومئ برأسي لأطمئنه أني لن أبكي. بدايات الشجاعة تكون عندما
يحبس المرء دموعه.

يترك أخي "تايسي" على حريته، حتى إنه يدخل في منامته، وعندما
...سل إلى بطنه، يجذب السروال الداخلي ليفتح له الطريق. يمكنني أن أرى

عضوه أسفل سرواله الداخلي ومن حوله شعر أسود، يشبه التبغ الذي يدخنه أبي. عادت "هانا" تضحك من جديد.

- إنه يقوم بأمر غريب.. إنه ينهض ويقف.

يبتسم "أوبي" في فخر. يتحرك السنجاب حول عضوه. ماذا لو عضه، أو أراد أن يلتقطه ويأخذه؟

- لو أنني قبضت عليه بيدي.. وحركته حركات سريعة متتالية.. فإن سائلًا أبيض يخرج منه.

تألمت لمجرد سماع وصفه لتلك الحركات. نسيت أمر ساعدي. راودتني رغبة عابرة في أن أمس عضوه، وأن أداعبه مثلما أفعل بفراء "تايسي". حتى أتعرف على ملمسه، وأعرف مما هو مصنوع.. وإن كان يمكنني تحريكه أم لا، أو ربما أجذبه بعض الشيء. لو أنك فعلت ذلك بذيل بقرة، فإنها تلتفت إليك وترمقك للحظة، ولكنك إن كررتها فعليك أن تتوقع ركلة من حافرها في أي وقت.

يترك "أوبي" طرف السروال الداخلي المخطط بالأزرق والأبيض. فنرمق ذلك الشيء الضخم أسفله وهو يتحرك مستكينًا، مثل موجة تاهت في المحيط. تقول "هانا":

- قد يختنق "تايسي".

- عضوي لا يختنق، أليس كذلك؟

- بلى.

- ألن تصبح رائحته مثل البول؟

يهز أخي رأسه أن لا. تضايقتُ عندما أخفى عضوه عن عينيَّ. أشعر بتلك الحشرات تدغدغ بطني، مع أن هذا محال، فمنذ أن وجدتني أمي مع دبي وهي تعطيني في كل مساء ملعقة كبيرة من شراب مذاقه مثل العرقسوس. قرأت على زجاجته عبارة "علاج للديدان". لم أخبرها بأنني كنت أفكر في "چوني" وفي "ديفيرتجي بلوك"، وخصوصًا "ديفيرتجي". لربما تشاجرت حينها مع أبي لأن أمي لا تحب الأمور المختلقة، فالقصص التي يصنعها خيالك تنجيك من شعور المعاناة، وأمي تعتقد أن المعاناة جزء من الحياة. محال أن تستريح يومًا من التفكير واستحضار مشاعر الذنب، وتؤمن بأن على كل إنسان تحمل آثامه، مثل خطوط التصحيح الحمراء في دفتر الواجبات.

يهز "أوبي" ساقه فيتدحرج "تايسي" خارجًا من جسده إلى اللحاف. تبدو عيناه السوداوان مثل طرفي عودي ثقاب، هناك شريط فراء أسود على طول ظهره، وأذنه اليمنى مطوية مرتين. ومهما حاولت فردها، فإنها ترتد إلى وضعها الثابت. تقترب "هانا" مني أكثر. يتناول "أوبي" كوب الماء غير الرائق من فوق منضدة فراشه. هناك كومة من أغطية قنينات الحليب بجانب الكوب، مغطاة بالرمال. كانوا يسمونه "فليبر كينج" في المدرسة الابتدائية. فقد كان يتفوق على الجميع، حتى الغشاشين.

- وعدتكِ أن أريكِ أمرًا، أليس كذلك؟

- لكنك أريتني بالفعل!

شعرت لحظتها بجفاف شديد في حلقي. لم يتوقف خيالي عن رسم ألف صورة لذلك السائل الأبيض الذي تحدث عنه "أوبي". هل ذاك الأمر مثل تعبئة كيس تزيين كعك أعياد الميلاد بالكريمة؟ وكذلك كنا نضع به مقبلات فوق شرائح البيض المسلوق. تحتفظ أمي ببقاياه في القبو وإلا تعبق المنزل كله برائحته. لا بدَّ أنه من الصعب على يهود القبو منع أنفسهم من تناوله سرًّا. كنت أحب أن أتناول صفار البيض الذي يحمل فوقه تلك المشهيات، وأترك بياضه الذي لا نفع منه. وقت أن كان "ماتياس" موجودًا، كانوا يقولون إنه قد حان وقت انشغال آكلي البيض، فأبتسم وأنا أخرج كيس التزيين الثاني من المجمَّد حيث نحتفظ به احتياطًا. لم نعد نحتفل بأي عيد ميلاد، وتوقفت أمي عن إعداد ذلك البيض.

- كلا.. بل سأريكِ الآن.

يُسقط "تايسي" في كوب الماء، ويغطي فوهة الكوب بيده ومن ثم يبدأ في تحريكه ببطء. لا يسعني إلا أن أضحك.. يبدو المشهد مضحكًا. كل ما يمكنك تحويله إلى مجموع رياضي له حل يطمئنك.. أراهن أن السنجاب سيحتاج إلى أن يتنفس مجددًا بعد دقيقة واحدة. تتزايد سرعة حركة السنجاب من جانب إلى جانب داخل الكوب، وتجحظ عيناه، وهو يركل بساقيه بكل عنف. وما هي إلا ثوانٍ حتى طفا جسده مثل فقاعة غازية رمادية. خيم الصمت علينا.

ا صوت إلا صوت رفرفة أجنحة الفراشات. ثم انهارت "هانا" باكية. سمعنا ،هم خطوات على الدرج. سارع "أوبي" بإخفاء الكوب خلف قلعة مكعبات "الليجو"، حيث يسود اتفاق وقف إطلاق النار بينه وبين العدو.

- ما الذي يحدث؟

دفع أبي الباب بقوة وهو يتلفت في ضيق. احمرت وجنتاي. تكوَّر جسد "هانا" فوق أغطية الفراش الرمادية. صاح "أوبي":

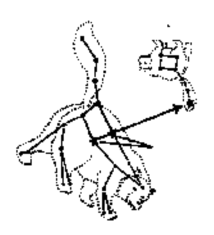
- دفعت "ياسن" "هانا" فأسقطتها من فوق السرير.

يحدق أبي في وجهي. لا أجد في عينيه ما أستغربه. كانتا جافتين مثل العظام. عندما أشاح أبي بوجهه، فتح "أوبي" فمه ودس فيه إصبعه و حركه للداخل والخارج سريعًا كأنه يريد أن يتقيأ. بادرت بالنزول عن الفراش. أمرني أبي:

- حسنًا.. على غرفة نومك.. وصلي لربك أن يغفر لك.

ركل مؤخرتي بحذائه؛ فتحركت بوادر البراز بداخلي عائدة إلى أمعائي من جديد. لو عرفت أمي ما جرى لـ "تايسي" فسوف تكتئب مجددًا وينعقد لسانها لأيام. أرمق "هانا" و"أوبي".. وقلعة "الليجو". تشاغل أمي بعلبة الفراشات.. أو ربما قرر أن يخنقها بيديه.

الفصل السادس



وحدها أختي من تتفهم سبب عدم خلعي لمعطفي أبدًا. ووحدها التي حاولت التفكير في حل. كم من أمسية بحثنا خلالها عن حل. أحيانًا ما أخاف أن نتوصل إلى حل عملي فعَّال، يجبرني أن آخذ شيئًا من أختي. ما دام لدينا رغبات، فنحن في أمان من الموت الذي يخيم على أرجاء المزرعة، مثل تلك الرائحة الخانقة التي نشمها بعد يوم نشر السماد. كما أن معطفي الأحمر يبهت ويبهت مع مرور كل يوم، مثل صورة "ماتياس" في مخيلتي. لم تعد هناك أي صورة معلقة له في المنزل، ولم يبق منه إلا أسنانه اللبنية، جفَّ الدم عليها، نحتفظ بها في علبة خشبية صغيرة على إفريز نافذة. أحاول أن أتخيله كل مساء، مثل امتحان تاريخ مهم، حتى أحفظ ملامحه عن ظهر قلب؛ مثلما حفظت شعار "حرية، مساواة، أخوة" الذي أكرره باستمرار، وخصوصًا أمام الكبار في حفلاتهم حتى أزهو بما تعلمت. أخشى اللحظة التي يتمكن فيها الصبية الآخرون من اقتحام عقلي وطرد أخي منه. تثقل

حبوب محطفي بكل الأشياء التي أجمعها. تميل "هانا" عليَّ وتقدم لي حفنة من القشار المملح؛ قربانًا تعوضني به عن عدم مساندتها لي. لو أنني دفعتها من فوق الفراش لربما بقي "تايسي" حيًّا. لم أجد في نفسي رغبة في التحدث معها. لا أتوق الآن إلا لرؤية أمي أو أبي، حتى أخبرهما أنني لم أقترف خطأً. ولكن أبي لا يأتي. ولا يتأسف أبدًا. يعجز عن إخراج الكلمة من شفتيه المتشققتين؛ أما كلمات الرب فتخرج من بينهما في كل سلاسة. ولا أعرف أنه قد تصالح معي إلا حينما أجده يطلب مني مناولته السلطة على المائدة. عندها يطرب قلبي وأناوله ما يريده بكل سرور، حتى لو كنت أتمنى حينئذ لو أمكنني أن أتناول سكينًا وأغرف بها بعض الربى لألطخ بها وجهه، حتى يحدق الجميع إليه، ويعرف حينها أن "الملوك الثلاثة" عاجزون عن العثور على الطريق إلى الشرق.

فجأةً، أفكر فيما إذا كان أبي لا يكتفي بخدش النجوم من سقفي، بل يخدشها من السماء أيضًا. ربما يكون هذا هو سبب أن كل شيء أكثر كآبة وسوادًا وأن "أوبي" أشد خبثًا؛ فلقد ضللنا طريقنا ولا يوجد مَن نسأله عن الدرب الصحيح. حتى نجوم مجموعة الدب الأكبر التي أعرفها من كتابي المصور، والتي تجذب القمر كل ليلة لمجموعة نجوم الدب الأصغر الذي يخاف الظلام، أجدها في حالة سُبات. لا سكينة إلا في ضوء مصباح الليل الصغير في غرفتي. وللحق، فأنا أكبر سنًّا من الاعتماد عليه، ولكن الليل لا يعرف عمرًا. للخوف أقنعة يفوق عددها ما لدى أمي من فساتين ذات رسومات الأزهار، وهي تمتلك الكثير والكثير منها في خزانة ملابسها، رغم أنها ترتدي الملابس نفسها بلا

تغيير هذه الأيام، وبخاصة ذلك الفستان ذو الصبار، كما لو أنها تبعد به الجميع عنها، ورغم ارتدائها شالًا فوقه الآن.

أستلقي في الفراش ووجهي إلى الحائط، عليه ملصق بالأبيض والأسود لـ "بودويجن دي جروت"، ينطلق بالدراجة وحيدًا على مسار جبلي ضيق مع طفل يجلسه على مقدمة دراجته. في بعض الأحيان، قبل أن أنام، أتخيل أنني الطفلة وأمي هي التي تقود الدراجة، على الرغم من أن أمي لا تحب ركوب الدراجات، لأنها تخشى أن يعلق فستانها في تروسها، وعلى الرغم من أننا لا يمكن أن نظل وحدنا لدرجة أن ينتهي بنا الأمر على الطريق نفسه. عندما استدرت، وجدت "هانا" تضع طبق الفشار بيننا. تبادلنا التناول منه. خطرت لي آية قرأتها في الكتاب المقدس "**فِعْلُ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ أَفْضَلُ عِنْدَ الرَّبِّ مِنَ الذَّبِيحَةِ**". وأنا أعجز عن مقاومة هذا القربان وهذه "الذبيحة"، لأننا نادرًا ما نجد الفشار، كما أعلم أن نية "هانا" طيبة لأن في عينيها اعترافًا بالذنب. عيناها مثل عينيْ قس يسرد خطايا رعيته وآثامهم وهو ينظر إلى السقف الذي تم تبييضه للتو.

من وقت لآخر، تلمس يدي دون قصد أصابع "هانا" فأشعر بملمس أظفارها التي تقضمها دومًا. هي غائرة في لحم أصابعها، مثل قطع دهن أبيض في النقانق. أتضايق من الأوساخ السوداء العالقة تحت أظفاري. تقول "هانا" إن أظفاري تسودُّ لأنني أفكر في الموت كثيرًا. وعلى الفور، أستحضر

مني "تايسي" الجاحظتين، وذلك الفراغ الذي استقر داخل رأسي عندما وقف عن ركل الماء، ثم الانتفاضة الأخيرة، قبل صمت النهاية المدمر.

في الوقت الذي أكلت فيه "هانا" آخر حبة فشار وتحدثت عن عروس "باربي" الجديدة التي تريدها، انتبهت إلى أنني قد أدخلتُ يديَّ تحت لحافي منذ فترة. ربما كان الرب ينتظر منذ نصف ساعة لما سأقول. أخرج يديَّ؛ إن الصمت طريقة أخرى للتعبير في القرية. ليس لدينا آلات الرد الآلي، لكننا ندع الصمت يخيم طويلًا، حيث يمكنك أحيانًا سماع خوار الأبقار أو عويل صافرة غلاية الماء في خلفية المشهد.

- حادث سيارة أم حريق؟

تسمع "هانا" سؤالي، فيرتاح وجهها عندما تعلم أنني لست غاضبة منها ونحن نكرر ببساطة طقسنا اليومي. شفتاها حمراوان ودهنيتان من ملح الفشار. يستفيد الإنسان من القربان بقدر أكبر من التضحية به. هل هذا هو سبب قتل "أوبي" لـ "تايسي"؟ أنه يريد بذلك استعادة "ماتياس"؟ لا أريد أن أفكر في قرباني ذي الأرجل الأربعة وأكثر من مائة مليون خلية شم.

- كيف لهما أن يحترقا؟

- لا أدري. أحيانًا ينسيان إطفاء شعلة الشاي، تلك المجاورة لنافذة الفناء.

تومئ "هانا" ببطء. تفكر في الاحتمالات ومنطقها. أعرف أنني بالغت، ولكن كلما فكرت في أساليب مختلفة لانتهاء حياة أمي وأبي، قلت احتمالات أن أتفاجأ بما قد يحدث. تسألني هذه المرة:

- قتل أم سرطان؟

- سرطان.

أسأل أنا:

- القفز من فوق الصومعة أم الغرق في الماء؟

- ما الذي يدفعك إلى القفز من فوق صومعة؟ هذا غباء.

- كثير من التعساء يفعلون ذلك.. يقفزون من فوق أماكن عالية.

- أجدها فكرة غبية.

لم يخطر ببالي من قبل أن السبيل الوحيد للتغلب على أمي وأبي هو الموت، مع أنهما قادران على مغالبته. لم يخطر ببالي أنه من الممكن التخطيط ليوم القيامة مثلما تخطط لإقامة حفل عيد ميلاد. ربما السبب هو ما سمعته من أمي في ذلك اليوم، وذلك الحبل المتدلي من العارضة. أفكر في الأوشحة الملونة المختلفة التي تلفها حول جسدها قبل ذهابها إلى الكنيسة ولكنني أخشى من أن تجعلها أشد جنونًا. تربطها بإحكام حتى أنك ترى آثارها على جلدها بعد عودتها من الكنيسة. ربما ترتديها لتصل إلى أعلى درجات الإيمان، لأن الصلوات أحيانًا ما تكون صاخبة عالية فتجبرك على إلصاق ساقيك ببعضهما بقوة وتشعر بتوتر أعصابك. ولكني أقول لأختي:

- إنها فكرة غبية جدًّا. سوف أراهن على نوبة قلبية أو حادث سيارة، «أمي تقود بتهور».

أسارع بدس آخر حبة فشار في فمي. تتدحرج بداخلي إلى أن تستقر في بطني. أتلذذ بمذاق الملح في فمي إلى أن يزول عن لساني. أتذكر يوم أن علمني "أوبي" أضع نحلة ميتة في فمي، كانت على حافة النافذة بجوار قطعة علكة لأمي؛ فهي تخرجها من فمها قبل أن تذهب إلى الفراش، متجعلها على شكل كرة وتتركها هناك لتجف طوال الليل قبل أن تعاود مضغها مرة أخرى في النهار التالي. استجبت له من أجل كومة من أغطية الحليب. أقسم "أوبي" أنني لن أجرؤ على فعلها. أحسستُ بشعيرات النحلة الصغيرة في سقف حلقي، وجناحيها مثل شرائح لوز على لساني. عدّ "أوبي" حتى ستين. أقنعت نفسي بأن طعمها مثل العسل، لكنني كنت أعرف أنني احتفظت بالموت في فمي دقيقة كاملة.

- أتعتقدين أن لدى أبي قلبًا؟

تتبخر صورة النحلة لتحل محلها صورة لصدر أبي. رأيته اليوم. كان الجو شديد الحرارة فتجوَّل في الحقول مع الأبقار دون سترته البيضاء. لديه شعر على صدره، أشقر. لا أستطيع أن أتخيل قلبًا وراء ضلوعه، بل حفرة من طين.

- غالبًا.. فهو سخي دومًا مع الناس في الكنيسة.

تطرق "هانا" برأسها. لا تزال عيناها حمراوين من البكاء. تجنبنا الكلام عن "تايسي". نحن لا نتحدث عن الأشياء التي لن يمكننا نسيانها. لا نفرغ حفرة الطين إلا مرة واحدة فقط في السنة. وهذه ليست اللحظة المناسبة للتعبير عن مكنون قلبينا، على الرغم من أنني لا أعرف متى تحين تلك اللحظة المناسبة. تقول الجدة أحيانًا إن الصلاة تخفف ثقل القلب، لكن وزن قلبي لا يزال ثلاثمائة جرام.. وهو وزن علبة لحم مفروم. تسألني "هانا":

- أتعرفين حكاية "رابونزل"؟
- بالطبع أعرفها.
- إنها الحل.

تستدير إلى جانبها حتى تتمكن من النظر إلى وجهي. في ضوء الكرة الأرضية، يبدو أنفها مثل قارب شراعي مقلوب. لوجهها جمال نادر، مثل الرسومات التي ترسمها بأقلام الشمع؛ فهي ذات ملامح غير متوازنة ومعوجة تمنحها جمالها وطبيعتها.

- وجدت مَن ينقذها من برجها ذات يوم. ونحن بحاجة إلى منقذ. مَن يبعدنا عن هذه القرية المعتوهة، وعن أبي وأمي، وعن "أوبي"، وعن أنفسنا.

أومأت برأسي موافقة، فهي خطة جيدة. ولكن طول شعري بالكاد يتجاوز أذني، ويحتاج إلى سنوات وسنوات قبل أن يصبح طويلًا بما

..ي ليستخدمه أحدهم مثل حبل. كما أن أعلى نقطة هنا في المزرعة هي
... ن التبن، والذي لا تحتاج إلا إلى سلم متوسط لتصعد إلى قمته.

وينقذك من معطفك.

مرت بأصابعها اللزجة على شعري. أشم رائحة الفشار فيها. حركتـ...
...ـى وجهي، وكأنها تلك الحشرات التي تدغدغني تحت جلدي. أنا لا ألـ...
...ـسد "هانا" أبدًا، إلا حينما تطلب مني ذلك. هو أمر لا يخطر لي. هناك
...وعان من البشر، مَن يتشبثون ومَن يتركون. وأنا من النوع الثاني...
...تشبث إلا بشخص أو ذكرى لها ارتباط بالأشياء التي أجمعها. بمقدو...ي
...حتفاظ بكل ذلك في أمان جيب معطفي.

لمحت قشرة فشار ملتصقة بإحدى أسنان "هانا".

لم أخبرها بذلك. سألتها:

- ألا يمكن أن نذهب معًا؟

- لا يمكنكِ الذهـ...ـب إلى الجانب الآخر طالما كنتِ أصغر من ستة عشر عامًا.

نظرت "هانا" إليَّ في ...ـصميم. لا جدوى من الجدال معها.

- لا بدَّ أن يكون رجلًا. كل المنقذين رجال.

- وماذا عن الرب إذًا؟ إنه المنقذ، أليس كذلك؟

- لا ينقذ الرب إلا مَن غرق. وأنتِ تخافين السباحة. كما أن الرب صديق لأبي. ولسوف يخبره بكل شيء وعندئذ تفشل خطتنا.

"هانا" محقة. على الرغم من أنني لا أعرف ما إذا كنت أريد منقذًا أم لا؛ فعليك أولًا أن تتعلم كيف تحافظ على نفسك، لكنني لا أريد أن أحبط أختي. أتخيل أبي وهو يصيح: "مَن يترك إخوته يتوه، يضل عن وجوده".

هل هذا هو وجودنا، أم أن هناك حياة أخرى تنتظرنا في مكان ما على الأرض.. يناسبني مثل معطفي؟ تقول "هانا":

- أمامكِ أربع وعشرون ساعة حتى تحسمي أمرك؟

- ولماذا أربع وعشرون ساعة تحديدًا؟

- ليس أمامنا كثير من الوقت، وحياتنا تعتمد على ذلك.

نطقتها بالنبرة نفسها التي تكلمني بها عندما نلعب التنس في الفناء، كلما ابتعدت الكرة في المكان الخطأ. تصيح حينئذ: "الآن أريكِ الضربة الحقيقية"، وكأننا قبل ذلك كنا نستخدم المضربين في هش الذباب عنا.

- ماذا إن لم نفعل؟

تهمس "هانا":

- عندئذ نتصرف.

أحبس أنفاسي في رهبة.

- القبلات. لو أن لدى "رابونزل" شعرها، فإن لكل منا جسدها. عليكِ استغلال سحركِ حتى تجدي مَن ينقذكِ.

تبتسم "هانا". لو أن في يدي شاكوشًا لما ترددت في استخدامه الآن لأعدِّل أنفها المعوج هذا.

ذات مرة، قال لي والدي إن على المرء أن يتخلص من كل ما يجذب الانتباه من دون داعٍ، وذلك عندما لم أتمكن من مقاومة إغراء إخراج بطاقات الـ"بوكيمون" من حقيبتي. أخذها مني وألقى بها في النار، قائلًا:

- لا يمكن لعبد أن يخدم سيدين، فهو إما أن يكره أحدهما ويحب الآخر، وإما أن يتمسك بأحدهما ويتخلص من الآخر.

نسي أننا عبيد لسيدين بالفعل: الرب وأبي. من شأن وجود سيد ثالث أن يزيد الأمر تعقيدًا، ولكن هذا هم أتركه لوقت لاحق.

- ما هذا الذي تقولينه؟!

- ألا ترغبين في أن ينتشلكِ أحدهم إلى الجانب الآخر من الجسر؟

- ماذا نسمي خطتنا؟

فكرت "هانا" للحظات، قبل أن تقول:

- ألا يكفي أن نسميها الخطة وحسب؟

أسحب حبال معطفي بقوة حتى أشعر أن الياقة قريبة من رقبتي. هل هو الشعور نفسه لو أنني دسست رقبتي في حلقة الحبل المتدلي من العارضة؟ أسمع صوت لزج يأتي من تحت مكتبي. لا تعرف "هانا" أنني أحتفظ بضفدعين هناك، وأنني حصلت بالفعل على جزء من ذلك الجانب الآخر واحتفظت به في غرفتي. لا يبدو منطقيًا أن أخبرها بذلك الآن، فأنا لا أريدها أن تحررهما في مياه البحيرة، حتى يذهبا إلى المكان الذي اختفى فيه "ماتياس". عندما ألمسهما، أشعر أنني حصلتُ أخيرًا على ما يمكنني الاحتفاظ به، رغم أن ملمسهما غريب. من حسن حظي أن "هانا" لم تسمع الصوت.. كانت منشغلة بالتفكير في الخطة.

سمعنا وقع خطوات بالأسفل. نظرنا، فوجدنا أبي يتطلع إلى فوق.

- هل تفكران في آثامكما؟

ضحكت "هانا" واحمرَّ وجهي. هذا هو أكبر فارق بيننا؛ فهي خفيفة الروح.. وأنا ثقيلة الروح، ميالة للكآبة.

- اذهبي إلى فراشكِ يا "هانا"، ففي الصباح مدرسة.

يعود أبي أدراجه. أتابعه بنظراتي، يبدو لي رأسه مثل برغي مشقوق الرأس. أود أحيانًا لو أمكنني أن أثبته في الأرض.. حتى لا يسعه سوى أن يرى ويسمع.. يسمع كثيرًا.

الفصل السابع



استيقظت فزعة في قلب الليل. لحافي رطب بعرقي الغزير. خبا الـ "الفسفوري للكواكب والأقمار. أو ربما هو القدر نفسه من النور ولكنه لم ... يكفيني. أزيح اللحاف الرطب عني وأجلس على حافة السرير. سرعان ما جسدي يرتعش تحت قماش مناماتي الخفيف. انسل تيار الهواء البارد من أسفل الباب ليقبض على كاحليَّ. أجذب اللحاف وأحيط به كتفيَّ وأنا أسترجع الكابوس الذي راودني، والذي رأيت فيه والديَّ راقدين تحت الجليد مثل سمكتي "أنكليس" متجمدتين: تلك التي يهدينا إياها المزارع "إيفرتسن" أحيانًا، بعد أن يلفها في ورق جريدة "ريفورمست دبلي". كان أبي يعلق على ذلك بأن: "لفها في ورق يحمل كلمات الرب يزيد من حلاوة مذاقها". رأيت "إيفرتسن" هناك أيضًا. يرتدي البدلة التي اعتاد ارتداءها كل أحد مع ربطة العنق السوداء اللامعة فوق

القميص المتشي. عندما رآني، بدأ في ذر الملح على الجليد وهو يقول: "هكذا نحتفظ بهما لفترة أطول".

استلقيت على الجليد، مثل ملاك ثلج سقط من السماء، ونظرت إلى أبويَّ؛ كانا أشبه بقوالب ديناصورات في إناء أحضرته لعيد ميلادي في إحدى المرات وصنعت فيها حلوى الهلام. أخرجتها مع "أوبي" بسكين التفاح. وما إن أخرجناها حتى وجدنا ألا نفع منها؛ فقد كانت الإثارة في صعوبة الوصول إليها.. مثل والديَّ المتجمدين. نقرت على الجليد، ثم وضعت أذني عليه، فسمعت وقع الزلاجات. أردتُ أن أصرخ ولكن حلقي عجز عن ذلك.

عندما نهضت مرة أخرى، انتبهت إلى وجود القس "رينكيما"، والذي كان يقف على حافة الماء في ردائه الذي لا يرتديه إلا في عيد الفصح، وقت أن يسير جميع أطفال القرية في ممر الكنيسة حاملين الصلبان الخشبية. على كل صليب أرنب عيد فصح من الخبز الطازج وفي مكان عينيه حبتيْ كشمش. يلتهم "أوبي" نصف أرنبه، حتى قبل أن نغادر الكنيسة. أما أنا، فلا أجرؤ أبدًا على الأكل منه، خوفًا من أن أعود إلى المنزل فأجد قفص أرنبي فارغًا، وكنت أخشى أن آكل أذنيه، فيفقد "ديفيرتجي" أذنيه. هكذا، تركت الأرنب يتعفن في درج مكتبي، فهذا أقل فظاعة. التعفن عملية تحلل طويلة على الأقل. لكنني رأيت في كابوسي "رينكيما" يقف هناك بين عيدان القصب، ينتظر مثل طائر الغاق لينقر أي شيء. وقبل أن أستيقظ، سمعته يقول بصوت مهيب: "الآلهة كما

ءار السَّمَاوَاتُ عَنِ الأَرْضِ، هَكَذَا عَلَتْ طُرُقِي عَنْ طُرُقِكُمْ وَأَفْكَارِي ،ن أَفْكَارِكُمْ.. خطط الرب هي خططكم".

.عدها اسودَّ كل شيء؛ وبدأت حبيبات الملح من تحتي تذوب، وبدا أنني ا. ان ببطء تحت الجليد حتى رأيت فجوةً فيه؛ ذلك الضوء في مقبس غرفة . مي، إلى جوار خزانة الكتب.

"خطط الرب هي خططكم". أيقصد الأب ما ينويه "أوبي" و"هانا" بكلامه مذا؟ أضيء الكرة الأرضية جوار فراشي، وأتحسس الأرضية بقدمي بحثًا عن ،مي، بينما أفرد تجاعيد معطفي بيديَّ. أنا لا أعرف ماهية خطتي، إلا أنني أرغب ، أن يتزاوج أبي وأمي ويعودا سعيدين من جديد ذات يوم، حتى تتناول أمي ا.لمام فلا تموت، ولا يموت. وما أن أتم هذه المهمة، سيكون بوسعي الذهاب إلى ا. انب الآخر مرتاحة البال. أرفع دلو الحليب من أسفل مكتبي وألقي نظرة إلى الضفدعين، فيبادلانني نظراتي بنظرات زائغة. صارا أنحف، وأصبحت الثآليل أشد بياضًا، مثل صور ألعاب المفرقعات الكروية الصغيرة التي يضع "أوبي" علامات عليها في إعلانات الألعاب النارية عشية العام الجديد؛ فهو يقضي الأسابيع في تجميعها وصنع أقوى صواريخ نارية منها. أما أنا و"هانا" فنكتفي بأشرطة المفرقعات، لأننا لا نجفل منها كثيرًا، كما أننا نجدها أجمل شكلًا.

أميل الدلو قليلًا حتى أرى إن كانا قد أكلا أم لا، ولكنني أجد أوراق الخس في الأسفل كما هي.. بعد أن أضحت بنية رطبة. تعجز الضفادع عن رؤية الأشياء الساكنة، وأنا أعلم ذلك، ولهذا السبب تتضور جوعًا رغم أن

الطعام تحت أقدامها. أحرك ورقة خس لأعلى ولأسفل أمام وجهيهما. أشجعهما بصوت منغوم:

- طعمها لطيف. كلاها.. كلاها..

لا فائدة، فهذان المخلوقان الغبيان يرفضان الأكل.

آمرهما بنبرة حاسمة:

- هو وقت التزاوج إذًا.

ألتقط أصغرهما. أفرك بطنه فوق ظهر الضفدع الآخر. رأيت هذه الحركة ذات مرة في برنامج الحياة البرية في تلفاز المدرسة. يجلس ضفدع فوق الآخر لأيام، ولكنني لا أملك كل هذا الوقت الآن. لم يبقَ كثير من الأيام لأبي وأمي؛ هما بين أيدينا مثل شريط مفرقعات في انتظار مَن يشعله حتى يمنحنا الدفء. وبينما أفرك جسدي الضفدعين معًا، أهمس لهما:

- وإلا سوف تموتان. هل تريدان الموت؟

أشعر بقدميه تضغطان على راحتي. أزيد من ضغطي عليهما أكثر فأكثر وبكل إصرار. بعد دقائق، أيأس منهما وأعيدهما إلى الدلو. أتناول ورقتي سبانخ كنت قد اختلستهما في أثناء العشاء، مع قطعة خبز محمصة صارت الآن طرية. لا يزال الضفدعان قابعين في ثبات تام. أصر عليهما حتى يأكلا ولكن.. ولا حركة واحدة. أتنهد وأنهض واقفة. ربما يحتاجان إلى وقت، فكل تغيير يحتاج إلى وقت. لا تجد بقرة تُقبل عل

مربع علف جديد، بل عليك أن تضع حفنة تلو الأخرى من العلف الجديد فوق العلف القديم، إلى أن يختلط الأمر عليها ولا تنتبه إلى أنها صارت تأكل العلف الجديد.

دفعت الدلو أسفل مكتبي بعد أن وضعت فيه الطعام الجديد، ورأيت دبوسًا ملقًى على سطح المكتب بجوار وعاء الأقلام. سقطت من اللوح أعلى المكتب، من بطاقة "ليان" البريدية. كانت ترسل لي بطاقة بريدية من حين لآخر لأنني اشتكيت من عدم تلقي أي بريد على العكس من أبي.. تأتيه خطابات زرقاء جميلة. أعتقد أن بعضها يتعلق باليهود. لا بدَّ أن هناك مَن نفتقدهم الآن وهم المختبئون لدينا منذ فترة طويلة. أليس كذلك؟ كنت أرغب في إخبار معلمتي عنهم ولكنني خشيت أن يسمعني أحد. هناك صبيان في صفي أشعر بأنهما نازيان إلى حد ما، وبخاصة "ديفيد"، الذي هرَّب فأره إلى داخل المدرسة ذات مرة في حقيبته. أبقاه مخبئًا بين أقلامه طوال اليوم، إلى أن أخرجه في أثناء حصة الأحياء، وهو يصرخ: "فأر! فأر!". تمكنت المعلمة من حبسه في فخ مع بعض فتات الخبز، حيث مات من الصدمة وهتافات الفصل كله.

لا تكتب الجارة "ليان" كلمات كثيرة على البطاقات التي ترسلها. وأغلب مواضيعها عن الطقس أو أبقارها، ولكن الصور على البطاقة تعجبني: شواطئ بيضاء الرمال، وحيوانات كنجر صغيرة وكبيرة، وفيلا "فيليكيولا" حيث تعيش "بيبي ذات الجوارب الطويلة"، والجربوع الشجاع الذي تجرأ أخيرًا وسبح في الماء. فجأةً، خطرت لي فكرة. ذات مرة، غرست المعلمة

دبوسًا في خريطة العالم المعلقة على جدار الفصل. أرادت "بيل" الذهاب إ
كندا لأن عمها يعيش هناك. قالت المعلمة إنه من الجميل أن نحلم بأماكن
نرغب في زيارتها يومًا ما. أجذب معطفي وقميصي لأعلى حتى تبين سُرتي
وحدها "هانا" لديها سرة بارزة؛ كتلة صغيرة شاحبة مثل فأر وليد أعمى
وجدناه تحت القماش المشمع المفروش على العلف الأخضر. أقول في همس:

- أود أن أرحل إلى نفسي ذات يوم.

أغرس الدبوس في سُرتي. أعض على شفتيَّ فلا يخرج منهما صوت،
وتسيل قطرة دم على أسْتِك بنطالي ثم تقفز إلى جوربي فيمتصها قماشه.
أخشى أن أنزع الدبوس، حتى لا يتدفق دمي في كل مكان، ويعرف كل من
في المنزل أنني لا أرغب في الرحيل إلى الرب.. بل إلى نفسي.



الفصل الثامن



- باعدي بين ساقيكِ بأوسع ما يمكنكِ.

كنت مستلقية على جانبي فوق الأريكة الجلدية البنية مثل عجل وليد، وأنا أنظر إلى والدي. كان يرتدي قميصًا رياضيًّا أزرق، وهو ما يعني أنه مرتاح الأعصاب وأن الأبقار كانت لطيفة معه اليوم. أما أنا، فلم أكن مرتاحة إطلاقًا. عجزت عن التبرز عدة أيام، مما جعل بطني قاسيًا منتفخًا تحت معطفي، مثل كعكة الـ"بوندت" التي تتركها أمي أحيانًا تحت منشفة لتنتفخ على مهلها. أهدي "الملوك الثلاثة" كعكة "بوندت" في طريق عودتهم من "بيت لحم"، واستخدموا عمائمهم قالبًا للكعكة، ولهذا صارت معروفة بهذا الشكل الحلقي. عليَّ ألا أتخلى عن برازي قبل أن نجد

النجم، على الرغم من أن الجلوس صار يؤلمني. ولا أتخيل نفسي أسافر ساعات وأنا على هذه الحال.

- ماذا تفعل يا أبي؟

لم يقل شيئًا، واكتفى بأن باعد ياقة قميصه الرياضي عن رقبته قليلًا، أرى جزءًا من صدره العاري. وبإبهامه، اجتزأ قطعة من الصابون الأخضر الذي يحمله. استرجعت مذعورة أحداث الأيام القليلة الماضية. هل تفوهت بكلمة بذيئة؟ هل كنت سيئة التصرف مع "هانا"؟ وقبل أن أستغرق في التفكير أكثر، دسَّ والدي قطعة الصابون بعمق في فتحة شرجي بسبابته. كتمت صرخة في الوسادة. وعضضت بأسناني في قماشها. تأملت النقش على الوسادة عن طريق دموعي، مثلثات متشابكة. وبكيت.. لأول مرة منذ أن مات "ماتياس". فاضت مياه البحيرة داخل عقلي. سحب أبي إصبعه بالسرعة نفسها التي دسها بها. أخذ قطعة صابون أخرى. حاولت التوقُّف عن البكاء بتخيل أننا نلعب لعبة "سرقة العصا"، وهي لعبة أحيانًا ما ألعبها في القرية مع زميلات الفصل. تلقي بعصا في منطقة المنافسة، وهنا صارت إصبع أبي هي العصا. لم أنجح في إرخاء ساقي، وأنا أنظر في توجس إلى أمي الجالسة إلى طاولة المطبخ، منشغلة في ترتيب وسوم آذان البقار التي ماتت: الأزرق مع الأزرق، والأصفر مع الأصفر. لا أريد لها أن تراني هكذا ولكنني لا أجد ما أستر به نفسي، على الرغم من أن حمرة الخجل تغطي وجهي بالكامل، مثل بطانية حصان. لا ترفع عينيها عن

الموسوم، على الرغم من أنها حريصة على الاقتصاد في استخدام الصابون،
على الرغم من أن اختفاءه قطعة قطعة داخلي ينبغي أن يجبرها على إبداء
أي رد فعل. لاحظت أن وسمًا قد سقط على الأرض، فانحنت تلتقطه،
سقطت خصلات من شعرها على وجهها. صرخ بي أبي:

- افتحي أوسع.

بكيت.. أمسكت بساقي وباعدتُ بينهما بأوسع ما أقدر، وكأنهما فم
طفل وليد نفتحه بالقوة حتى نرضعه من الزجاجة. هذه ثالث مرة يدس
فيها أبي إصبعه في داخلي، ولم أعد أظهر أي رد فعل. أكتفي بالتحديق
خلال نافذة الصالون التي أصبحنا نغطيها بأوراق الصحف القديمة، في
مفارقة ساخرة، فالصفحات تتحدث عن الطقس ولكننا لم نعد نرى
الكثير مما يجري في الطقس بالخارج الآن بسببها. أجابني أبي عندما
سألته عن سبب ما قام به:

- حتى نستر البيت من أعين المتطفلين.

لكنني أعده الآن متطفلًا، وهو يقف أمام ساقيَّ المفتوحتين مثل ستارة
انزاح جانبيها. يرى أبي أن إدخال قطع الصابون في مؤخرتي هي طريقة
جربها الآباء منذ قرون بنجاح في مؤخرات أطفالهم، وما هي إلا ساعة أو
ساعتان حتى يتسنى لي التبرز بكل سلاسة من جديد. وعندما التقط أبي
قطعة صابون جديدة، رمقته أمي وهي تقول:

- لا أجد رقم 150.

كانت ترتدي نظارة القراءة، حتى ترى بوضوح كل ما هو بعيد عنها حاولت أن أتضاءل بجسدي لأكون مثل دمية "هانا"، التي أجلسها "أوبي" ذات مرة على حافة الأريكة، ووضع دمية أخرى وراءها، عند مؤخرتها بالتمام. لم أفهم سبب ضحكه على المنظر الذي صنعه بالدميتين، ولم أفهم لماذا سارع بإبعاد الدميتين عندما دخل ضيوف إلى منزلنا وقتذاك. لم أجد نفعًا في التضاؤل بجسدي، فقد شعرت بأنني صرت أكبر حجمًا، وأشد وضوحًا.

سحب أبي ملابسي ليسترني، في إشارة إلى أنه انتهى، وأن بوسعي النهوض. مسح إصبعه في قميصه، ثم تناول باليد نفسها شريحة من خبز الزنجبيل ليتناول قضمة كبيرة. ربت على ساقي:

- إنه مجرد صابون.

أسحب البنطال لأعلى وأعتدل. أمسح الدموع من على خديَّ براحة يدي. بينما تقول أمي وهي تخلع نظارتها:

- رقم 150.

فيجيبها أبي:

- إنها حمَّى الشحن.

- بقرة مسكينة.

تلقي بالوسم رقم 150 في الدرج مع بقية الأبقار النافقة. أرغب للحظة في أن أرى ذلك الرقم الذي سقط وحيدًا في درج لن يخرج منه أبدًا. أغلق الخزانة، وعلّق المفتاح على حامل جوار الخزانة. يدركان أنهما بإغلاق الخزانة يحرران شئونًا كثيرة من رأسيهما. ما زلت أشعر بإصبع والدي في داخلي. سرعان ما عادت قطعة الصابون الخضراء إلى مكانها فوق الطبق المعدني عند حوض الحمام. لن يهتم أحد لذلك الجزء الناقص منها، والذي يذوب الآن داخل بفتحة ما في جسدي.

أرمق قطعة الصابون وأنا أتبول، فأتذكر كلمات "أوبي" وهو يصف كيف أن مساحة جدار الأمعاء الدقيقة تصل إن قام أحدهم ببسطها إلى مساحة أرض ملعب تنس. وهكذا، صار "أوبي" كلما أراد مضايقتي، وبدلًا من تقليد أصوات التقيؤ، يقلد حركات لاعبي التنس. أشعر بالغثيان من مجرد تخيُّل مباراة تنس تقام بداخلي الذي هو في حقيقته بمساحة أكبر مما أتخيل. ولكنني أتخيل من وقت لآخر رجلًا ضئيل الجسم وهو يدق ويمهد أرض ملعب التنس الرملية تمهيدًا لانطلاق مباراة جديدة بداخلي، وحتى أستطيع التبرز مرة أخرى. عندئذ، أتمنى ألا يدخل الصابون الأخضر في عيني الرجل الصغير.



فوق الطاولة، بجانب وسوم آنان الأبقار الجديدة، يرقد زي السباحة السماوي الخاص بي بلا حياة على حقيبتي، مع علبة رقائق بطاطس مملحة وعلبة مشروب الزبادي بالفراولة. في بعض الأحيان، أجد رقائق بطاطس على الأرض في حمام السباحة، وهي تلتصق مبللة بقدميك مثل البثور، وعليك التخلص منها بطرف المنشفة. ولاحقًا، تلحظ أنها عادت لتلتصق بأقدام آخرين.

- الزرافة هي الحيوان الوحيد الذي لا يمكنه السباحة.

كنت أحاول نسيان قطعة الصابون التي تسبح داخل جسدي، مثلما حاولت نسيان إصبع أبي. وسألتني أمي:

- وهل أنتِ زرافة؟

- الآن صرت واحدة.

- لم يبقَ أمامكِ سوى بضعة تمارين وتحصلين على شهادة السباحة.

- ولكنها التمارين الأصعب.

أنا الوحيدة في عمري التي لم تحصل على شهادة السباحة بعد، والوحيدة التي أتجمد في مكاني عندما يتعين عليَّ نزول الماء "للسباحة عبر فجوة"؛ هذا اختبار مهم، فالشتاء قاسٍ للغاية هنا في القرية. وعلى الرغم من أن أبي أحرق زلاجاتي الخشبية بعد ذلك اليوم من شهر ديسمبر، وأننا الآن في منتصف شهر مايو وبعد أكثر من عام، فسرعان ما سيأتي الوقت

..ي سأضطر فيه إلى مواجهة ذلك الاختبار في الجليد مرة أخرى. أما الآن، ..لك الفجوات الموجودة في الجليد مستقرة داخل رؤوسنا. تقول أمي:

لو أن الرب لا يرغب في أن يتقن عبيده السباحة لما مكَّنهم منها.

كانت تضع ملابس السباحة وبقية الأشياء في حقيبتي. في قاع الحقيبة ..لبة ضمادات طبية. عليَّ ألا أنسى وضع واحدة منها على سرتي، وإلا ظهر الدبوس الأخضر للعيان. وعندئذ، يعرف الكل أنني لا أذهب في إجازة، ..أنني أتوق إلى الذهاب إلى البلاد الغريبة، والشواطئ ذات الرمال البيضاء ..ماضًا نقيًّا ينافس بياض الكريم الواقي من الشمس.

ربما أغرق.

أنطقها بحذر، متأملة وجه أمي على أمل أن تصاب بالذهول، وأن تظهر المزيد من التجاعيد في بشرتها، أكثر مما تظهر عندما تبكي على حالها، وأن ..لف وتحتضنني، وتهزني في كل اتجاه مثلما تفعل وهي تحضر جبن الكمون. ولكن أمي لم ترفع رأسها نحوي، وهي تقول:

- كفى حماقة. لن تموتي.

كما لو أنها تحمل ضغينة في نفسها مني، وكما لو أنني لست بارعة ..اية لأموت صغيرة. هي بالطبع لا تعرف أننا، نحن "الملوك الثلاثة"، ..سعى لأن نواجه الموت. وقد لمحناه فعلًا مع "تايسي"، لكنها كانت لمحة

قصيرة جدًا.. عابرة جدًا. وأنت إن لم تكن مستعدًا للموت، فأنت لن تعرف
ما الذي يجب عليك الانتباه إليه لحظتها. وحده التحضير الجيد هو الذ
يصنع الإنسان؛ وقد عرف الرب في أثناء الخلق أننا سوف نحتاج إلى يو
للراحة من كل شيء نفعله خلال الأسبوع.

- لن يمكننا الذهاب في عطلة ما لم تحصلي على شهادة السباحة.

أتنهد في نفاد صبر.. فأشعر بالديوس الذي يلتصق بسرتي. تحول الما
المحيط به إلى لون أرجواني فاتح. في الأسبوع الماضي، وضعوا غطا
الـ"تربولين" المضاد للمياه ولونه أبيض فيه ثقوب بطول المسبح، وتعلق
فتيات الغوص بجانبه. أخبرنا مدرب السباحة أن الذعر وانخفاض درج
حرارة الجسد أشد عدوين لنا. لدى الغواصين والغواصات ثاقبات جليد حو
أعناقهم حتى تبدو أكثر واقعية. وفي ذلك اليوم من أيام عيد الميلاد، سر
"ماتياس" ارتداء ثاقب الجليد. رأيته على المنضدة الصغيرة تحت المرآة ف
الصالة. لا أحد يعرف أنني رأيته، وأنني فكرت في الركض واللحاق به ح
أعطيه إياه، لكن غضبي من عدم السماح لي بالذهاب معه منعني.

في حمام السباحة، لكزتني "بيل" في جانبي. ترتدي زي سباحة ور
اللون. على ذراعها اليمنى وشم "بوكيمون" من النوع الذي تحصل عل
مع علبة العلكة، والذي يختفي وحده شيئًا فشيئًا. حصلتُ على شها

السباحة قبل سنوات، والآن يُسمح لها بالسباحة بمفردها والقفز من لوح الغوص العالي واستعمال الزلاقة الكبيرة. همست لي:

- لدى "إيفا" نهدان بارزان.

رمقت "إيفا" بطرف عيني. تقف في الصف الذي ينتظر دوره على الزلاقة الكبيرة. في بداية العام الدراسي، همست لي أنه لا بدَّ أن هناك سرًا وراء إصراري على ارتداء معطفي. "إيفا" تكبرني بعامين، ويقولون إنها تعرف الكثير عن الأمور التي يحبها الأولاد في البنات، وكيفية التصرُّف معهم. ويومًا ما نحصل مع نهاية درس السباحة على أكبر عدد من قطع الحلوى على شكل ضفادع. وهذا لأنها تحصل منا على قطعتي حلوى مقابل كل نصيحة تقولها لنا بشأن الأولاد. وهي الوحيدة التي تستحم وحدها بعد درس السباحة. واعتقد أن هذا بسبب أن في قدميها ثآليل، وعلى الرغم من أنها تنكر ذلك فقد رأيتها بعينيَّ، وهي تشبه غدد السم في ضفدعي. تسألني "بيل":

- هل سيكون لدينا نهدان مثلها يومًا؟

- كلا.. لن تكون لدينا أبدًا. لا ينمو في جسدكِ نهدان إلا حينما ينظر ولد لكِ فترة أطول من عشر دقائق.

تنظر "بيل" حولها بحثًا بين الأولاد الذين يستعدون للغوص في الفجوة. لا ينظر إلينا أيٌّ منهم، بل يرمقوننا فحسب.. وهذا أمر مختلف تمامًا.

- علينا إذًا أن نحرص على أن ينظروا إلينا.

أومأت برأسي وأنا أشير إلى مدرب السباحة. يتحسس بيده الصافرة المتدلية من رقبته. يبدو أن كلماتي تتعثر في فمي، تمامًا مثل طفلٍ علق في مجرى الزلاقة، إلى أن يأتي من بعده طفل آخر فيجبره على الانزلاق. يرتجف جسدي، فيحتك دبوس سرتي بزي السباحة. يقول المدرب: "الذعر ليس عدوًّا.. ولكنه جرس إنذار". هكذا لا يبقى هناك سوى عدو وحيد.

قبل أن أصعد إلى لوح القفز، رأيت "ماتياس" أمامي. أسمع قعقعة زلاجته، وقرقرة فقاعات الهواء تحت الجليد. يقول الغواصون إن نبضات القلب تزداد قوة وسرعة تحت الماء، لكنني لم أجرب الغوص حتى الآن ورغم هذا فإن قلبي ينبض داخل صدري بقوة مثلما أدق بقبضتيَّ على جدار جليدي في كوابيسي. تلف "بيل" ذراعها حولي؛ نعلمنا كيفية إنقاذ الناس من تحت الجليد، ولكننا لم نتعلم كيف ننتشلهم من الماء إلى اليابسة، لذلك لم أستغرب ذراع "بيل" الثقيلة على جسدي. ملابس السباحة ملتصقة بجلدها، حتى إنني أرى الخط الضيق بين ساقيها النحيفتين. أتذكر الثآليل في قدميْ "إيفا"، وأتخيلها وهي تنفجر لتملأ المسبح بسم أخضر يحوِّل الأولاد والبنات إلى قطع حلوى ضفادع حية لا تتوقف عن النقيق. تقول "بيل" للمدرب:

- إنه أخوها.

يتنهد في تفهم. يعرف جميع مَن في القرية بأمر خسارتنا، ولكن كلما طالت فترة غياب "ماتياس" عن المنزل، زاد عدد الأشخاص الذين اعتادوا وجودنا في الحياة كخمسة أفراد فقط. ومن يفد جديدًا على القرية، لا يعرف أيًا من ذلك. يتلاشى أخي ببطء من شتى العقول، ولكنه يترسخ أعمق فأعمق في عقولنا.

أبتعد عن حضن "بيل" وأهرع إلى غرف تغيير الملابس، حيث أرتدي معطفي فوق زيي وأستلقي على مقعد. رائحة الكلور قوية في المكان. أنا مقتنعة أن الماء سيمتزج برغوة صابون من تلك القطع الخضراء بداخلي. وعندئذ، سوف يشير الجميع إليَّ وأضطر لإخبارهم بحقيقة ما في داخلي. وهكذا، أنفذ حركات السباحة بحذر وبطني على سطح الماء. أغمض عينيَّ، وأضرب الفراشة بيديَّ وأترك جسدي ليغوص في فجوة الجليد. وسرعان ما أدرك أن ذراعيَّ توقفتا وأنني لا أحرك سوى فخذي لأعلى ولأسفل. عرفت أن الغواصين على حق.. ضربات قلبي تتزايد وأنفاسي تتسارع. عرفت أن عدوي ليس انخفاض حرارة جسدي.. بل الخيال.

أسمع صرير خشب المقعد من تحتي، مثل جليد أسود. لا أرغب في أن ينقذني أحد الآن، فأنا أغوص.. وأغوص. أعمق.. وأعمق.. إلى أن أختنق. أمضغ حلوى الضفادع وأمزقها بأسناني إلى قطع ضئيلة، فأتذوق طعم الجيلاتين، وطمأنة حلاوته. "هانا" على حق؛ علينا الخروج من هذه القرية.. أن نبتعد عن الأبقار.. عن الموت.. عن الحياة في شكلها الأصلي.

الفصل التاسع



رصّت أمي قوالب جبن الكمون في حوض التمليح. سوف تظل فيه مدة لا تقل عن يومين ولا تزيد على خمسة أيام. هناك كيسا ملح كبيران على الأرض جوارها. بين كل فينة وأخرى، تلقي بحفنة كبيرة من الملح في الماء حتى يحتفظ الجبن بمذاقه الخاص. أفكّر أحيانًا فيما إذا كان من المجدي لخطتنا أن نغطس أمي وأبي في حوض التمليح، إذا ما عاودنا تعميدهما "باسم الأب والابن والروح القدس"، حتى يتحنطا ويبقى جسداهما لزمن أطول. لم ألحظ إلا الآن أن البشرة حول عينيْ أمي مصفرة ذابلة، مثل المصباح المتدلي فوق المائدة، والذي يرتعش نوره باستمرار. علينا أن نقسو عليها قليلًا. ليس علينا أن نتجهم في وجهها، ولكن ليس علينا أن نبكي أمامها أيضًا. أجد أحيانًا أننا لن نشعر بالسكينة إلا بعد أن ندفنهما للأبد.

ولكنني لا أريد أن يكون "أوبي" ولي أمرنا؛ لأن عددنا سيكون قليلًا بالفعل ولن نحتمل أن يقل أكثر من هذا.

من نافذة مخزن الجبن، أرى أخي وأختي يمشيان إلى الناحية البعيدة من حظيرة الأبقار. سوف يدفنان "تايسي" حيث دفنا دجاجات وقطتين ضالتين، وكانت مهمتي هي أن أشغل انتباه أمي بعيدًا عنهما. أما أبي فلن يلحظ أي شيء، لأنه خرج بدراجته. قال إنه لن يعود ثانيةً، بسببي. ففي الأمس، خلعت قابس المجمد من مقبسه لأضع مكانه قابس محمصة الخبز، ولكنني نسيت أن أعيده مكانه بعد أن انتهيت. وبالكاد نجح أبي وأمي في إنقاذ أكياس الفاصولياء المخزنة في المجمد، ووضعاها في حال ناشفة على طاولة المطبخ. بدت عيدان الفاصولياء الخضراء الصغيرة مثل جماعات محبوسة من صراصير الليل. ذهب كل جهدنا هباء؛ بعد أن أمضينا الأمسيات متتالية في هندمتها وتجهيزها قبل وضعها في المجمد، وكانت أمي تأخذ منا الكميات الجاهزة لتشطفها في سطلي حليب إلى جوارنا قبل تعبئتها في الأكياس. ولما ذابت الأكياس البلاستيكية أمامنا على الطاولة، فتحها أبي بسكين الخبز، ثم سكب المحصول الخائب كله في قلب عربة يد ومن ثم استقر في قلب حفرة السماد؛ وانشغل بالي قلقًا من أن نضطر إلى دفع جثتي أمي وأبي في عربة يد إلى حفرة السماد وأن أكون أنا السبب. بعد ذلك أخبرنا أنه من الآن فصاعدًا سيكون علينا أن نرعى أنفسنا؛ ولكننا نعلم أنه سيذهب إلى النقابة وعندما يعود سيكون قد نسي

أنه قرر الذهاب بلا عودة. مَن يرغبون في الفرار كُثر، ولكن مَن يقدمون عليه بحق لا يخبرون أحدًا قبلها.. يفرون وحسب.

غادرنا أبي، ووضعنا "تايسي" في علبة سلطة روسية فارغة. كتبت "هانا" على غطائها.. "لن ننسى". كان "أوبي" يراقبها بعينين باردتين، لم ينفوه بكلمة، ولكنه كان يحك قمة رأسه كثيرًا. عرفت أنه سيقضي الليلة متقلبًا في فراشه وأنه سيدق رأسه كثيرًا في خشبه، بكل قوة، حتى إن أبي سيضطر إلى لف ذلك الخشب بأكياس فقاعات بلاستيكية عازلة. بعدها، صرت أسمع صوت انفجارات مكتومة متتالية لتلك الفقاعات التي يدقها برأسه الآن. عندما أتعجب من غرابة تصرفات "أوبي" أرجع السبب دومًا إلى ما فعله بمخه. تسألني أمي:

- هل بإمكانكِ مساعدتي على جمع قشدة اللبن؟

أبتعد عن النافذة، وشعري لا يزال رطبًا بعد درس السباحة. لا أحد يسأل أحدًا عمًا فعله في يومه؛ يوزعون الأوامر بالمهام التي يجب فعلها، ولا يتابعون تنفيذها. لم أجد مَن يريد أن يعرف كيف سبحت في فجوة الجليد. لم يهمهم سوى أنني ما زلت على قيد الحياة، والسلام. يكفيهما كوننا ننهض صباح كل يوم، حتى ولو في تثاقل، دليل على أننا على ما يرام. يواصل "الملوك الثلاثة" امتطاء جمالنا، على الرغم من اختفاء السروج منذ أمد بعيد، وعلى الرغم من أننا صرنا نجلس متألمين فوق أسنمتها العارية.

أستخدم أصابعي في الضغط على الكتل البيضاء الطرية في قالب الجبن ثم أحركه إلى مكبس الجبن الخشبي، لأدفعه لأسفل فأستخلص قشدة الحليب. تغلق أمي غطاء مادة تصنيع الجبن. وأضغط على القشدة مرة أخرى، تلتصق القطع البيضاء بأصابعي، فأمسحها في معطفي. أسألها:

- كيف هي الأمور في القبو؟

لا أنظر إلى والدتي ولكنني أركز نظري على المرج المزهر المطبوع على مريلتها. من المحتمل أن تنتقل أمي إلى القبو ذات يوم؛ وهناك ستجد أن تلك العائلة؛ اليهود الذين يعيشون هناك، ألطف من عائلتنا. فماذا سيحدث للملوك الثلاثة حينئذ؟ لا أدري؛ أبي يعجز حتى عن تسخين الحليب ليضعه على قهوته، وحتى إن تمكن من غليه، فكيف يمكنه الحفاظ على أولاده في درجة حرارة مناسبة؟ تسألني أمي:

- ما الذي تقصدينه؟

تستدير وتعود لانشغالها بقوالب الجبن الموضوعة على رفوف الحائط. كان يجب أن أعرف بالطبع أنها لن تبوح بالسر بهذه الطريقة. تمامًا كما يجب عليك أن تحذر وأنت تتعامل مع أبقار من أعراق مختلفة. ربما هي تستعد للذهاب، لتغادرنا. وربما لهذا السبب توقفت عن ارتداء نظارتها، حتى نبقى على مسافة بعيدة منها.

- لا شيء.. لستِ مسؤولة عن أي خطأ.. ولا حتى عن ذلك الحجر في بطنك.

- لا تهذي بأي كلام، ولا تضعي إصبعكِ في أنفكِ. هل تودين أن تصيب الديدان بطنكِ من جديد؟

تقبض أمي على ذراعي، وللثاني مرة تنغرس أظفارها في نسيج معطفي. لاحظت أنها لم تقلم أظفارها منذ وقت طويل. أطرافها بيضاء مصفرة، بسبب الحليب. أتخيلها وهي تسألني: "ما الذي نملكه ويستحق أن نشكر الرب عليه؟".

هناك أسئلة لا ترغب أمي في سماع إجابة عنها. هي لا تقول ذلك صراحة، بل يكون عليك أن تحدس من نفسك. فأي إجابة تصيبها بمزيد من الحزن. خففت قبضتها عني. أتذكر الوباء الذي كانت تتحدث عنه مع أبي في تلك الليلة التي خرجت فيها لأحضر دبي من على حبل الغسيل. كانت بداية تفشي الوباء في مصر، لأن الناس هناك رغبوا في الوصول إلى الجانب الآخر. وتفشي هنا لأننا نعجز عن الذهاب إلى الجانب الآخر على الرغم من تتوقنا إلى ذلك. وسيبقى الأمر كذلك، حتى لو رحلت مع "هانا"، وعندئذ سيخف ثقل الحجر القابع في بطن أمي. ربما أطلب من الطبيب البيطري أن يفحصها. ذات مرة، أزال خراجين من جسد بقرة بعد أن فحص الجار ضرعها. ألقى بهما في حفرة السماد، وما هي إلا ساعة حتى كانا طعامًا للغربان.

انفتح باب المخزن خلفنا. كانت أمي قد شرعت في فحص جبن جديد. التفتت وهي تضع مغرفة الجبن إلى جوارها فوق الرخامة. سألها أبي:

- لماذا لا توجد قهوة؟

- لأنك لم تكن هنا.

- لكنني هنا الآن، وتجاوزت الساعة الرابعة.

- سيكون عليك إعدادها بنفسك إذًا. طالما أنك ترغب في احتسائها.

- ما أرغب فيه هو بعض الاحترام!

عاد أدراجه بخطوات غاضبة وأغلق الباب خلفه بكل قوة. للغضب مفصلات تحتاج إلى التشحيم دومًا. للحظة، تظاهرت أمي بمواصلة عملها، لكنها سرعان ما تنهدت في فروغ صبر وذهبت لتحضّر القهوة. كل شيء هنا مجموع حسابي: الاحترام يساوي أربع مكعبات سكر ودفقة حليب مكثف. سارعت بدس ملعقة الجبن في جيبي إلى جوار بقية ذكرياتي.



- "بودويجن دي جروت".

همست بالاسم وسط الظلام بعد ذلك بساعات، في المكان الذي خمنت أن أذن "هانا" تشغله. لم يكن عليّ أن أفكر طويلًا. لا صوت ينتشر في عقلي طيلة أيام سوى صوته. حتى إنني أحتفظ بصورة له في محفظتي،

مع صورة حبي الأول؛ فتى اسمه "سجورد". تشققت صورته، وأتذكر شعوري عندما اكتشفتِ أنه استبدل بطاقتي "بوكيمون" وبسكويت حليب خلف مرآب الدراجات بحبه لي. وصرت منذ تلك اللحظة أفرغ كوبي الذي على شكل الديناصور من الشراب واللبن بين الشجيرات هناك تذكارًا لتلك اللحظة، خصوصًا لأن زميلاتي أخبرنني أن رائحته كريهة؛ أمَّا هنَّ فيأتين بمشروب زبادي حقيقي في علب الغداء. تحولت الأرض والنباتات الموجودة خلف مرآب الدراجات إلى اللون الأبيض. كلا، بدا أن "بودويجن دي جروت" خِياري الأمثل، لأن أي شخص يغني بحسٍ جميل عن الحب يكون قادرًا على إنقاذ الحب. وأمي وأبي يحبان سماعه. ولن يمانعا بالتأكيد إذا أخذنا بعيدًا. اعتادت أمي دائمًا أن تغني معه أغنية "أرض ماس ووال" – Het land van Maas en Waal – بصوت عالٍ لدرجة أنني اعتقدت أنها تتوق إلى مكان آخر. أما الآن، فتستمع فقط إلى برنامج يذيع الأناشيد والترانيم حسب طلبات المستمعين.

تقوست ذراعا كلٍّ منا، أنا و"هانا"، مثل قطع "البريتزل"، ونحن مستلقيتان في فراشي. يغطينا اللحاف حتى الخاصرة، فلم يكن الجو باردًا لدرجة أن نطلب الدفء لكامل جسدينا. وبإصبعي الصغيرة، أستخرج ما في أنفي لأدسه في فمي. تصيح "هانا":

- يا للقرف!

تبادر بسحب ذراعها من ذراعي، فتحرر نفسها مني. لم تكن قادرة على رؤيتي وأنا أفعلها، ولكنها تعرف أنني غالبًا ما أفضل ملء فترات الصمت بالعبث بإصبعي داخل أنفي. يساعدني ذلك على التفكير، كما لو أنني أبحث عن مخرج لأفكاري. تقول "هانا" إن هذه الحركات تجعل فتحات أنفي عريضة، وأنها سوف تتسع وتفقد مرونتها، تمامًا كما هو حال ملابسنا الداخلية. بوسعك شراء ملابس داخلية جديدة، ولكنَّ أحدًا لا يمكنه شراء أنف جديد. أضع يدي على بطني تحت معطفي. أتحسس قشرة تتشكل على بشرتي حول الدبوس. أتحسس بيدي الأخرى وجه "هانا"، وأمسك بشحمة أذنها بين إبهامي والسبابة، للحظة. هذا أنعم جزء من جسم الإنسان. تعود "هانا" لتحتضنني مرة أخرى. أحيانًا يعجبني ذلك ولكنني لا أرتاح إليه في أغلب الأحيان. فعندما يقف شخص على مقربة مني أو يستلقي جواري، أشعر بهاجس يستحثني على أن أعترف بأي شيء، وأن عليَّ تبرير وجودي في هذه الدنيا: أنا هنا لأن أمي وأبي آمنا بوجودي ومن هذا الإيمان وُلدت، على الرغم من أنهما لديهما المزيد من الشكوك تجاهنا مؤخرًا ولا يوليان لنا الكثير من الاهتمام. أتحسس التجاعيد في ملابسي. أنا مكرمشة، مثل ورقة تحوي قائمة تسوق كوَّرها أحدهم بلا مبالاة قبل أن يلقي بها في سلة مهملات، أقبع هنا في انتظار مَن ينتشلني، ويهندمني، ويعاود قراءتي. تقول "هانا":

- اختياري هو السيد "هربرت".

يتشارك رأسانا الوسادة نفسها. أبتعد برأسي أكثر عن رأسها، وأتخيل رأسي يسقط من حافة السرير، فيحدث نقطة تحول في أفكاري، على أمل أن أتمكن من إقناع "هانا" بأنني لست بحاجة إلى منقذ، وأنني أريد الذهاب إلى الجانب الآخر، بعيدًا عن هنا، وبأننا ربما نحتاج إلى شيء آخر خلاف الإنسان، وبأننا لا يمكن مبادلة الرب ببساطة؛ فهو أقوى بطاقة "بوكيمون" نمتلكها. هذا على الرغم من أنني أفتقر إلى أي حلول أخرى للخروج من هذه البقعة من الكون. تتساءل "هانا":

- ولماذا "بودويجن"؟

- ولماذا السيد "هربرت"؟

- لأنني أحبه.

- وأنا أحب "بودويجن دي جروت".

ربما لأنه يشبه أبي، إلى حدٍ ما، على الرغم من أن أبي أشقر الشعر وأنفه أصغر ولا يمكنه الغناء. كما أنه لم يرتدِ قطُّ قمصانًا مبهرجة؛ فقط البدلة الوقائية والسترة الرياضية الزرقاء وبدلة سوداء ذات طية صدر لامعة يخصصها لأيام الأحد. القاسم المشترك بينهما هو أن أبي يجيد تشغيل جهاز التسجيل. في صباح كل سبت وأحد، يرافقنا في إنشاد صلاة الأسبوع، حتى نترك انطباعًا جيدًا في المدرسة يوم الإثنين. ومع كل بضعة

مقاطع من الصلاة، يحرك سبابته في الهواء منبهًا وهو يصفر، كما لو أنه يدرك أنني أنشز وأفقد تركيزي في كل دقيقة. أشعر أحيانًا أنني لا أنشد لأبي، بل للقرية بأكملها، بصوت ناعم مثل قطعة زبدة، وواضح مثل فطريات ظهرت على قطعة الزبدة تلك؛ هكذا كانوا يرونني.. وكأنني ابنة "مولدر".. مكتشف البروتين. يؤلم صوت المسجل الحاد الرتيب طبلة أذني. تقول "هانا":

- هناك شرط.. أن تعرفي أين يعيش.

تميل بجسدها فوق جسدي حتى تصل إلى الكرة الأرضية، لتضيئها. يجب أن تعتاد عينيَّ على الضوء، لتمنح الأشياء الموجودة في الغرفة الفرصة حتى تسارع بارتداء قناع الجدية، وتهندم نفسها وتلزم الصمت، حتى تتطابق مع الفكرة التي في رأسها عنها. يشبه الأمر الطريقة التي تجفل بها أمي كلما دلفنا إلى غرفة نومها وهي في نصف ملابسها فقط، كما لو كانت تخشى أن تفقد قدرتها على استيفاء الصورة التي لدينا عنها، فتحرص على هندمة نفسها كل صباح، مثل شجرة عيد ميلاد اكتملت زينتها.

- يعيش عند الجهة الأخرى من الجسر.

تضيق عينا "هانا". لا أعرف إن كان "بودويجن دي جروت" يعيش عند الجهة الأخرى من الجسر أم لا، ولكن الفكرة أعجبتني.. الجهة الأخرى، يعيش السيد "هربرت" في منزل أبعد من محل الحلوى.. هكذا

اعتدنا أن نفكر في الأشياء؛ فأوَّل ما تريده هو الحلوى، وبعدها يمكنك أن تحب الحلوى. هكذا نفهم ترتيب الأشياء.

- إذًا، علينا أن نذهب إلى هناك. هناك عشرات المخلصين، ولن تجرؤ بلا حتى أبي على الذهاب إلى هناك.

أقرص الدبوس أسفل معطفي، أشعر أنه مثل عوامة نجاة في قلب بحر الشمال.

- أترغبين في تقبيل "بودويجن"؟

أهز رأسي بعصبية. كلا.. القُبلات للكبار. يقبِّلون كلما تنفد الكلمات. "هانا" مستلقية الآن بالقرب مني لدرجة أنني أستطيع شم رائحة أنفاسها. معجون الأسنان. ترطب شفتيها بلسانها. لا تزال إحدى أسنانها اللبنية تحاول أن تصبح سِنَّة ناضجة. تقول:

- عندي فكرة.. لحظات وأعود.

تنسل من الفراش، وتفارق غرفتي، ولكنها سرعان ما تعود حاملةً بدلة الأحد الخاصة بأبي.

- ما الذي تريدين أن تفعليه بها؟

لا ترد "هانا" على سؤالي. على الشماعة زجاجة عطر.. برائحة اللافندر. أراقبها وهي ترتدي ابدلة فوق منامتها. أبتسم.. لكن "هانا" لا تبتسم. ترسم شاربًا تحت أنفها بقلم عريض سحبته من وعاء أقلامي. الآن تبدو مثل "هتلر". أتمنى لو ألونها بالكامل بالقلم نفسه حتى أتذكرها دائمًا وتصير ملكي. لكنها أكبر كثيرًا من جيوب معطفي.

- هيًا.. عليكِ أن تستلقي على ظهرك، وإلا فشلت الخطة.

أفعل كما أمرتني، لأنني معتادة على طاعتها. تدس ساقيها الهزيلتين في بنطال أبيها الفضفاض للغاية، قبل أن تقترب مني وترقد فوقي، وتلصق ساقيها بفخذَي، وقد سقط شعرها حول وجهها. في ضوء الكرة الأرضية، تبدو مخيفة بشارب أسود يشبه ربطة عنق الفراشة. تهمس بصوت عميق:

- أنا من المدينة.. أنا رجل.

أدركت من فوري ما يجب عليّ فعله، كما لو أنه من الطبيعي للغاية أن ترقد فوقي هكذا في منتصف الليل، مرتدية بدلة أبي. السترة ذات الصدر اللامع تجعل كتفيها أكبر ورأسها أصغر.. مثل دمية من خزف. أهمس بنبرة أعلى:

- أنا من القرية.. أنا امرأة.

- أتبحثين عن رجل؟

- أجل. أبحث عن رجل يخلصني من هذه القرية البائسة. رجل قوي.. جدًا. وسيم.. جدًا. رحيم.. جدًا.

- جئتِ إلى أنسب مكان، يا سيدتي. قبلة؟

قبل أن أتمكن من الرد، ألصقت شفتيها بشفتيَّ ودست لسانها في داخل فمي. مذاقه فاتر، مثل شريحة لحم باتت منذ أمس وتعاود أمي تسخينها في فرن التسخين لتقدمها لنا مرة أخرى. تحركه بسرعة في جوف فمي.. عدة مرات.. يخالط لعابها لعابي ويسيل على خدي. تدسه، لتخرجه، وتخرجه، لتدسه من جديد. تسألني بأنفاس متهدجة:

- أتشعرين به؟

- ما قصدك، سيدي؟

- بين ساقيكِ؟

- كلا.. ولكن شاربكِ يدغدغني.

نضحك معًا، عاجزتين عن كتم الضحكات. تنهار "هانا" لاهثة بجسدها إلى جواري.

- مذاق فمكِ مثل قطعة معدن.

- مذاق فمكِ مثل طعم فتات البسكويت.

أعرف، وهي تعرف، أن كلا المذاقين سيئ.. للغاية.

الفصل العاشر



أستيقظ وأختي، خطوط سوداء على وجهينا، وقد تجعدت بدلة أبي، التي لا يرتديها إلا أيام الأحد.

أعتدل في الفراش مرة واحدة. إذا أمسك بنا أبي، فلسوف يسارع بإخراج نسخة الإنجيل الرسمية من درج طاولة غرفة الطعام، ويقرأ علينا بصوت عالٍ.. من سفر "الرومان".. **"لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ"**. سيكون علينا ترديد ذلك بالفمين نفسهما اللذين تبادلا القبلات في الليلة الماضية. دست "هاتا" لسانها داخل فمي، وكأنها تبحث عن كلمات ليست كلماتها. يمكنك أن تنكر ذنب دخول الخطيئة إلى قلبك ولكن لا يمكنك أبدًا إنكار دخولها منزلك. لهذا السبب، وعندما يأتي لإيقاظنا كعادته، سرعان ما

سوف يكتشف أبي أننا أدخلنا الخطيئة إلى المنزل، مثل قط ضال وضعناه في سلة خلف الموقد الخشبي وأطعمناه الحليب ولقيمات الخبز حتى اشتد عوده. لا خلاص لنا الآن.. لا خلاص لي.. ولا خلاص لـ"هانا".

تهندم "هانا" تجاعيد بدلة أبي، وتخرج نصف لفافة حبات نعناع من جيب صدر سترته. تخرج حبة نعناع وتدسها في فمها. تساءلت عن السبب الذي دفعها إلى فعل ذلك، خصوصًا وأن أبي يوزع علينا حبات النعناع خلال القداس، حتى تهدأ أعصابنا، فلا يصح لأبناء "مولدر" أن يتململوا بأرجلهم وهم جلوس في أول صف، فعندئذ سيعرف كل مَن في القاعة أننا لا ننصت لكلام الأب "رينكيما". لذلك احترت.. فلا سبب يدعونا إلى طلب الهدوء الآن، بل علينا أن نتصرف بسرعة. عندما نشكو بعد انقضاء القداس من طول مدته، يقول لنا أبي:

- سوف أجبر أي واحد منكم يبدي نفاد صبره على أن يستمع إليه مرتين، عقابًا له.. الجارة "ليان" في الخارج الآن.. تتجول. لها قدرة على الثرثرة حتى يخر الحمار أرضًا، أو حتى تقتلع آذانكم من رؤوسكم.

للحظة، أتخيل والدي و"ليان" يقفان قبالة بعضهما عند درب المزرعة، وأذناه تتساقطان مثل أوراق الشجر في الخريف. عندئذ، سنضطر إلى تثبيتهما مرة أخرى بإصبع صمغ قوي. ولو كان الأمر بيدي، لوضعتهما في صندوق مخملي صغير، لأهمس لهما في كل ليلة بأحلى الكلمات وأروعها، قبل أن أغلق الصندوق ثانيةً وأرجه، حتى أتأكد من انزلاق الكلمات إلى داخل الأذنين. لديَّ الكثير من الكلمات، ولكن عدد ما يخرج منها عبر فمي

يتناقص ويتناقص، وتكاد المفردات التي حفظتها عن الكتاب المقدس تفيض أو تنفجر داخل رأسي. أبتسم كلما تخيلتني ألصق أذنيْ أبي. لطالما دأب أبي على إلقاء النكات عن الجارة "ليان" وظل يكررها، تمامًا مثلما يكرر توقعات الطقس الأسبوعية، فليس لدينا ما نخشاه.

ومع ذلك، فإن أبي هو مَن يتناول معظم حبات النعناع في أثناء القداس، ويحرص في الآونة الأخيرة، بمجرد وصولنا إلى المنزل، على أن يسألنا عن موضوع الموعظة، ليتحقق مما إذا كنا منتبهين لها أم لا. ولكنني موقنة من أنه يسألنا لأنه كان مشتت الذهن ويريد أن يعرف منا نحن موضوع الموعظة. في الأحد الماضي، أخبرته أن القس تحدث عن الابن الضال، وقد تعمدت الكذب، ولكن أبي لم يصححني. عودة الابن الضال قصتي المفضلة. أحيانًا ما أتخيل "ماتياس" وقد عاد سيرًا على قدميه، ببشرة ناصعة البياض، فيبادر أبي بانتقاء أفضل عجل من حظيرة الأبقار ويذبحه ابتهاجًا. وعلى الرغم من أن أمي لا تحب الحفلات بسبب كل ما فيها من رقص وموسيقى، فقد أقمنا حفلة كبيرة في المزرعة.. بالمصابيح والفوانيس واللافتات وزجاجات "الكوكاكولا" وأوعية البطاطس المقلية.. "لقد ضل.. لكنه عاد". أسأل "هانا":

- أتظنين أننا أخطأنا؟

تحاول كتم تثاؤبها بيدها. لم ننم سوى ثلاث ساعات.

- ما قصدك؟

- تعرفين قصدي. ربما نحن سبب ما آلت إليه أمور أمي وأبي. ربما تسببنا في موت "ماتياس" و"تايسي".

فكرت "هانا" في كلامي للحظات. أعرف أنها تفكر ما إن أتأمل حركة أنفها. هناك أثر حبر أسود في وجنتيها كذلك.

- في كل شيء حكمة في نهاية المطاف.

اعتادت أختي التفوه بمثل هذه الحكم، على أنني لا أعتقد أنها تفهم ما تقوله.

- هل سيكون كل شيء على ما يرام؟

أشعر بذلك البلل في عينيَّ. فأتحول بهما سريعًا، لأحدِّق إلى بدلة أبي، التي تضفي عليه مزيدًا من الهيبة كل أحد. أخرج الرمص من طرف عينيَّ بإصبعي الصغيرة، وأمسحها في لحافي.

- طبعًا.. كما أن "أوبي" لم يقصد ما فعله.. لم يقصد أن يقتله.

أومئ برأسي متفهمة. بالفعل.. كان حادثًا.. عن غير قصد منه. هكذا تجري الأمور هنا في هذه القرية؛ يقع الناس في الحب عن غير قصد منهم، ويشترون اللحوم الفاسدة بالصدفة، وينسون كتاب الصلوات سهوًا، ويخرسون بلا تعمد. نهضت "هانا" لتعلق سترة أبي على الشماعة. انفتحت حقيبة عطر اللافندر من دون قصد، لتتناثر زهور أرجوانية صغيرة فوق لحافي. أستلقي على ظهري وسط اللافندر. أدعو الرب أن يتباطأ النهار، حتى لا أضطر للذهاب إلى المدرسة، وحتى تجف نداوة العشب في الحقول إلى أن يصير تبنًا، وحتى تنحسر تلك النداوة بداخلي.. قطرة قطرة.

الفصل الحادي عشر



ينصحوننا في الأخبار بتناول كوب ماء كبير كل ساعة، ثم يعرضون صورة كوب ماء ضخم لا يشبه أي كوب من الأكواب التي لدينا.

لن تجد في هذه القرية منزلين لديهما النوع نفسه من الأكواب، بل إنها أصبحت وسيلة يميز بها كل منزل نفسه عن بقية المنازل. نحن مثلًا نستخدم أكوابِ المستردة بعد أن تُفْرَغ من محتواها. وكذلك نعاود استخدام زجاجة "الكوكاكولا"، فتصبح زجاجة ماء بعد أن يملأ أبي أكوابنا بمشروب الكولا، مثلما يفعل الآن. ولأن الزجاجة لا تُغسل على النحو المطلوب، يكتسب الماء مذاقًا يشبه مذاق "الكوكاكولا" عندما نتركها بعض الوقت تحت الشمس. أشعر بحكة في أنفي بسبب الغبار المتصاعد من إعداد التبن. وعندما أخرج بإصبعي ما في أنفي من مخاط ناشف،

أجده أسود اللون. أمسحه في بنطالي، ولا أجرؤ على دسه في فمي، خشية أن أمرض وأستحيل غبارًا. ترقد بالات التبن حولي مثل قطع الصابون الأخضر متناثرة في الحقل. لا أريد أن أتذكر إحساسي وإصبع والدي بداخلي، فأتناول قضمة من "الدونات" التي وزعها علينا للتو. بالكاد تمكنت من تناول قطعة أخرى لا طعم لها؛ لقد مللنا من كثرة تناولها في الآونة الأخيرة؛ فلم يبع الخبّاز غيرها مؤخرًا. لكنني أتناول قضمة، حتى ولو على سبيل مشاركة "أوبي" وأبي؛ فلا ريب في وجود قاسم مشترك بين ثلاثة أشخاص يجلسون فوق بالة تبن ليأكلوا "الدونات". تلتصق بأسناني وسقف فمي. أبتلعها دون أن أتذوقها.

- لا بدَّ أن الرب قد سكب محبرته.

قالها "أوبي"، وهو يحدق إلى السماء الغائمة للغاية فوق رؤوسنا المكللة بحبات العرق. أبتسم، مندهشة وأنا أرى أبي يبتسم بدوره، ربما لأول مرة منذ دهر بعيد. ينهض وهو يمسح يديه في البنطال، إيذانًا بوجوب العودة إلى العمل. وسرعان ما تتوتر أعصابه خشية أن تمطر السماء على بالات التبن، فتتعفن. أنهض وأنا أقطف حفنة من العشب الجاف لحماية كفيَّ من رباط البالة الخشن. أرمق الابتسامة على وجه أبي. أفكر في أن كل ما علينا فعله هو أن نحرص على ألا تترك الأربطة الخشنة أثرًا في أيدينا، وبعد ذلك سيكون كل شيء على ما يرام، وعندئذ لن نخشى من أن تقوم القيامة على أبوينا في أي لحظة، مثل حدأة تنقض على

فريستها، أو من أن نرتكب آثامًا أكثر مما نصلي. ألتقط بالة جديدة، ويلتصق معطفي ببشرتي المتعرقة. لن أخلعه عن جسدي، حتى ولو اشتد الجو حرًّا لدرجة الغليان. ألقي البالات على عربة التبن حتى يتمكن أبي من ترتيبها في صفوف.. كل صف فيه ست بالات. يقول أبي وهو يحدق إلى السماء التي ازدادت عتمة فوقنا:

- علينا أن نسرع، قبل أن تنفتح أبواب السماء.

أتطلع إليها بدوري، وأنا أقول:

- كان بوسع "ماتياس" رفع بالتَيْ تبن في المرة الواحدة؛ يغرس الشوكة فيهما بكل سهولة، وكأنهما قالبان من جبن "النيتل".

لحظتها، غارت ابتسامة أبي في وجهه حتى لم يبقَ منها شيء. هناك أشخاص باسمون دومًا حتى ولو كان الحزن يملؤهم. فقد باتت ابتسامتهم جزءًا لا ينمحي من شخصية وجوههم. لكنني أجد عكس ذلك تمامًا في وجهيْ أمي وأبي. وحتى عندما يبتسمان، فإنها تكون ابتسامة يشوبها الحزن. كما لو أن أحدًا ما يبادر مع كل ابتسامة برسم قوس كآبة عند ركني الفم.

- ينبغي ألا نستحضر الموتى في أفكارنا.. بل أن نكرم ذكراهم وحسب.

- أليس مسموحًا لنا أن نتذكرهم بصوت عالٍ؟

يحدّق أبي إلى وجهي، فأشعر بعينيه تخترقانني. يقفز من على عربة التبن، ويغرس الشوكة في الأرض، وهو يصيح:

- ماذا قلتِ؟

أتمتم وأنا أرقب توتر عضلات ذراعيه:

- لا شيء.

- ماذا؟

- لا شيء.. أبي.

- هذا ما ظننت. فأنا لا أتصور أنكِ تمتلكين جرأة الكلام معي بعد أن أفسدتِ مخزون الفاصولياء كله بنزع قابس المجمِّد.

أحدق إلى السماء هربًا. ولأول مرة ألاحظ أنني شددت عضلاتي أيضًا، وأن بي رغبة في أن أضع رأس أبي في الحبر مثل القلم قبل كتابة جملة قبيحة به، أو جملة أتحدث فيها عن "ماتياس" الذي أفتقده بشدة. تملت من أفكاري.. **"أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ"**.. ومن فوري، أقول لنفسي: "وآمل كذلك أن تطول أيامي على الجانب الآخر، وليس هنا في هذه القرية الغبية المملة". يتناول "أوبي" زجاجة الكولا من على الأرض، ويتجرع بجشع آخر ما فيها، دون أن يسألني عما إذا كنت أرغب في بعضها، ثم ينهض لمواصلة العمل في التبن.

آخر جولة مع التبن هي أبطؤها. أقود الجرار بينما يلقي "أوبي" البالات على العربة حتى يتمكن أبي من تكديسها. يصيح أبي فيَّ لكي أسرع.. أو أنمهل. وبين حين وآخر، يفتح باب الجرار فجأةً ويدفعني بعنف بعيدًا عن المقعد، قبل أن يقبض بقوة على المقود فيتفادى وقوع الجرار في حفرة، والعرق يتساقط من جبهته بغزارة. وما إن يعود إلى أعلى البالات، ليواصل تلقيها من "أوبي"، حتى أقول لنفسي: "لو أنني أسرعت بالجرار مرة واحدة، فلسوف يسقط من فوق العربة.. مرة واحدة فحسب".



بعد جمع التبن، أجلس و"أوبي" إلى الجدار الخلفي الظليل لحظيرة الأبقار. دسَّ عود قش في الثغرة بين سنيه الأماميتين. يمكنك أن تسمع في خلفية المشهد أزيز الفرشاة الكبيرة التي تتحرك آليًّا فوق ظهور الأبقار لتحكها. أمامنا وقت راحة طويل قبل أن نطعمها. يتلاعب "أوبي" بعود القش في فمه، وهو يعدني بإخباري بكلمة سر لعبة "ذي سيمز" The Sims على الحاسوب في غرفته إن ساعدته على أداء مهمته. وباستخدام كلمة السر تلك، يمكنني أن أصبح غنية جدًّا وأن أجعل الصور الرمزية في اللعبة تقبِّل بعضها. تسري رعشة في جسدي. أحيانًا، عندما يأتيني أبي ليتمنى لي ليلة سعيدة قبل أن أنام، أجده يلامس أذني بلسانه. لا أجد الإحساس بمثل سوء إحساسي بإصبعه التي تحمل قطع الصابون الأخضر، ولكنه إحساس سيئ بدوره. أنا لا أعرف لماذا يفعل ذلك. ربما

يعدُّ أذني مثل غطاء "كاسترد" الفانيلا الذي يلعقه بلسانه كل مساء، حتى لا يضيع أي شيء منه هدرًا، كما يقول؟ ويبدو أنه يفعل الأمر نفسه مع أذنيَّ، لأنني غالبًا ما أنسى تنظيفهما بعيدان القطن؟

- هي ليست مهمة لها علاقة بالموت.. أليس كذلك؟

لا أعرف إذا كنت قوية بما يكفي لأواجه الموت الآن. نحن لا نجتمع أمام الرب إلا كل أحد، ولكنني أجهل قواعد المثول أمامه عند الموت. ما زلت أشعر بوطأة غضب أبي على كتفيَّ. كلما اندلع شجار في المدرسة، أتحاشى التحيز إلى طرف من الطرفين. أراقب الشجار عن بعد، وأتعاطف مع الطرف الأضعف في مخيلتي، ولكني لا أتمالك نفسي كلما تذكرت الموت، لكوني أجهل كيفية التعامل معه. وعلى الرغم من أنني أحاول أحيانًا الابتعاد عن جسدي وأن أنظر إلى نفسي من بعيد، فإن ذلك لا يجدي مع الموت، فيبدو أنني أعلق حينها داخل جسدي. ما زالت حادثة السنجاب حية في ذاكرتي، وأعرف طبيعة شعوري بعدها، ولكنه شعور لا يفوق فضولي لرؤية الموت وفهمه.

- مواجهة الموت قائمة دومًا.

بصق القشة من بين أسنانه، فاستقرت البصقة على الحصى.

- ألم تفهم سبب منعنا من الكلام عن "ماتياس"؟

- هل تريدين كلمة السر أم لا؟

- هل يمكن لـ"بيل" أن تشاركنا؟ سوف تأتي بعد قليل.

لم أخبره بأنها تأتي بالأساس لأجل أعضاء صبية الجيران، ولأنني تحدثت عنها وقلت إن تلك الأعضاء تشبه قطع "الكرواسون" البائتة التي نتناولها في منزلها أحيانًا، والتي تصنعها أمها من عجين تخرجه من علبة صفيح وتجهزها قبل أن تخبزها في الفرن.

- بالتأكيد، طالما أنها لن تبكي وتنتحب.

بعد برهة، أحضر "أوبي" ثلاث زجاجات "كوكاكولا" من القبو، وأخفاها تحت سترته قبل أن يشير إليَّ و"بيل" أن نلحق به. أعرف ما سيحدث وأشعر بالسكينة، لدرجة أنني نسيت أن أضع سحُاب معطفي بين أسناني. ربما للأمر علاقة بشكوى الجارة "ليان" وزوجها "كيس". يعتقدان أن في الطريقة التي أقود بها الدراجة إلى جوار السد، وأنا أشد كمي المعطف ليغطيا أصابعي بينما السحُاب معلق في أسناني، خطورة عليَّ. ولكن أمي وأبي استهترا بمخاوفهما وكأنهما يرفضان سعرًا بخسًا لشراء عجل لديهما. قالت أمي:

- هذا أمر مؤقت.

وقال أبي:

- بالفعل.. عندما تكبر ستتوقف عن فعل ذلك.

نفتح باب حظيرة الأرانب، بينما تتحدث "بيل" عن اختبار الأحياء وعن "توم"، الذي يجلس خلفنا في الفصل بصفين، والذي له شعر أسود يصل حتى كتفيه، ويرتدي القميص الكاروهات نفسه دائمًا. نعتقد أنه ليس لديه أم، وإلا فلماذا لا يغسل أحد ملابسه أو يجعله يرتدي قميصًا آخر؟ تقول "بيل" إن "توم" يحدق إليها عشر دقائق على الأقل، مما يعني أن نهديها قد ينموان في أي لحظة تحت قميصها. أبتسم، على الرغم من إشفاقي عليها. يحتاج الناس إلى الانشغال بمشكلات صغيرة لكي يشعروا بأنهم صاروا أكبر. وأنا لا أتعجل الحصول على نهدين ممتلئين. ولا أعرف ما إذا كان عدم تعجلي هذا غريبًا أم لا. كما أنني لا أتوق إلى الفتيان، ولكنني أتوق إلى نفسي، ولكن من الحكمة ألا أبوح بذلك، تمامًا مثلما تخفي كلمة سر هاتف "النوكيا" حتى لا يقتحم أحد أسرارك.

حظيرة الأرانب دافئة معتمة. تضرب أشعة الشمس ألواح سقف الحظيرة طوال اليوم. يرقد "ديفيرتجي" في قفصه. نظفت أمي أوراق الشجر الرطبة بالأمس من قفصه وفرشت بدلًا منها أخرى يانعة؛ لاحظت أنها نسيت وضع الحلوى في علبة الحلوى، ولكنها لم تنسَ الأوراق. يخرج "أوبي" مقصًا من جيبه، بعد أن أزاح العلف عن الخشبة أمام الأرنب، بينما أرمق بقايا صلصة الطماطم التي التصقت بحدي المقص، لأن أمي تستخدمه في فتح عبوات "هاينز". يحرك "أوبي" المقص حركات استعراضية سريعة وهو يلتمع تحت أشعة الشمس التي تتسلل خلال الثغرات الموجودة في جدار الحظيرة. إنه الموت.. يحذرنا.

- سأبدأ بقص شاربيه، لأنهما بمنزلة قرون الاستشعار لديه، وعندئذ لن يعرف "ديفيرتجي" ما الذي يفعله.

هكذا، قصهما ووضعهما في راحة يدي المفرودة. تسأله "بيل":

- أليس في هذا خطر على "ديفيرتجي"؟

- الأمر مثل أن تحرقي لسانك فتفقدي حاسة التذوق. لا ضرر كبير منه.

يحاول "ديفيرتجي" أن يتملص من يد "أوبي" التي تطارده، ولكنه يفشل.

- أتودان أن تشاهدا تزاوج أرنب وأرنبة؟

تبادلنا النظرات. ما يقترحه ليس في خطتنا التي كانت أن نقص شاربيه لنرى إن كانا سينموان مرة أخرى أم لا، ولكنني أشعر الآن أن الديدان عادت إلى بطني. منذ أن أخرج "أوبي" عضوه أمام ناظري أنا و"هانا"، صرت أشعر أن الحساء الذي تعطيني إياه أمي لقتل الديدان يسري في داخلي ليخرج بوتيرة أسرع؛ فأشتكي عمدًا من الحكة في مؤخرتي. أحيانًا ما أحلم بخروج ديدان كبيرة مثل أفاعي الجرس من فتحة شرجي؛ لها فكَّا أسد، بينما أسقط في جوف مرتبتي، مثلما سقط النبي "دانيال" في حفرة الأسد، ولذا عليَّ أن أومن بأنني أثق بالرب، ولكنني أراقب تلك الوجوه الجائعة القذرة بأجسادها الأفعوانية. لم أستيقظ من الكابوس إلا وأنا أبكي طلبًا للرحمة.

أومأ "أوبي" برأسه تجاه الأرنبة القزمة في القفص المقابل لقفص أرنبي. أتذكر كلمات أبي، لا تدعي أرنبًا كبيرًا يغطي بجسده أرنبًا صغيرًا. هذا خطأ؛ أبي أطول من أمي بشبرين ومع هذا فهي لم تمت وهي تلدنا. وهو ما يعني أن هذا ممكن مع الأرانب أيضًا، ولهذا السبب أدس الأرنب الصغير بين ذراعيْ "بيل". تحتضنه للحظة، ثم تضعه في قفص "ديفيرتجي". ونراقب في صمت "ديفيرتجي" وهو يتشمم الأرنبة القزمة، ويتقافز حولها. ويقترب منها. لا يمكننا أن نرى عضوه. لا نرى سوى حركاته الساخنة المحمومة ونظرة خوف في عينيْ الأرنبة الصغيرة، النظرة نفسها التي رأيتها في عينيْ السنجاب.

"لا خير في الرغبة عن جهل، وكم من قدم متعجلة زلت!"، هكذا يقول أبي أحيانًا وقت أن تلح في طلب شيء بعينه، وها أنا أتأمل أرنبي وهو يخطو في درب الزلل. وأتساءل إن كان أبي يقطع الخطوات نفسها كلما فعل مثلما يفعل الأرنب. ربما لهذا السبب أصيب في ساقه التي تؤلمه دائمًا. وربما اخترع قصة الحصادة تلك لأنها أقرب إلى التصديق من تلك التي سوف تجلب عليه السخرية وإحساس الخزي. وما إن ظننا أن الخطر قد زال دون خسائر، حتى انتبهنا إلى أن الأرنبة القزمة قد ماتت. ولم يكن في المنظر ما يستدعي تأمله. أغمضت عينيها ورحلت. من دون ارتعاشة أو رجفة جسد.. من دون صراخ أو ألم.. من دون أي من مقدمات الموت. صاحت "بيل":

- يا لها من لعبة غبية!

أتوقع أنها سوف تنخرط في البكاء. إنها أرق من أن ترى مثل هذه المشاهد. هي أشبه بمصل الحليب. صرت وأخي مثل قالبي جبن صلدين منذ زمن طويل.

ينظر "أوبي" نحوي. أرمق شعيرات ذقنه الخفيفة. وعلى الرغم من الصمت، فإنني فهمت من عينيه أننا سنظل نكرر ما نفعله هذا إلى أن نستوعب موت "ماتياس" ونفهمه، على الرغم من أننا لا نعرف سبيلًا بعينه إلى ذلك الفَهم. تزداد وطأة ألم الطعنات في بطني، وكأن أحدهم يغرز سن مقص في جلدها. لم تساعدني قطع الصابون بعد. دسست شارب الأرنب في جيب معطفي، إلى جوار بقايا جلد البقرة وملعقة الجبن، وتناولت من جيبي غطاء زجاجة الكولا ووضعت معدنه البارد في فمي. ألحظ أن "بيل" تنظر إليَّ في ترقُّب. عليَّ الآن أن أوفي بما وعدتها به. كان لـ"يسوع" حواريون لأنه كان يحرص على منحهم ما يدفعهم إلى تصديقه. وعليَّ أن أمنح "بيل" ما يضمن لي ألا تتحول من صديقة إلى عدوة. وقبل أن آخذها إلى تلك الثغرة بين سياج أشجار الصنوبر، حيث يمكنها أن تتلصص كما تريد، أجذب "أوبي" من طرف كمه وأنا أهمس له:

- ما كلمة السر؟

- Klapaucius.

أخرج الأرنبة القزمة من قفص "ديفيرتجي" ودسها أسفل سترته، التي لا بدَّ أنها لا تزال باردة من أثر زجاجات الكولا. لم أسأله عما سيفعله بجثتها. لا بدَّ من تقبل الأسرار في صمت تام.



تجلس "بيل" على كرسي قماش على الجانب الآخر من سياج الصنوبر. وأحرك إصبعي الصغيرة أمام ثغرة التلصص.

- لكن هذا ليس عضو ولد. هذا إصبعك الصغيرة.

- هذا ليس الجو المناسب لظهور أعضاء الولاد. حظكِ سيئ.

- ومتى يكون الجو مناسبًا؟

- لا أعرف. لا أحد يعرف. الأجواء المناسبة نادرة في الريف.

- كل هذا كذب، أليس كذلك؟

التصقت خصلة من شعر "بيل" بوجنتها، وتدلت لتدخل في قلب علبة الكولا. تتجشأ ولكنها تغطي فمها بيدها. لحظتها نسمع ضحكات خلف السياج، وننظر عبر الثغرة إلى أولاد الجيران وهم يركضون ليقفزوا في

ـمام السباحة، قبل أن يطفوا فوق مياهه على أظهرهم التي أكسبتها الشمس سمرة، فصاروا مثل حبات زبيب في كأس براندي.

أتعلق بذراع "بيل"، وأنا أستحثها:

- تعالي لنطلب منهم أن نلهو معهم في حمام السباحة.

- ولكن كيف يمكن أن نرى أعضاءهم؟

- سيكون عليهم أن يتبولوا من دون شك.

أشعر بالقناعة في نبرة صوتي وهي تؤلم صدري. أشعر بأنني أكبر، ـلما فكرت في أن لديَّ شيئًا يتوق أحدهم إلى امتلاكه. نمشي كتفًا بكتف إلى ـنزل الجيران، وأشعر أن بطني ممتلئ بالفقاعات. هل يمكن لديدان ـطني أن تنجو بعد أن شربت الكولا؟



الفصل الثاني عشر



لا بدَّ أن سبب انشغالي بأعضاء الصبية هو أنني كنت ألهو بتماثيل الملائكة العارية وقت أن كنت في العاشرة من عمري.

عندما جمعتها من شجرة عيد الميلاد، تحسست ملمس الخزف البارد بين أرجلها القوية والذي كان مثل ملمس هشيم صدف البحر وسط علف الدجاج، ووضعت يدي فوق ذلك الجزء الذي يشبه غصينات الـ"هدال". على الرغم من أنني كنت أتحسسه وقتها بدافع حمايتها، أما الآن فبدافع توق دائم يكمن في أسفل بطني وينمو به. أهمس في أذن "هانا":

- إنني أميل جنسيًا إلى الأطفال.

أشعر بأنفاسي وهي تسري خلال شعر ذراعيَّ فأحاول أن أستند إلى حافة حوض الاستحمام حتى أتفادى ذلك الشعور. لا أدري ما يزيد من عصبيتي؛ هل هو الشعور بأنفاسي على بشرتي، أم تفكيري في أنني سوف أتوقف عن التنفس ذات يوم لا أعرفه على وجه اليقين؟ ومهما حاولت أن أهدأ، أجدني أشعر بأنفاسي من جديد. ينتصب شعر ذراعيَّ، فأغمسهما في الماء. "أنتِ تميلين جنسيًا إلى الأطفال.. أنتِ آثمة". علمني "أوبي" هذا الوصف بعد أن سمعه وهو يشاهد برنامجًا تلفازيًا بمنزل صديق له. لم تكن قناة من القنوات الحكومية الثلاث، فهذا ممنوع. قال "أوبي" إنهم كانوا يتحسسون الأعضاء الصغيرة لأطفال، على الرغم من أنهم يبدون مثل الأناس الكبار العاديين الذين يعيشون حياة عادية. الفارق في العمر بيني وبين صبية الجيران خمس سنوات.. كف يد كاملة. أنا إذًا واحدة منهم، وذات يوم سأكون طريدة منبوذة، مثل الأبقار التي نريد أن نفصلها قبل أن ننقلها إلى جزء جديد من الحقل.

بعد تناول الطعام، مررت أمي علينا قطعة قماش مبللة حتى نتناوب على تنظيف أفواهنا من الكاتشب وأصابعنا من آثار الطعام. لم أرغب في تناولها. لن تسامحني أمي إن مسحت أصابعي الآثمة في القماشة نفسها التي مسحت بها شفتيها، وهي لم تأكل مكرونة بالكاتشب على الإطلاق لكنها ما زالت على الرغم من ذلك تنظف فمها. ربما هذه هي طريقتها المستترة لتمنحنا قبلة ليلة سعيدة، بعد أن تناقصت المرات التي تمنحنا فيها قبلة حقيقية. صعدت إلى الطابق العلوي بنفسي وسحبت اللحاف

حتى رقبتي، بالطريقة التي شاهدتها في فيلم في أثناء وجودي في منزل "بيل"، حيث يأتي شخص ويشد اللحاف ليغطي الشخصية الرئيسية في الفيلم، وهو أمر لم يحدث معي إطلاقًا، فأحيانًا ما أستيقظ مرتجفة من البرد، فأسحب اللحاف عن جسدي بنفسي، وأنا أهمس لنفسي: "نامي هنيئًا، أيتها الشخصية الرئيسية العزيزة".

قبل أن تصل القماشة إليَّ، دفعت كرسيي للخلف وقلت إنني أريد الذهاب إلى الحمام. ويبدو أن عبارتي بعثت الأمل في أنفسهم جميعًا حول المائدة، فقد تطلعوا إليَّ في أمل.. أخيرًا سأتبرز. وهناك في الحمام، انتظرت حتى سمعتهم جميعًا وهم ينهضون، وحتى بردت مؤخرتي، وحتى قرأت مواعيد أعياد الميلاد في التقويم المعلق فوق الحوض.. ثلاث مرات. وبقلم رصاص أضعه في جيب معطفي، رسمت صليبًا بخط رفيق للغاية بعد كل اسم، لا يمكنك أن تراه إلا عن قرب، وكان أكبر صليب بعد عيد ميلادي في أبريل، وكتبت.. "أ. هـ." "أدولف هتلر".

عضو طفل الجيران ناعم، مثل ملمس رغيف اللحم المزين بالأعشاب والذي أساعد الجدة على تحضيره أيام الأحد. ولكن رغيف اللحم دهني خشن السطح. كنت أرغب في الاستمرار في إمساك عضوه ولكن خيط بول الطفل أصبح أرق حتى توقف. حرك الصغير خاصرته متراقصًا فتطاير رذاذ البول ليستقر على البلاط رمادي اللون. بعد ذلك رفع سرواله الداخلي والجينز. كانت "بيل" تراقب المشهد من بعيد. سمحت لها أن تقترب وتحكم أزرار بنطاله الجينز. في

... مهم، يكون عليك البدء من الأسفل تدريجيًّا حتى بلوغ القمة. سيكون ... الصعب عليها أن تنسى منظر الأرنبة الميتة بسهولة، لكن ما فعلته لأجلها ... روعها؛ لقد وفيت بوعدي. جذبت إصبعها وجعلتها تضغط بها على عضو ... الصغير، وأنا أقول من دون داعٍ:

- هذا حقيقي.



- أنا أميل جنسيًّا إلى الأطفال.

كررتها في أذن "هانا"، وهي تخرج بعض الشامبو وتمرره على شعرها. شامبو بجوز الهند. لم تتفوه بكلمة، ولكنني أعرف ما تفكر فيه. بوسعها أن تفكر قبل أن تتكلم؛ أما أنا فأتكلم ومن ثم أفكر. فلو حاولت أن أفعل العكس، أشعر برأسي وكأنه يفرغ شيئًا فشيئًا وأن الكلمات مثل أبقار ترقد لتنام في مكان غير مكانها داخل الحظيرة.. فلا أصل إليها.

ندت عن "هانا" ضحكات مكتومة.

– أنا جادة حقًّا!

– لا يمكن هذا.

– ولماذا؟

– مَن يتحرشون بالصغار مختلفون عنا. وأنتِ لست مختلفة عنا. أنتِ مثلي.

تركت جسدي ينزلق في مياه حوض الاستحمام، وكتمت أنفاسي وأنا أشعر برأسي يلامس القاع. أستطيع أن أرى تحت الماء ملامح ضبابية لجسد "هانا" العاري. إلى متى سوف تستمر أختي في الاعتقاد بأنني لست مختلفة عنها، والإيمان بأننا واحد، في حين أن هناك لياليَ تمر ونحن نرقد في الفراش بعيدين عن بعضنا، وهي تعجز عن مواكبة تداعي أفكاري.

- كما أنكِ فتاة.

- ألا يميل إلى الصغار سوى الأولاد؟

- بلى.. الأكبر عمرًا.. ذوو الشعر الأشيب.

- شكرًا للرب.

قد أكون مختلفة، ولكني لا أميل جنسيًا إلى الصغار. أتخيل الأولاد في فصلي. لا أحد منهم شعره أشيب. وحده "ديف"، له روح عجوز، كما تقول المعلمة. بل لدينا جميعًا روح عجوز. أما أنا فعمر روحي اثني عشر عامًا. هو عمر أكبر من عمر أكبر بقرة لدى جارنا، ورغم ذلك فإنه يزعم أن بقرته صارت جاهزة للتزاوج، بعد أن توقف لبنها.. أو كاد.

- قوليها ثانيةً.. شكرًا للرب.

صاحت "هانا" في جذل وهي تضحك، ومن ثم خرجنا من الحوض لتجفف كل منا جسد الأخرى، قبل أن نرتدي منامتينا، مثل حلزونتين تبحثان عن الأمان.

الفصل الثالث عشر



يتعلق الجلد المكسو بالثآليل مرتخيًا حول هياكلهما العظمية. تنتفخ أوداجهما في كل لحظة، كما لو كانا يجمعان الهواء تمهيدًا للتحدث، ولكنهما يغيران رأيهما في كل مرة. أفكر في أن أفتح الثآليل لأتبين ما في داخلها، ولكنني أسند ذراعيَّ إلى سطح مكتبي وأسند رأسي إلى يديَّ. لم يأكلا أي طعام منذ هجرة الضفادع. ربما التحقا بحركة المقاومة، مثل أمي، على الرغم من أنني أجهل ما يقاومانه أو يعترضان عليه. خلال الحرب العالمية الثانية، كانت المقاومة دائمًا ضد كيان ما، ضد آخرين؛ أما الآن فهي ضد أنفسنا، وهكذا أنا مع معطفي، فهو رمز للمقاومة ضد الأمراض التي يذكرونها في برنامج "ما يطلبه المستمعون" الإذاعي. صرت مذعورة من كل تلك الأمراض التي يمكنها أن تصيبنا. أحيانًا ما أتخيلني خلال درس الجمباز وأنا أراقب طابور بنات فصلي اللاتي ينتظرن دورهن أمام حصان القفز، وقد بدأت

الواحدة تلو الأخرى تتقيأ؛ ليستقر القيء كتلة لزجة عند أقدامهن فتتسمر قدماي في مشمع الأرضية فزعًا، وقد أضحت وجنتاي في سخونة أنابيب التدفئة الممتدة في السقف. ولا يختفي ذلك المشهد من مخيلتي إلا حينما تختلج عيناي. وحتى أروض مخاوفي، أقسّم حبات نعناع إلى أجزاء صغيرة على حافة الطاولة ومن ثم أحتفظ بها في جيب البنطال. وكلما أحسست بالغثيان، أتناول واحدة، حتى لا أتقيأ. مذاق النعناع يهدئ أعصابي.

لن يسمح لي ناظر المدرسة أن أغادرها مبكرًا.

- دائمًا ما يكون هناك مشكلة أعمق لا نعرفها لدى التلاميذ الذين اعتادوا الغياب عن المدرسة بداعي المرض لفترات طويلة.

يقولها ونظراته تتجاوزني إلى نقطة أبعد مني، كما لو أنه يرى أبي وأمي خلفي، وكما لو أنه يرى ذلك الشيء الذي قد يحدث في أي لحظة، ذلك الذي نسميه الموت، والذي يتخير دومًا الشخص الخطأ، أو العكس، فيتجاهل دائمًا الشخص الخطأ.

- إياكما أن تبصقاها.

أحذر الضفدعان، وأنا أقرب منهما دودتين، وجدتهما في حزمة الخضروات هذه الظهيرة، وسارعت بدسهما في منديل ورقي قبل أن تظهر "بيل". الدودة من أقوى الكائنات، لأنها تبقى حية حتى وإن شطرتها نصفين. لديها تسعة

فلوب. تتلوى الدودة قليلًا وأنا أحملها قريبة من الضفدع الأكبر، فتتحرك عيناه في كل اتجاه. حدقتاه مثل شريطين، أو مثل سن مفك. أنوي أن أستخرج هاتين العينين ذات يوم، لأعرف ذلك العيب الذي يجعلهما بهذا الشكل؛ كما سبق وفعلت في محمصة الشطائر التي غطتها طبقات الجبن الذائبة. يرفض الضفدعان تناول الدودة. أفرك ساقيَّ ببعضهما للحظات؛ فدائمًا ما أشعر بالحكة بعد خلع سروالي الداخلي. صرت أتبوَّل على نفسي كثيرًا في الأيام الأخيرة، وأخبئ الجورب "الكولون" المبتل تحت سريري. تلك هي الميزة الوحيدة للحزن؛ فقد أضحى أنف أمي مسدودًا باستمرار، فتعجز عن شم رائحة سروالي الداخلي الغارق في البول تحت السرير عندما تأتيني لتتمنى لي ليلة سعيدة.

واليوم، تبولت مجددًا على نفسي في المدرسة. من حسن حظي أن أحدًا لم يلحظ ذلك، عدا المعلمة. أحضرت لي واحدًا نظيفًا من صندوق المفقودات؛ ذلك الصندوق الذي يحتوي على أشياء توقف أصحابها عن البحث عنها، وتاهت هي عنهم. في نسيج "الكولون" كلمة COOL مطبوعة بالأحمر. أنا أبعد ما يكون عن وصف "كول" هذا. سألت المعلمة وهي تعطيني "الكولون":

- هل أنتِ غاضبة مني؟

- بالطبع لا.. مثل هذه الأمور تحدث. لست غاضبة أبدًا.

مثل هذه الأمور تحدث.. كل الأمور تحدث.. ولا قِبَلَ لنا بمنعها عنا. تلك الخطة بشأن الموت والمنقذ، وبشأن أمي وأبي اللذين توقفا عن التزاوج،

وبشأن "أوبي" الذي ينمو ويكبر على ملابسه بأسرع من قدرة أمي على حفظ تعليمات غسيلها، ومع نمو جسده تنمو وحشيته أكثر وأكثر؛ وبشأن تلك الحشرات التي تدغدغني في بطني وتجعلني أرقد فوق دبي وأحك جسدي في جسده، فلا أغادر الفراش إلا وأنا منهكة؛ وبشأن توقفنا عن شراء زبدة فول سوداني من النوع المقرمش؛ وبشأن علبة الحلوى التي صار لها فم ينطق بصوت أمي لينبهنا.. "هل أنتِ متأكدة من رغبتكِ في تناولها؟"؛ أو بشأن السبب الذي حوَّل ذراعي أبي إلى ما يشبه حاجز مرور خشبي، يهوي عليك دون سابق إنذار؛ أو بشأن أولئك اليهود في القبو الذين لا يأتي على سيرتهم أحد، تمامًا مثل حرص الجميع على الابتعاد عن سيرة "ماتياس". هل لا يزالون على قيد الحياة؟

يتقدمَ أحد الضفدعين بغتةً. أحجزه بيدي حتى لا يقع من فوق المكتب. هل تعرف الضفادع صوامع الغلال؟ أعود لأسند رأسي إلى يديَّ، حتى يتسنى لي تأملهما عن قرب:

- أتعرفان ما مشكلتكما، عزيزاي؟ عليكما استغلال قواكما. فلو أنكما تعجزان عن السباحة أو القفز عاليًا مثل أي ضفدع، فلا بدَّ لكما من إجادة أمور أخرى، مثلًا.. أنتما تجيدان المكوث في مكانكما. هذه مهارة يعجز عن منافستكما فيها أي ضفدع آخر. وكذلك أنتما أشبه بكتلتي طين متماسكتين. وكذلك تجيدان الحفر والنبش، وأنا أشهد لكما بذلك. ظللنا طيلة الشتاء على يقين بأنكما اختفيتما، ولكنكما كنتما متواريين في الأرض

تحت أقدامنا. نحن البشر ظاهرون دومًا، حتى ولو طلبنا الاختفاء عن الأنظار. وعدا ذلك، يمكننا القيام بكل ما تقومان به.. نسبح.. نقفز.. نحفر.. ولكننا لا نهتم لتلك الأمور مثلما تهتمان لها، لأننا نسعى بالأساس إلى أن نفعل تلك الأشياء التي لا نجيدها، أشياء نقضي الأعوام في تعلُّمها في المدرسة، على الرغم من أنني أفضل أن أنشغل عنها بالسباحة أو أن أحفر في الطين لأواري جسدي فيه موسمين. وربما كان الفارق الأهم بيني وبينكما هو أن ليس لديكما أبوان في حياتكما. ولكن، كيف حدث ذلك؟ هل أخبراكما ذات يوم بأن الوقت قد حان لتذهبا أحرارًا لتعيشا الحياة كما تحبان؟ هل هذا ما حدث؟ أم أنكما انشغلتما بالسباحة ذات يوم صيفي في مياه يوليو الدافئة فانتهزا الفرصة وابتعدا عنكما؟ هل تألمتما وقتها؟ هل ما زلتما تتألمان؟ قد تجدان في كلامي خرفًا.. ولكنني أفتقد أبويَّ رغم أنني أراهما كل يوم. ربما هو إحساس يشابه إحساسنا بالرغبة في تعلُّم الأشياء التي لم نتقنها بعد. أمي وأبي موجودان، ولكنهما غير موجودين.

أتنهد وأنا أفكر في أمي، التي ربما تقبع بالأسفل الآن منشغلة بقراءة مجلة الكنيسة التي لا تصدر إلا كل خميس، قدح من الحليب باليانسون بين يديها. بالقرب منها أبي، يتابع أسعار الحليب على شاشة التلفاز. لو وجد الأسعار جيدة، فلسوف ينهض ليعد لنفسه شطيرة في المطبخ، فتتوتر أعصاب أمي مجددًا لما قد يخلفه وراءه من فوضى على الرخامة، وكأنها من شرطة النظام. أما إن كانت الأسعار مخيبة لأمله، فعندئذ يخرج ليتمشى بعيدًا عنا، عند السد. وفي كل مرة يفعلها، أظن أنها آخر مرة نراه فيها.

وعندها، سوف أعلق البدلة الوقائية التي يرتديها على شماعة الردهة، إلى جوار معطف "ماتياس"؛ للموت شماعته هنا. على أن أسوأ شيء هو ذلك الصمت الأبدي. فما إن يصمت التلفاز حتى لا نسمع أي شيء في المنزل إلا تكات الساعة على الجدار. إنهما لا يبتعدان عنا، ولكننا نبتعد عنهما.

– سوف أخبركما بسر، وعليكما أن تعداني بالكتمان.. أتمنى أحيانًا لو كان لي أم وأب غيرهما. أتفهمانني؟ أبوان مثل أبوي "بيل".. في رقة قطع بسكويت خرجت من الفرن للتو.. يغرقانها بالعطف كلما شعرت بالحزن أو الخوف أو حتى الفرحة. أبوان يطردان كل شبح من تحت سريري، ومن داخل رأسي، ويتحدثان معي في كل عطلة عن كل ما جرى طوال الأسبوع، مثلما تحدثنا "ديفيرجتي" في شاشة التلفاز، حتى أشعر بقيمة ما تحقق خلال أيام الأسبوع، وبقيمة العثرات التي خبرتها على الطريق. أبوان ينظران إليّ حينما أتحدث إليهما؛ حتى ولو كنت أخاف أن أنظر في عينيْ مَن أتحدث معه، حيث أشعر حينها أنني أمام عينين مثل بِلّيتين، ما تلبث أن تكسبهما حتى تخسرهما. تذهب "بيل" مع أبويها في عطلات مبهجة، وكذلك يعدان لها الشاي عندما تعود من المدرسة. لديهم المئات من أصناف الشاي، من بينها النوع الذي أحبه؛. شاي الشمر. وأحيانًا ما يشربونه وهم جلوس إلى الأرض، لأن في ذلك راحة أكبر من الجلوس على الكراسي. كما أنهم يتناقرون ويتمازحون من دون أن يتحول الأمر في النهاية إلى شجار. وهم يبادرون بالاعتذار لبعضهم كلما شعروا بوجود ضرورة للاعتذار. ينشغل بالي يا صديقاي بإذا ما كنتما قادرين على

البكاء، أو بإذا ما كنتما تغمران أحزانكما في المياه التي تسبحان فيها؟ نحن لدينا دموع، ولكن ربما كنتما تجدان الراحة والعزاء خارج أنفسكما. أعود الآن للكلام معكما عن نقاط القوة لديكما. عليكما أن تعرفا ما تريدان استغلاله، وكيف تقومان بذلك. أعرف أنكما بارعان في اصطياد الذباب وكذلك في التزاوج. على الرغم من أنني أسخر من هذا، فأنتما تحرصان على التزاوج في كل وقت. وطالما أنكما توقفتما عن فعله، فإن هذا يعني وجود خطأ ما. هل أنتما مصابان ببرد الضفادع؟ هل لديكما حنين إلى الوطن، أم أنكما غير متفاهمين؟ أدرك أن أسئلتي كثيرة، ولكن اعرفا هذا.. لو أنكما بدأتما موسم التزاوج، فلربما يبدأه أبي مع أمي أيضًا. على أحدهم أن يكون مثالًا لغيره، تمامًا كما أنا بالنسبة إلى "هانا"، على الرغم من أنني أعرف أنه من الأفضل أن تكون هي مثلًا لي. هل تكتفيان بالقبلات الآن؟ تقول "بيل" إن هناك أربعة أشياء أساسية: القبلات والمداعبة والمزيد من المداعبة، ثم التزاوج. لا يمكنني الكلام في هذا الموضوع، ولم أجربه بعد. ولكنني أعرف أن عليكما البَدء فيه شيئًا فشيئًا. المشكلة أنْ لا وقت لدينا. لم تتناول أمي خبزها وجبنها بالأمس، وأبي يهدد دومًا بالرحيل عنا. وأقول لكما إنهما توقفا عن تبادل القبلات. تبادلا القبلات في منتصف ليلة رأس السنة الجديدة فقط. لحظتها، مالت أمي نحو أبي في حذر، وأحاطت برأسه لثوانٍ سريعة وبأطراف أصابعها، وكأن رأسه فطيرة تفاح يغطيها الدسم، ولثمت شفتيه بشفتيها في قبلة صامتة. لا أعرف ما الحب، ولكنني أعرف أنه شعور يجعلك تقفز من البهجة،

ويدفعك إلى السباحة فترات أطول، ويجعلك تظهر أكثر أمام الناس. الأبقار غارقة في الحب، لدرجة أنها تقفز على أظهر بعضها بعضًا، حتى ولو كانتا أنثتين. أرى أن هناك مشكلة حب هنا في المزرعة. وحتى أكون صريحة معكما، عزيزيَّ الضفدعين المهذبين، فإنني أشعر كما لو أن كل منا حفر لنفسه حفرة وقبع فيها، حتى ولو كنا في فصل الصيف. غصنا في أعماق الطين، حتى إن أحدًا لن يتمكن من إخراجنا منه. هل تؤمنان برب؟ رب يغفر ويتذكر؟ أنا لا أعرف ماهية ربنا نحن. ربما أخذ إجازة، أو ربما حفر لنفسه حفرة ليتوارى فيها بدوره. فمن الواضح أنه غير مهتم بنا. كم سؤال يمكنه أن يملأ رأسيكما الصغيرين؟ لست بارعة في الحساب، ولكني أخمن أنها عشرة أسئلة. ولو أن رأسي يتسع لمائة رأس من رؤوسكم، فكم سؤال يتسع له رأسي إذًا، وكم إجابة عنها لم يتفتأ عنها عقلي بعد. سوف أعيدكما إلى الدلو الآن. آسفة.. ولكنني لا يمكن أن أطلق سراحكما الآن. لو فعلت، فمَن يراقبني ويعتني بي وأنا نائمة؟ ولكنني أعدكما أن آخذكما إلى البحيرة ذات يوم. ويومها، نطفو معًا فوق سطح مياهها، وربما.. أقول ربما.. أمتلك شجاعة كافية لخلع معطفي. وحتى لو ضايقني هذا وأشعرني بالقلق فترةً فلا بأس. يقول القس إن في الشعور بالقلق خيرًا. نصبح على طبيعتنا عندما نشعر بالقلق.

الفصل الرابع عشر



هناك فارق اثنتي عشرة ساعة بالتمام بين موعد حلب الأبقار في الصباح وموعده مساءً. واليوم هو السبت، أي إن أبي يعود إلى فراشه بعد جولة الصباح؛ بوسعك أن تسمع طقطقة الأرضية الخشبية تحت وطأة خطواته بالأعلى، ثم يهدأ كل شيء. لا يُسمح لنا بالجلوس إلى طاولة المطبخ قبل الساعة الحادية عشرة، عندما يشعر برغبة في تناول إفطاره. وعلى الرغم من ذلك، فإن الإفطار موضوع فوق الطاولة منذ الثامنة، وأحيانًا ما أجوب المكان بخطوات جائعة، آملًا أن يشعر أبي بفروغ صبري ومعدتي من مكانه بالأعلى. في أحيان أخرى، أختلس شريحة من خبز الزنجبيل وأصعد بها في السر إلى غرفتي، حيث أقسمها إلى نصفين. كان أحد النصفين يذهب إلى "هانا"، ولكنه الآن للضفدعين. عندما يهبط أبي في النهاية لكي يتناول الإفطار، بعد أن يكون قد حلق ذقنه وتهندم احترامًا

ليوم الرب، ألاحظ وجود بقايا من كريم الحلاقة على عنقه وياقة قميصه. تجاوزت الساعة الحادية عشرة بالفعل، وخبز أبي ما زال بانتظاره في صحنه. كنت قد طفت حول الطاولة أربع مرات، ووضعت أمي الزبد على خبزه بالفعل، ومن فوقه طبقة كاتشب كما يحب أبي.

يذكرني منظر الشطيرة المفتوحة بالقنفذ الذي دهسته سيارة والذي رأيته على جانب الطريق بالأمس، وأنا عائدة من المدرسة. شعرت بالحزن من منظره؛ الجسد المدهوس وقد برزت أحشاؤه واختفت عيناه.. لا ريبَ أن غرابًا نهشه وسلب عينيه. في مكانهما فجوتان سوداوان يمكنك أن تضع إصبعك في عمقهما. رقد في طريق جانبي لا تمر فيه الكثير من السيارات أو الشاحنات. ربما يكون هو مَن قرر إنهاء حياته، وربما كان ينتظر أيامًا ولكنه في النهاية قرر عبور الطريق في اللحظة الخطأ. جثوت قربه، وصليت هامسة من أجله:

- ارحمنا يا ربي وكن إلى جوارنا. توحدنا في هذا المكان في وداع القنفذ، الذي صعدت روحه من دون شفقة وهو بيننا. ونعيد هذه الروح الكسيرة ونسلمها بين يديك. فلتقبل روح القنفذ ولتسبغها برحمتك التي لم يجدها في الأرض، وكن بنا رؤوفًا رحيمًا، حتى نتحمل الموت في حياتنا.. آمين.

بعدها، قطفت بعض العشب ونثرته فوق جثة القنفذ. لم أنظر خلفي وأنا أبتعد بالدراجة.

أضع شريحة خبز في صحني، وأغطيها بطبقة من كريم الشوكولاتة بعناية شديدة. تكاد معدتي تزأر من الجوع. أسأل أمي:

- لا يزال أبي في الفراش؟

- لم ينم في فراشه أصلًا.. تحسست الأغطية وكانت باردة.

تميل إلى الطاولة لتزيل بالملعقة الصغيرة الطبقة الرقيقة الباردة التي تكوّنت على قهوة أبي. إنها تحبه.. راقبتُها وهي تدس الملعقة في فمها وتستمع بمذاق تلك الطبقة التي هي مزيج من القهوة والحليب، فأحسست بتيار بارد يسري في ظهري. لا يجلس "أوبي" في مقعده قبالتي. لا بدَّ أنه جالس إلى الحاسوب، أو بالخارج يستفز دجاجاته. لكل منا عشرون دجاجة: "ليجهورن" بيضاء، و"أوبرنجتون"، و"وايندوت"، وبعض الدجاجات البيّاضة. وكثيرًا ما يتظاهر كلانا بأننا أصحاب شركة دواجن ناجحة.. يسمي شركته "أم منقار".. وأسمي شركتي "الباتتام الصغيرة". يفقس البيض مرة واحدة في العام. تبدو الكتاكيت وكأنها قطع حلوى ذات فراء تسير على ساقين. ينضج أغلبها تحت جناحي أمه، التي تدفئها بجسدها، ولكنها تبعدها عنها أحيانًا، في جهل منها بوظيفة جناحيها. والدجاجات أسمن وأثقل من أن تطير. كما أنها أبطأ حركة من الكتاكيت، ولذلك نجمع تلك الكائنات الصغيرة في حوض ممتلئ بنشارة الخشب ونضعه في الحظيرة، قبل أن نعلق فوقه المصباح الحراري المخصص بالأساس لتدفئة العجول الوليدة. وأحيانًا ما أقتني كتكوتًا وآخذه معي إلى غرفتي وأدعه ينام عند إبطي. ألفه بمنديل مطبخ، حتى لا

يتبرز على ذراعي. أجمع مع "أوبي" البيض لنبيعه؛ العبوة ذات الاثنتي عشرة بيضة ثمنها يورو واحد، ويأخذه منا صاحب كشك في ساحة القرية. يصنع به المايونيز اللذيذ، أو يسلق البيض ليجهز به أطباق سلطة روسية. بوسع "أوبي" أن يقضي الساعات جالسًا يراقب إحدى دجاجاته وهي تتقلب مستمتعة في التراب. ولكنه لم يعد يقضي الكثير من الوقت هناك، بل صار ينسى أن يطعمها فتظل تتقافز عند السياج المعدني في جوع وعصبية. أعتقد أنه يتعمد عدم إطعامها. إنه هذه الأيام يكره كل شيء، وربما يكره صاحب كشك البيض، وحتى المايونيز الذي يصنعه. لهذا السبب، أتطوع بإلقاء بقايا الخبز لها وجمع بيضها ووضعه في السر في عبوات بيضي أنا. أتمنى أن ينظف حظيرة دجاجه. فقد هدده أبي أنه سيبيعها إن لم يفعل في أقرب وقت. فمن المؤكد أن هناك أطنانًا من القمل والديدان والحشرات المؤذية في هذا الجو الحار. بمقدورك أن تراها وهي تمشي على ذراعيك بأجسادها البنية الدقيقة التي تبرز منها ست أرجل وأكثر، قبل أن تقرر دعسها بين إصبعيك.

جلست "هانا" إلى الطاولة. وما هي إلا ثوانٍ حتى كانت قد استحوذت على كل مربى الفراولة. الانتظار يزيدنا توترًا، لأننا لا نعرف أين أبي؟ هل قرر أخيرًا الهروب على متن دراجته؟ لو فعلها، فسيكون قد هرب بالدراجة من دون غطاء لإطارها الخلفي، الذي تمزق بعد أن انفجر الإطار بعد آخر قداس في الكنيسة. أم أن أبي سقط بين أبقاره؟ رأيت أنه من الأفضل أن أشغل بالي بمربى الفراولة. سوف أذهب إلى الحقل لأجلب ثمارًا

جديدة لنصنع منها مربى: أبي يحبها، ويحب تناول شرائح الفراولة المغطاة بطبقة كثيفة من حبات السكر.

- هل بحثتِ عنه في حظيرة الأبقار؟

- هو يعرف أن هذا هو موعد الإفطار.

كانت تضع قدح قهوة أبي في فرن التسخين.

- ربما ذهب ليجلب بعض العلف الأخضر من عند "يانسن"؟

- هو لا يقوم بذلك أبدًا في يوم السبت. هيًا.. لنفطر دون أن ننتظره أكثر من ذلك.

لكنّ أيًا منا لم يحرك يده. الإفطار غريب من دون أبي. ثم.. مَن سيتلو صلاة الإفطار؟

- سأذهب لألقي نظرةً على الحظيرة.

نهضت، فارتطم كرسيي بكرسي "ماتياس" دون قصد مني. تأرجح كرسيه للحظة، ثم خر ساقطًا على الأرض. دوى صوت السقوط في أذني. هممت برفعه، ولكنّ أمي قبضت على ذراعي.

- لا تلمسيه.

كانت تنظر إلى الكرسي وكأن أخي سقط مجددًا.. هو دائمًا في حالة سقوط بمخيلاتنا. يسقط ثم يسقط.. ثم يسقط. أدع الكرسي وشأنه.

ولكني أتأمله وكأنه جثة. الآن، وبعد أن التهمت الفراولة، تمصُّ "هانا" أطراف أصابعها. أحيانًا ما أتخيل بقايا الفراولة على أسنانها مثل دم متخثر. خيم الصمت بعد الارتطام.. ولا نفس. وبعد لحظات، بدأت حواسي تعود إليَّ بالتدريج؛ الشم والسمع ثم الحركة.

- إنه مجرد كرسي.

تركت أمي ذراعي وتناولت برطمان زبدة الفول السوداني، وهي تهمس لي:

- أنتِ بالفعل من كوكب آخر.

أحدق إلى الأرض. أمي لا تعرف سوى كوكب الأرض. أما أنا فأعرف الكواكب الثمانية، وأعرف أن لا حياة إلا على كوكب الأرض.. حتى الآن.. "My Very Educated Mother Just Served Us Nachos".. لم يسبق لأمي طيلة عمرها أن قدمت لنا الـ"ناتشو" بطبيعة الحال.. ولكنني عن طريق هذه العبارة، أتذكر أسماء جميع الكواكب في الفصل.. فأوَّل حرف من كل كلمة يشير إلى أوَّل حرف من اسم كوكب. وأكررها في ذهني أكثر من عشر مرات، كلما توترت أعصابي، أو كلما توقفت طويلًا عند إشارة المرور قرب المدرسة. كما أنني متأكدة من أن هذه العبارة تعني أن البشر لا قيمة تذكر لهم؛ ما نحن إلا فتات "ناتشو" في وعاء واسع للغاية.

- ما الذي سوف تؤولي إليه بحق الرب؟

يدها الأخرى تقبض الآن على برطمان "دو بينوتي". لم يتناوله أحد منا منذ موت "ماتياس"، خشية ألا نتمكن من فصل الشوكولاتة البيضاء عن تلك البنية، فيمتزج اللونان ليصنعا ثقبًا أسود.

- سوف تصبح كبارًا طيبين يا أمي.. والكرسي ليس مجرد كرسي.. أنا آسفة.

- أين ذهب الرجل؟

تعاود ضغط زر فرن التسخين. لم ترجعني إلى موقعي من المجموعة الشمسية.. تركتني أطفو في الفضاء. هل أنا مختلفة بالفعل عن الباقين؟

أسارع بفتح الباب الخلفي وأخرج إلى الفناء، ثم أركض إلى الحظيرة. آخذ نفسًا عميقًا وأزفره بكل قوة. أكرر ذلك عدة مرات، وأنا أراقب السماء من فوقي وهي تغيم. يوم مثالي للفرار إلى الجانب الآخر. هناك أكون مسؤولة عن أفعالي ويكون بوسعي تناول الإفطار متى أردت، ولكني كلما اقتربت من الحظيرة، تباطأت بخطواتي. أحاول تفادي قطع البلاط المكسور والمتناثرة في الفناء.. "**وإلا سوف تمرضين وتتقيئين. وسوف يلحظ الجميع ذلك، كل مَن في القرية، وكل مَن في فصلك**". أنفض الأفكار عن رأسي.. رأيت كوة صومعة العلف المجاورة لحظيرة الحليب، مفتوحة. ينسكب منها العلف. دائمًا ما يحذرنا أبي من الجرذان.. "لو أن

أحدًا منكم سكب أي شيء، من العلف فلسوف تنجذب إليه ولن تتوقف إلى أن تصل إلى أصابع أقدامكم".. تتضاءل كثافة العلف المنسكب من الكوة، وأنا أمر بأصابعي خلاله. أشعر بحبيبات العلف باردة ناعمة الملمس. بعدها، أغلق الكوة، وأحكم الرباط في مكانه.

يذكرني الرباط بذلك الحبل المتدلي من سقف الحظيرة، والذي علقنا فيه كرة مطاطية منتفخة لتكون خيال مآتة للأبقار. ولكن بقرة جديدة ذات قرنين مزقت الكرة ذات يوم. وبقي الحبل متدليًا على حاله. أحيانًا ما نربط فيه أوراقًا من شجرة الجوز، أو أحد الأقراص المدمجة التي يصادرها أبي من مجموعة "أوبي"، فيلتمع سطحها في المكان ليبعد الذباب عن الأبقار، تمامًا مثلما تفعل أوراق شجرة الجوز. أتخيل الآن رأس أبي وهو يتدلى منه بدلًا من الكرة المطاطية. كثيرًا ما تتكلم أمي نيابةً عن أبي. ومَن يدري؟ ربما كان ذلك ما جرى في تلك الليلة عندما اختبأت خلف حظيرة الأرانب. هناك الكثير من الحبال في الريف، ولكن ليس لحبل بعينه وظيفة معينة وحيدة.

كما أنني لم أجده واقفًا أعلى الصومعة.

عن طريق الفتحات الموجودة في خشب الباب المفضي إلى حظيرة الأبقار، أرى "أوبي" واقفًا عند قسم العلف. يضع العلف الأخضر بالشوكة أمام الأبقار، والعرق على وجهه مثل قطر الندى على نوافذ الحظيرة. الأبقار متوترة، لا تتوقف ذيولها عن الحركة. بعض الذيول مغطاة بروث جاف. نزيلها بين حين وآخر بسكين، حرصًا منا على منظر الأبقار أكثر من حرصنا على نظافتها.

تنتفخ عضلات "أوبي" مع كل حركة سريعة رشيقة منه. يكتسب جسده قوةً لي كل يوم. أشيح بنظراتي نحو ظهور الأبقار، ونحو أركان الحظيرة، وأحدق إلى الحبل المتدلي في منتصفها. عندئذ، ينفتح الباب الخلفي، ويظهر أبي. يبدو لي مختلفًا، وكأن أحدهم ترك كوة رأسه مفتوحة، وكأن رأسه صومعة علف. صدر البدلة الوقائية مفتوح، يظهر منه صدره الذي اكتسب سمرةً. لا تحبذ أمي أن يكون بهذا المنظر؛ فماذا لو رآه مشتري حليب على هذه الهيئة؟ أظن أنها قلقة من أن يأخذ المشتري أبي بدلًا من الحليب. سعر الحليب يورو لكل لتر. ووزن أبي قرابة الخمسين لترًا. وربما لهذا السبب كان يوم الأحد هو اليوم المفضل لدى أمي، فلا أحد ينفق المال أو يكسبه في يوم الرب. لا يسمح لنا في هذا اليوم إلا بالتنفس والقيام بما هو ضروري فحسب.. أي محبة كلمات الرب وحساء الخضروات الذي تعده أمي.

يسوق أبي آخر الأبقار إلى الداخل، وهو يضربها على مؤخراتها براحة يده. يحكم غلق الباب الكبير. لم أفهم سبب ذلك. فهذا الباب لا يُغلق بإحكام إلا في الشتاء أو عندما لا يكون أحد في المزرعة. ولكننا لسنا في الشتاء.. وجميعنا هنا في المزرعة. يجمع أبي الأشواك في قسم العلف ويلفها بالجوال البلاستيكي الذي احتوى على العلف الأخضر. ينظر أبي إلى السماء للحظات. ألاحظ أنه لم يحلق ذقنه. يضع يديه على جانبي وجهه الذي توترت عضلاته. أردت أن أخبره بأن أمي بالداخل تنتظره، وأنها ليست غاضبة، وأنها لم تسألنا بعد عما إذا كنا نحبها أم لا، أي إنها لم تعد تشك في الإجابة، وأن الشطيرة جاهزة في صحنه المفضل، ذلك الذي تأطرت

حوافه بجلد بقري، وأنني و"هانا" تلونا المزمور الثالث هذا الصباح، فهو مزمور هذا الأسبوع، وأنه كان سهلًا مثل الحليب.

لم يلحظ أبي وجودي بعد. أقف هناك أراقب ما يجري، بينما تحمل يداي وعاء حبات الفراولة. يساعد "أوبي" على جلب الثور من بين الأبقار: والذي لم يمكث بينها سوى يومين فحسب. سميناه "بيلو". أبي يسمي كل الثيران "بيلو". وحتى عندما يسمح لنا باختيار اسم آخر له، ينتهي بنا الحال وقد سميناه "بيلو". رأيت قضيبه بالفعل. ولكنها كانت نظرة سريعة، لأن أمي خرجت من حظيرة الحليب في تلك اللحظة ووضعت يدها التي يغطيها قفاز مطاطي على عينيّ، وهي تقول:

- إنها تقوم بـ"الكونجا".

- ولماذا لا تراها وهي تفعل الـ"كونجا"؟

الآن، لمحني أبي. أشار إليّ آمرًا:

- عليك أن تغادري الحظيرة الآن.

كرر "أوبي" كلام أبي:

- أجل.. الآن.

يربط البدلة الوقائية الزرقاء على خصره. يعدُّ نفسه سندًا لأبي.. بكل جدية. شعرت بوخزة في طحالي. يبدو أنهما متفاهمان بين الأبقار.. أب وابنه.

- لماذا؟

- اسمعي الكلام وحسب! أغلقي الباب.

جفلت لصوت غضبه. عيناه مثل فضلات أرنب قاسية في وجهه. ،تصبب العرق من على جبهته. لحظتها، انزلقت بقرة قريبة مني وسقطت على ضرعها. لم تحاول أن تنهض من جديد. نظرت إلى أبي و"أوبي" في ،ساؤل، ولكنهما كانا بالفعل جاثيين إلى جوار البقرة الصغيرة. أسرعت الخطى بعيدًا عن الحظيرة بعد أن أغلقت الباب خلفي بقوة. تمنيت أن تنهار الحظيرة اللعينة، ولكنني سرعان ما خجلت من نفسي. لماذا لا يسمحان لي بمعرفة ما يجري؟ لماذا يمنعانني من معرفة أي شيء؟



أزحف من تحت شبكة الطيور في حقل الخضروات. كانت الجارة "لبان" قد بسطت الشبكة فوق الفراولة لتمنع النوارس و"الزرزوريات" من الوصول إليها. أجثو على ركبتي فوق الأرض الرطبة. في يوم السبت، يُسمح لي بارتداء البنطال، حتى يسهل عليَّ العمل. أبعد أوراق النباتات بحرص حتى أصل إلى أنضج الثمار؛ تلك الحمراء بالكامل، فأقطفها وأضعها في الوعاء. وبين حين وآخر أدس واحدة في فمي؛ لأستمتع بحلاوة عصارتها. أحب ملمس حبة الفراولة، وتلك البذور الصغيرة والشعيرات الخفيفة، في فمي. أشعر بالهدوء حينها. في قوامها معنى للوحدة، فهو يحفظ أشياء بداخله كانت لتنهار لولاه. لا

أحب ملمس الخضروات المقلية، الهندباء المطهية، ونسيج الملابس الخشن. لبشرة الإنسان قوامها أيضًا. تتحول بشرة أمي بسرعة إلى ما يشبه شبكة الطيور هذه؛ هناك فجوات صغيرة في بشرتها الناعمة، وكأن بشرة أمي أحجية "بازل" تضيع الواحدة تلو الأخرى تباعًا. أما بشرة أبي فهي أقرب إلى قشرة البطاطس؛ ناعمة وبها أجزاء خشنة، وندبات من براغي خدشتها.

ما إن يمتلئ الوعاء، حتى أزحف عائدة من تحت الشبكة، ثم أنفض التربة الرطبة عن بنطالي. أرى حذاء الحظيرة الذي يرتديه أبي وكذلك حذاء "أوبي" فوق الدواسة عند باب الحظيرة. أعود إلى المنزل فلا أجد أحدًا منهما حول مائدة الإفطار، بل يجلس أبي وأمي أمام شاشة التلفاز، على الرغم من أننا في ساعات النهار، حيث لا يُفترض بنا تشغيل التلفاز وقتها. عادةً، أجلس أمام الشاشة فلا أجد عليها سوى مناظر ثابتة للثلوج. وأحدق إليها، أملًا في أن أجد "ماتياس" وسطها، ولكنني أكتشف لاحقًا أن أبي قد نزع سلك الكهرباء وحسب. وقفت أمامهما.. كانت الأخبار تتحدث عن ظهورٍ إصابات بمرض جنون البقر في مزارع المنطقة. أهذا عقاب من الرب أم أنها محض مصادفة تعسة؟

يبدو لي أن الرب لا يستطيع السيطرة عليه، مثلما يعجز عن ترويض الطقس. فلو أنهم أنقذوا بجعة في بقعة ما من القرية، يموت قس في بقعة أخرى. أنا لا أعرف شيئًا عن جنون البقر، ولم أجد الفرصة لأسأل عنه لأن أمي تطلب مني أن أذهب لألعب مع "أوبي" و"هانا"، وأن هذا لن يكون يومًا عاديًا مثل

-الي الأيام. لم أرد أن أقول لها إن كل الأيام صارت غير عادية منذ زمن طويل، -وجهها كان شاحبًا مثل ستائر منزلنا. كما ألاحظ أن أمي وأبي يجلسان قرب بعضهما بعضًا. ربما هي علَامة تبشر بأنهما على وشك أن يتعريا، ولهذا عليَّ أن أسارع بمغادرة المنزل. فلا ينبغي لك أن تفصل بين حلزونين يركب أحدهما فوق الآخر، فلربما ألحقت الضرر بهما لحظتها. وهكذا، وضعت وعاء الفراولة أمامهما، إلى جوار نسخة الإنجيل المعتمدة، تحسبًا لأن تجوع أمي بعد التزاوج وتبحث عن شيء لتأكله. تنم عن أبي أصوات غريبة: يهمس، يتمتم، يغمغم في سخط، وهو يهز رأسه في عصبية.. "لا.. لا.. لا". تختلف أصوات التزاوج باختلاف الحيوان.. لذا فلا بدَّ أن هذه حقيقة تنطبق على البشر أيضًا. ألمح على الشاشة لسانَ بقرة ممتلئًا بالبثور. أبادر بسؤالهما:

- ما جنون البقر؟

لا أجد ردًّا. يميل أبي إلى الأمام ويلتقط جهاز التحكم عن بعد ويخفض صوت التلفاز. تصيح أمي فيَّ دون أن تنظر إليَّ:

- اذهبي!

أتخيل درج السلم شريط التحكم في الصوت على الشاشة، فأخبط عليه بقدميَّ بقوة وأنا أصعد، ولكن هذا لم يلفت انتباه أي منهما. لم يخبرني أحد عن كنه ذاك الذي يوشك أن يحدث.

الفصل الخامس عشر



يلصق "أوبي" على باب غرفة نومه لافتة سوداء عريضة، أحرفها شديدة البياض.. "ممنوع الإزعاج".

لا يريد من أحد أن يزعجه، ولكني لو غبت و"هانا" عن غرفته فترة، فإنه يأتي إلى غرفتينا؛ نحن لم نعلّق أي شيء على بابينا. نحب الإزعاج، حتى لا نشعر بأننا وحدنا.

ألصق حول الأحرف البيضاء صورًا لنجوم، "البوب".. "روبي وليامز" و"سوج بيبز" من فرقة "هوت زون" الجديدة. يعرف أبي أنه يسمع أغانيهم، ولكنه لا يجرؤ على مصادرة جهازه مشغّل الأسطوانات؛ فهو الشيء الوحيد الذي يسكته، بينما غير مسموح لي حتى أن أدخر لشراء واحد مثله.

- اشتري بما تدخرينه كتبًا.. هذا يليق بكِ أكثر.

قالها أبي، ففكرت.. يبدو أن كل ما هو "cool" ليس لي. وعلى كلٍّ، فإن أبي يعتبر كل أصناف الأغاني والموسيقى الجديدة، في الأسطوانات أو على الراديو، هذرًا فاسقًا. يفضل أن نسمع معه برنامج "ما يطلبه المستمعون" الذي نجده مملًا ويليق بالعجائز أكثر. دائمًا ما يسخر "أوبي" من ذلك البرنامج. هل من عاقل يتصل بالراديو حتى يطلب سماع الترنيمة الحادية عشرة؟! أفضل أن أجلس لأسمع "بيرت" و"إيرني" في "شارع سمسم"، فهما على الأقل يتناقران حول أمور طبيعية.. بشرية.. كما أن المناقرة بينهما تبث الهدوء في نفسي. عندئذ، أنسحب إلى أسفل غطاء فراشي، وأدير مشغل الأسطوانات خاصتي، وأنا أتخيلني قصاصة ورق بين تلك القصاصات التي يهوى "بيرت" جمعها.

- Klapaucius.

أهمس وأنا أفتح الباب برفق، ولكن يصدر عنه صرير على الرغم من ذلك. أرمق ظهر "أوبي" وهو جالس على الأرض ويرتدي البدلة الوقائية. يعلو صرير الباب وأنا أفتحه أكثر. يلتفت أخي نحوي. عيناه داكنتان، مثل اللافتة على بابه. أفكر فيما إذا كان عمر الفراشات سوف يبقى قصيرًا لو أنها أدركت أن في رفرفتها بأجنحتها موتها.

- كلمة السر؟

- Klapaucius.

- خطأ.

- لكنها كلمة السر، صحيح؟

أتحسس شوارب "ديفيرتحي" التي لا تزال في جيب معطفي. من حظي أن أمي لا تفرغ جيوبي أبدًا، وإلا لعثرت على كل ما أتوق للتعلُّق به.. الأشياء التي أجمعها حتى أكون أثقل.

- من الأفضل لكِ أن تأتيني بما يجعلني أفكر في السماح لكِ بالدخول.

يعود "أوبي" للانشغال بقطع الـ"ليجو". يبني سفينة فضاء كبيرة الحجم. أفكر للحظات، ثم أقول:

- "يحيا.. هتلر".

خيَّم الصمت للحظات. أراقب كتفيه وهما ترتجفان بينما يحاول أن يكتم ضحكاته.. ولكنه سرعان ما يضحك بصوت عالٍ. ارتحت عندما ضحك.. فالضحك علامة الرضا. دائمًا ما يغمز لي جزار القرية كلما ذهبتُ إليه لأشتري النقانق. أعرف من ذلك أنه استحسن اختياري، وأنني أتيت لأخلصه من النقانق التي صنعها بكل الحب والتي مزجها بجوزة الطيب.

- قوليها ثانيةً.. ومدي ذراعك إلى الأمام.

الآن، استدار "أوبي" بكامل جسده قبالتي. ومثل أبي، كان يفتح صدر البدلة الوقائية. وصدره الذي اسمرّ حديثًا.. مثل دجاجة تدور في سيخ شواء. تسري في الغرفة موسيقى "ذي سيمز" المألوفة. ومن دون تردد، أمد ذراعي أمامي بقوة وأهمس بالتحية مجددًا. يومئ أخي برأسه، فأدرك أنه وافق على دخولي الغرفة، ولكنه يعود للانشغال بالـ"ليجو". تتنوع أحجام المكعبات وأشكالها من حوله، وقد صنفها إلى أكوام متماثلة في اللون. كان قد فكك قلعة الليجو التي احتفظ بجثة السنجاب "تايسي" داخلها إلى أن فاحت رائحتها.

لا تزال رائحة الموت في غرفته حاضرة، لتمتزج برائحة جسد لم يستحم منذ مدة. هناك لفافة ورق تواليت على المنضدة المجاورة لفراشه، ومن حولها كثير من ورق التواليت المستعمل وقد تكور بلون مصفر. ألمسها وأشمها. لو أن للدموع رائحة، لما بكى أحد في السر. لم أجد أي رائحة فيها. بعض ورق التواليت لزج، وبعضه الآخر قاسٍ. ألمح طرفَ مجلة بارزًا من أسفل الوسادة. أجذبها؛ فأرى امرأة عارية على الغلاف.. نهداها مثل ثمرتي قرع عسل. تبدو متفاجئة في الصورة، وكأنها هي نفسها لا تدري لماذا تقف عارية، وكأن مجموعة ظروف اجتمعت عليها فوجدت نفسها هكذا أمام العدسة. وبالمثل، هناك أناس تباغتهم مثل هذه اللحظة، كما لو أنهم كانوا يتطلعون إليها طوال حياتهم ولكنهم تفاجؤوا بها عندما حلت بهم. أنا لا أعرف متى تحين لحظتي، ولكنني أعرف أنني لن أتخلى حينها عن معطفي. لا بدَّ أن هذه السيدة تشعر بالبرد، على الرغم من أنني لا ألحظ قشعريرة في ذراعيها.

أسارع بدس المجلة ثانيةً أسفل الوسادة. لم أرَ مثل هذه المجلة من قبل. لا تصل إلينا إلا مجلات الكنيسة والمزارعين وإعلانات متجر البقالة ومجلة الـ"جودو"، التي كان "ماتياس" مشتركًا فيها؛ ينسى أبواي إلغاء اشتراكها، ولا أدري إن كان ذلك عن عمد أو سهو، وهكذا يزورنا طيف موته صباح كل جمعة عند عتبة منزلنا. وربما لهذا السبب يخبط "أوبي" رأسه في حافة الفراش الخشبية؛ حتى يخرج شبح المرأة العارية من داخله، وحتى ينطفئ مثل قنوات التلفاز من دون كهرباء، وأنا متيقنة من أن أبي سيعرف على الفور في حال بقي شيء نجس داخل رؤوسنا.

جلست إلى جوار "أوبي" على السجادة. إنه يأسر أميرة بين أطلال قلعة الـ"ليجو". تضع الروج والماسكارا ولها شعر أشقر طويل يتجاوز كتفيها. يخاطبها "أوبي":

– سوف أقوم بتخصيبكِ.

يقترب بفارس "الليجو" من الأميرة ويحك جسده بجسدها، تمامًا مثلما يفعل الثور "بيلو" مع البقرات. أتجاهل رغبتي في وضع يديَّ على عينيَّ، فلا أحد هنا ليعرف ما إذا كنت أتلصص أم لا. قررت أن أترك العنان لرغبتي. أراقبه وهو يخرج من علبة "الليجو" علبة تونة نظيفة نحتفظ فيها بالعملات المعدنية وكل ما هو لامع؛ تفوح منها رائحة زيت السمك. يمد "أوبي" يده نحو الأميرة.

- خذي المال يا عاهرة.

نطقها بصوت أراده عميقًا. لاحظت أن نبرات صوته تتغير منذ الربيع، ولكنها لم تثبت على درجة بعينها.

- من العاهرة؟

- المزارعة.

رمق الباب، كأنه يتحقق من أن أبوينا لا يسمعاننا. أعرف أن أمي لا تعترض على عمل المرأة مزارعة، رغم أنها تجده عملًا يليق بالرجل أكثر. ألتقط فارسًا آخر من بين أنقاض أبراج القلعة. يدفع "أوبي" بالفارس نحو الأميرة مجددًا. لم تتبدد تعبيرات السعادة من وجهيهما. أهمس للأميرة:

- ما الذي أسفل فستانكِ يا أميرة؟

انفجر "أوبي" ضاحكًا. في نهاية كل ضحكة صوت مثل الزقزقة، وكأن طائرًا استقر في حنجرته.

- ألا تعرفين ما أسفل الفستان؟

- كلا.

أتأمل الأميرة من كل جانب. أنا لم أعرف إلا أن تحت ملابس الأولاد قضبانًا.

- ولكنَّ لديكِ واحدًا بالفعل.. لديك مهبل.

- وما شكله؟

- مثل كعكة الـ"كاسترد" الصغيرة.

ارتفع حاجباي في دهشة. أحيانًا ما يجلب أبي كعكات "كاسترد" من المخبز. وأحيانًا ما أجد بقعًا زرقاء في أسفلها، يتسرب منها الـ"كاسترد" الطازج، ولكنني أجد طعمها رائعًا. نسمع صياح أبي في الأسفل. صار من المألوف أن يصيح بين حين وآخر هذه الأيام، وكأنه يريد لنا أن ننصاع لكلماته بالقوة. يذكرني بعبارة من سفر "إشعياء": **"نَادِ بِصَوْتٍ عَالٍ. لاَ تُمْسِكْ. اِرْفَعْ صَوْتَكَ كَبُوق وَأَخْبِرْ شَعْبِي بِتَعَدِّيهِمْ، وَبَيْتَ يَعْقُوبَ بِخَطَايَاهُمْ"**.. أي تعدٍ يتحدث عنه؟

- ما مرض جنون البقر؟

- مرض يصيب الأبقار.

- وماذا يحدث لها؟

- لا بدَّ عندها من التخلُّص من القطيع بأكمله.

قالها ببرود. لاحظت أن الشعر في قمة رأسه لزج مقارنة بذاك الذي عند جبهته، مثل علفٍ أخضر متبن. لا أعرف كم مرة لامس فيها قمة رأسه، ولكنني أعرف أنه قلق.. هذا واضح عليه.

أشعر بسخونة في صدري، وكأنني تجرعت للتو كوب كاكاو ساخن. يقلب أحدهم الكاكاو الساخن في صدري، فيصنع دوامة في قلبي؛ أسمع صوت أمي وهي تأمره أن يتوقف عن التقليب، وأتخيل البقرات وهي تختفي واحدة تلو الأخرى في تلك الدوامة مثل كتل كاكاو صغيرة تذوب في الحليب. أبذل جهدًا لأركز كل تفكيري في أميرة "الليجو". لديها كعكة "كاسترد" مخفية أسفل فستانها، ومسموح لـ"أوبي" بأن يلعق الـ"كاسترد" منها.

- ولكن لماذا؟

- لأنها صارت مريضة.. ستموت في كل الأحوال.

- هل هو مُعدٍ؟

يتأمل "أوبي" وجهي، وقد ضاقت عيناه مثل حدُ البَلْطة، نبتاعها لأجل الجارة "ليان" حتى يتسنى لها تقطيع الخشب:

- لو كنت مكانك، لانتبهت إلى أماكن وجودي هذه الأيام.

عندئذ، أقبض بيدَي على رُكبتيَّ، في محاولة لكبح جماح جسدي الذي أخذ يتأرجح في عصبية شديدة. أتخيل أمي وأبي وقد استحالا قطعتين من قطع الـ"ليجو" بلون أصفر. لسوف يكونان في ورطة كبيرة لو أن جميع الأبقار ماتت، ولو أن أحدًا لم يأتِ ليخلصنا منها واحدة تلو الأخرى.

بعد برهة، التحقت بنا "هانا". أحضرت لنا بضع حبات طماطم صغيرة، تحب أن تقشرها بأسنانها لتعري قلبها الأحمر الطري. أحب مراقبتها وهي تأكل حبات الطماطم بكل عناية وترتيب. عندما تأكل شطيرة، فإنها تبدأ بما في قلبها، ثم أطرافها المقرمشة، ثم ما تبقى من خبز طري. وعندما تأكل البسكويت المحشو بالكريمة، فإنها تكشط الكريمة أولًا بأسنانها ومن ثم تأكل البسكويت. تأكل على مراحل، وأنا أفكر على مراحل. في الوقت الذي همت فيه بدس حبة طماطم جديدة بين أسنانها، انفتح باب غرفة "أوبي" مجددًا وظهر وجه الطبيب البيطري. مرَّ زمن منذ آخر مرة كان فيها هنا، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يزال يرتدي المعطف الأخضر الخفيف ذا الأزرار السوداء، ويتدلى قفاز مطاطي من جيبه. هذه ثاني مرة يأتينا فيها بخبر شؤم:

- سوف يأتون لأخذ عينات في الغد. تعرفون أن عليكم التخلُّص منها، حتى تلك التي لم تسجلوها.

لدى أبي بضع بقرات لم يسجلها، حتى يتمكن من بيع كم إضافي من الحليب على راحته لأهل القرية ولأقربائه. ويحتفظ بعائد هذا البيع "غير الرسمي" في علبة على رف الموقد. يصرف منه في العطلات. ولكنني أحيانًا ما أراقب أبي وهو يفتح العلبة ويأخذ منها، وهو يظن أن لن يراه أحد. أعتقد أنه يأخذ ذلك المال ليدخره في مكان آخر إلى أن تحين اللحظة المناسبة لهروبه منا. "إيفا"، زميلتي في المدرسة، تفعل ذلك أيضًا، على الرغم من أنها لا تزال في

الثالثة عشرة من عمرها. ربما يبحث أبي عن عائلة تسمح له بلعق السكين بعد أن يضعها في برطمان شربات التفاح، وحيث لا يضطر إلى الصياح وغلق الأبواب بقوة، وحيث لا يهمهم إن فك زر البنطال بعد أن يشبع من الطعام، فيبرز ذلك الشعر الأشقر الأجعد من أسفل مكان الزر. وربما أمكنه هناك أن يختار ملابسه بنفسه؛ فأمي تضع له على الفراش ما ينبغي له أن يرتديه في كل صباح؛ ولو أنه اعترض فإنها تخاصمه النهار كله، أو تضيف صنفًا آخر إلى أصناف الأكل التي توقفت عن تناولها، وقد اعتادت أن تعلن عن ذلك بتنهيدة، وكأن الطعام هو الذي رفض أن تتناوله.

- إنها إرادة الرب.

ينظر الطبيب إلى كل منا بابتسامة لطيفة مشفقة.. ألطف من ابتسامة "بودويجن دي جروت".

- حاولوا أن تكونوا أكثر رفقًا بأبويكم.

أومأنا في طاعة؛ لكن شردت نظرات "أوبي" عند مواسير التدفئة في غرفته، يجفف فوقها بضع فراشات. أتمنى ألا يراها البيطري فيخبر أمي وأبي.

- عليَّ أن أعود إلى الأبقار.

أغلق الباب خلفه. تساءلت:

- لماذا لم يأتِ أبي ليخبرنا ذلك بنفسه؟

- لأنه مشغول باتخاذ التدابير اللازمة.

- وما هي؟

- إغلاق ساحة المزرعة، وإقامة كشك تعقيم وإدخال العجول، وتعقيم الأدوات وخزان الحليب.

- ألسنا من ضمن هذه التدابير؟

- طبعًا.. ولكننا داخل سور وقيد الحراسة منذ ولدنا. لا يمكن أن نقوم بأي شيء.

أجابني "أوبي"، ثم اقترب مني. أشم فيه عطر حلاقة أبي، وكأنه بذلك يقتبس من سطوة أبيه.

- أتريدين أن تعرفي كيف سيقتلون الأبقار؟

أومئ برأسي أن أجل، وأتذكر المعلمة التي نبهتني إلى أنني أتمادى في الاستغراق في خيالاتي الجامحة، وأن عليّ أن أجد لكل خيالاتي مسميات مناسبة في الوقت المناسب، وإلا مكث كل شيء وكل إنسان في داخل روحي. ذات يوم، سوف تنسحق روحي ويتكور جسدي على طياته، حتى لا أرى حينذاك إلا ظلامًا سرمديًا، تمامًا مثل الجوارب السوداء التي تجلب عليّ سخرية زميلاتي في الفصل، لأنني من رعايا الكنيسة الإصلاحية التي تأمرنا بارتدائها، على الرغم من أنني لم أطع ذلك الأمر ولو مرة في حياتي. يضغط "أوبي" بسبابته على جانب رأسه، وهو يقلد صوت رصاصة، ثم يجذب حبلًا معطفي بغتةً، ليختق

،هما عنقي. أحدق إلى عينيه للحظات، فأجد نظرة الكراهية نفسها التي كان ،ظر بها إلى السنجاب وهو يغرقه في الماء. أبتعد عنه سريعًا:

- مجنون!

- كلنا سنجن!

يتناول الـ"أيروس" من درج مكتبه، ويمزق غلافها قبل أن يدس جميع قطع الشوكولاتة في فمه دفعة واحدة، حتى تتحول جميعها في فمه إلى كتلة بنية كبيرة. لا بدَّ أنه سرقها من القبو.

تمنيت لحظتها أن يكون اليهود قد اختبؤوا في الوقت المناسب خلف خزانة أوعية صلصة التفاح.



الفصل السادس عشر



يحب أبي مشاهدة جنازات الغربان.

أحيانًا، يجد غرابًا نافقًا في حفرة السماد أو في أرض الحقل، فيعلقه من قدميه بحبل في أحد أغصان شجرة الكرز وما هي إلا ساعة أو أقل، حتى تتجمع غربان فوق الشجرة وتحوم حولها ساعات فيما يشبه التكريم لروح الفقيد. لن تجد مخلوقًا آخر يقضي في العزاء فترةً أطول من الغربان. وخلال ذلك الطقس، يبرز من بينها غراب، يبدو أكبر وأقوى من الباقين، وهو أعلاها نعيقًا. لا بدَّ أنه بمنزلة القس في وسطها. في سواد الغربان تباين جميل مع زرقة السماء الصافية. يعتبرها أبي طيورًا ذكية؛ فهي تستطيع العد، وتتذكر الوجوه والأصوات، ولا تنسى ثأرها ممن يؤذيها؛ ولكنها بعد تعليق واحد منها في الشجرة، صارت تحوم وتتنقل في أنحاء المزرعة دون أن تفارقها. تنظر من

مكانها إلى أبي وهو يتنقل ما بين المنزل وحظيرة الأبقار، جامدة ثابتة كأنها ألواح تصويب في ساحة تدريب على الرماية، وأعينها السوداء التي تحدق إلى صدره تشبه طلقتين اخترقتا لوح التصويب. أتحاشى النظر إلى الغربان. ربما تريد أن تنبهنا إلى أمر ما، أو هي في انتظار نفوق الأبقار. قالت جدتي بالأمس إن وجود الغربان في المزرعة نذير شؤم وموت. لذا، أعتقد أن الدور عليّ أو على أمي، ولا بدَّ أن هناك سببًا دعا أبي إلى أن يطلب مني أن أستلقي في ساحة المزرعة هذا الصباح حتى يتسنى له تحديد مقاس سرير جديد لي، ليصنعه من قاعدة خشب البلوط وألواح متبقية من "أوبي" بعد أن انتهى من بناء حظيرة لدجاجاته. أستلقي على البلاطات الباردة، وذراعيَّ إلى جواري، بينما أراقب أبي وهو يفرد مقياسًا شريطيًا من عند أعلى رأسي حتى أخمص قدمي، وأقول لنفسي: "لو أنه قطع أرجل سريري بالمنشار ورفع عنه المرتبة والأغطية، فيمكنه عندئذ أن يحوله إلى تابوت بكل سهولة، دون الحاجة إلى كل هذا العناء".

أريد أن أرقد على بطني في التابوت، بحيث تكون مؤخرتي هي البادية لكل من يود أن يلقي النظرة الأخيرة على تلك الفتحة بها، فهناك تكمن المشكلة التي أعانيها. لملم أبي الشريط. وكان قد أصر على ألا أنام في فراش "ماتياس" بعد "أن طفح الكيل بجوني الصغير". وقد بدا الشحوب عليَّ بدرجة لافتة، حتى صارت الجارة "ليان" تحضر لنا الكثير من ثمار اليوسفي مساء كل جمعة. بعضها ملفوف في ورق أبيض خفيف، مثلما يلفني معطفي. أتعمد حبس أنفاسي طوال الوقت حتى لا أستنشق أي جراثيم، وإلا اقتربت من "ماتياس". لم يمضِ وقت طويل قبل أن أنهار

أرضًا ويستحيل كل شيء حولي إلى مساحات من الثلج. ما إن سقطت أرضًا، حتى استفقت سريعًا، لأجد "هانا" تنظر إليَّ في قلق. تضع يدها الطرية على جبهتي مثل كمادة من قماش. لم أخبرها أن لا عيب في أن يغمى عليَّ، ولم أخبرها أنني وجدت في كل تلك المساحات الثلجية فرصة للقاء "ماتياس" بدلًا من لقاء الموت هنا في المزرعة. طافت الأبقار حولي وأنا راقدة في الساحة وأبي يدوّن السنتيمترات في دفتره الصغير.



وضعت أمي ملاءة نظيفة على المرتبة الجديدة، وهندمت وسادتي. ضغطت بقبضتها مرتين في منتصف الوسادة، حيث أضع رأسي. أنظر إلى فراشي الجديد وأنا جالسة إلى مكتبي. أفتقد السرير القديم من الآن، حتى ولو كان قصيرًا على قامتي، وحتى لو كانت أصابع قدميَّ تتجاوز حافته، وكأنني بين فكَّيْ ساحر شرير لا ينفك يحولني إلى قزم. ولكنني كنت أستريح إلى ذاك الإحساس، وكأن أحدهم وضع حدودًا حتى لا أنمو أطول. أما الآن، فلديَّ الكثير من المساحة التي تسمح لي أن أتقلب أو حتى أن أنام قطريًا في الفراش. ولكن سيجب عليَّ أن أصنع جزءًا هابطًا في قلب المرتبة مثل ذلك الذي كان في مرتبة "ماتياس". سأفتقد مقاس جسده.

تجثو أمي على ركبتيها عند حافة فراشي، وتسند ساعديها إلى اللحاف الذي التقط رائحة السماد من الرياح التي هبت بالعكس كعادتها هذه الأيام. قريبًا،

لن نشم رائحة الأبقار، حتى إنها سوف تختفي حتى من داخل رؤوسنا، فلا نبقى فيها إلا رائحة التوق وعبق غياب كل واحد منا. تربت أمي على اللحاف في رفق، تشير إليّ أن أقترب. أنهض في طاعة وأدخل تحت الغطاء، لأنام على جانبي حتى أرى وجه أمي. اللحاف المقلم بالأزرق بيني وبينها يجعلني أشعر أنها تبعد عني أميالًا وأميالًا. تقف عند نقطة ما على الجانب الآخر من البحيرة، وجسدها أعجف مثل دجاجة ماء تجمدت في قلب فجوة جليدية. أُقرِّب قدميَّ من يديْ أمي، فتجفل وتسحب يديها وكأنها تكهربت. هناك سواد تحت عينيها. أحاول أن أتبين مدى تأثير مصيبة جنون البقر فيها، لأعرف ما إذا كانت الغربان قد تجمعت لأجلها، أم لأجلي؟!

"لا تضعفوا أمام الشر، بل تغلبوا على الشر بالخير".

هكذا وعظ الأب "رينكيما" خلال قداس الصباح. كنت أجلس مع "هانا" وأطفال آخرين من القرية بالقرب من الـ"أورغن" عند الـ"درابزين". ومن مكاني فوق، رأيت أبي يقف بين بحر القبعات السوداء التي بدت لي في الأسفل مثل بياض البيض الفاسد والذي أصبح لون قشرته أسود لأن أحدًا لم يجمعه من الأعشاش. يبدو أن بعض الأطفال من حولي كانوا منسيين في أعشاشهم أيضًا، فقد جلسوا بوجوه ناعسة يحدقون في شرود.

تلفت أبي حوله، وهو يتجاهل أمي التي كانت تجذبه في ضعف من طرف معطفه الأسود الثقيل، ثم صاح:

- هؤلاء القساوسة هم سبب ذلك المرض.

خيَّم صمت مميت على أرجاء الكنيسة. نظر الكل إلى أبي، ونظر الأطفال إليَّ وإلى "هانا". أخفيت وجهي بياقة معطفي، وشعرت ببرودة سحَّابه على ذقني.

ما لبثت وقد شعرت بالراحة عندما بدأ عازف الـ"أورغن" في عزف المزمور الحادي والخمسين، فينهض كل من في الكنيسة على قدميه، ويسقط احتجاج أبي بين الفرويين مثل كتلة زبد في قلب بياض بيض، وتتلاشى أصداء همسات جماعية. لم تمضِ دقائق، حتى كانت أمي تخرج مسرعة باكية من القاعة، وقد تأبطت كتاب الترانيم. لكزتني "بيل"، وهي تقول:

- أبوكِ مجنون.

لم أرد عليها، وأنا أتذكر المعتوه بطل أغنية الصغار، الذي بنى منزله فوق الرمال، فهطل المطر وتدفق الفيضان وانهار المنزل في غمضة عين. يبني أبي كلماته على رمال-غارقة في المطر. كيف له أن يلوم القس؟ ألا يُحتمل أن نكون نحن السبب؟ ربما هو وباء؛ وهم هنا لا يعتقدون أن الوباء ظاهرة طبيعية، بل نذير وعقاب.

بدأت أمي تغني بصوت هادئ:

- أعلى من السماوات الزرق ومن النجمات الذهبية، هناك الرب في علاه؛ الذي يرعى في كنفه "ماثياس" و"ياس" و"هانا".

لم أغنِ معها، بل انشغل بالي بالدلو أسفل مكتبي. تعتقد أمي أن الضفادع مخلوقات قذرة. وتقوم أحيانًا بجمعها بالمقشة والجاروف لتلقي بها في حفرة السماد مثل قشر البطاطس. كما أن الضفادع لا تساعد كثيرًا على تغيير هذه الفكرة عنها. فهي تبدو مستفزة، وجسدها ينشف ويجف، وتمضي الكثير من الوقت في مكانها لا تبارحه، وقد أغمضت عينيها؛ ربما هي تصلي ولكنها لا تعرف كيف تنهي صلاتها، مثلما أعجز أنا عن إنهاء أي حوار. عندما لا أجد كلامًا أكتفي بتحريك قدمي والنظر أمامي في صمت، حتى لا يجد من يتكلم معي بدًا من الرحيل بعيدًا عني. أتمنى ألا تأتي اللحظة التي أضطر فيها إلى "توديع" الضفدعين، ولكنها قادمة حتمًا، طالما أنهما لا يأكلان.

توقفت أمي عن الغناء، لتضع يدها في جيب منامتها الوردية وتخرج شيئًا في لفافة فضية.

- آسفة.

- لِمَ؟

- على النجوم.. على هذا المساء.. إنها الصدمة بسبب الأبقار.

- لا يهم.

أتناول اللفافة. فطيرة "كرومبيت" صغيرة مغطاة بجبن الكمون. الجبن دافئ من مكوثه طويلًا في جيب منامة أمي. تراقبني أمي وأنا أقضم منها.

- أجدكِ غريبة.. أنتِ ومعطفك هذا.

أعرف أنها تقول ذلك بعد أن تحدثت الجارة "ليان" معها بشأنه، وقت أن جاءت لتطمئن على أبقارنا، وعلينا أيضًا. حتى البيطري.. تحدث عن المعطف مع أمي. وعندما جاءت بعد قليل بعد إطعام العجول، صعدت على السلم الموجود في منتصف المطبخ والذي لا تستخدمه عادةً إلا في إزالة شباك العنكبوت. كانت تخاطب كل شبكة بها عنكبوت، "ابتعدي عنا، أيتها العانس العجوز". إنها الدعابة الوحيدة التي تلقيها أمي، لكننا ما زلنا نسعد بها مثل حشرة عالقة في وعاء مربى. ولكنها هذه المرة لم تصعد السلم للتخلُّص من عنكبوت، ولكن لتخرجني من الشبكة التي نسجتها هي بنفسها.

- سوف أقفز من هنا.. إن لم تخلعي معطفك فورًا.

وقفت فوقي عاليًا في تنورتها السوداء الطويلة، وعقدت ذراعيها أمام صدرها، وفي شفتيها حمرة من الكرز؛ أحد الأشياء القليلة التي لا تزال تأكلها؛ فبدت أشبه بجسد عنكبوت التصق بورق حائط أبيض نقي. حسبت المسافة حتى نقطة سقوطها على الأرض. أهي مسافة تكفي لكي تموت؟ يقول القس إن الشيطان يخشى القرية لأننا أقوى من شره. ولكن.. أهذا صحيح؟ أنحن أقوى من الشر؟

دفعت قبضتي في بطني لأهدئ إحساس الطعنات المؤلم، وشددت عضلات أردافي، كما لو كنت أحاول منعي من إطلاق الريح. لم يكن مجرد ريح، بل عاصفة.. اجتاحتني. وكما هي الأعاصير في الأخبار، كان لإعصاري اسم؛ سميته الروح القدس. اجتاحني الروح القدس والتصق إبطيَّ ببطانة معطفي. لسوف أمرض من دون هذا الغلاف الذي يحميني. تجمدت في مكاني، وأنا أواصل النظر إلى أمي، في خفها اللامع، واقفة على درجة السلم الملطخ ببقع الطلاء.

- سوف أعد حتى عشرة.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة..

كان صوتها يتخافت، وصورة المطبخ ترتبك، بينما أعجز عن رفع يدي نحو سحَّاب المعطف. ثم.. سمعت صوت ارتطام جسد بالأرض، عظام تنسحق مكتومة، ثم صرخة. ثم.. امتلأ المطبخ بأناس يرتدون معاطف من كل شكل ولون. شعرت بيدي البيطري على كتفيَّ، كأنهما رأسا عجلين، وهو يخاطبني بكلمات هادئة مطمئنة. وشيئًا فشيئًا.. ارتد إليَّ بصري.. وحدقت إلى أمي، التي تكومت في قلب عربة اليد، التي استخدمها أبي في نقل الفاصولياء التي فسدت إلى حفرة السماد. دفع "أوبي" العربة منطلقًا عبر ساحة المزرعة صوب عيادة طبيب القرية. لمحت بعض الغربان تطير نحو كبد السماء؛ بدت بين دموعي مثل خيوط "ماسكارا" ذابت على وجه فتاة. رفض أبي أن ينقلها في "الفولكس فاجن".

- لا أحد يعيد حبات يوسفي فاسدة إلى الخضري.

كان يقصد أن الذنب ذنبها. ورأيت أن وقتًا طويلًا لن يمر قبل أن ننقلها في عربة اليد نفسها إلى مستقرها الأبدي. بقي أبي صامتًا بقية المساء. قبع في مكانه أمام التلفاز، وفي يده كأس "جينيفر"، وفي الأخرى سيجارة. تتزايد أعداد الثقوب في البدلة الوقائية بسبب أطراف السجائر المشتعلة التي يضعها على طرف ركبته في أثناء بحثه عن مطفأة، وكأنما تلك الثقوب تنقذه من الموت مختنقًا داخل البدلة الوقائية.

اصطحبني البيطري، الذي صرنا نراه عندنا كثيرًا منذ انتشار جنون البقر، مع "هانا" في سيارته لنتجول في القرية. الجلوس في سيارة ألطف طريقة للجلوس ساكنة؛ كل ما حولك يتحرك ويتغير وأنت تتأمله من دون أن تضطر إلى أن تجاريه في الحركة. نصل إلى حيث حقول اللفت، ونجلس هناك على بساط لنراقب الحصادة وهي تقتلع النباتات من جذورها. تلقي بالبذور السوداء في حاوية كبيرة. يشرح لنا البيطري أنهم سوف يصنعون منها زيوت المصابيح وعلف الحيوانات ووقودًا حيويًا والسمن. يطير من فوقنا سرب إوز. يتجه صوب الجانب الآخر. توقعت للحظة أن تهوي من السماء، مثل المن، وتحط عند أقدامنا وقد تكسرت رقابها، ولكنها واصلت مسيرتها، أبعد وأبعد، حتى غابت عن ناظري. التفتُ إلى "هانا" ولكني وجدتها مستغرقة في الكلام مع البيطري عن المدرسة. كانت قد خلعت حذاءها وجلست على البساط في جوربها المخطط الطويل. تمنيت لو أمكنني أن أخلع حذائي الأخضر بدوري، ولكنني خفت. قد ينهشني مرض حينئذ، من كل ناحية، مثل اللصوص، حتى

،لو استهانت أمي وأبي بالأمر؛ يكتفيان بإغلاق الباب الأمامي حين يغادران المنزل، على اعتقاد بأن الباب الخلفي لا يدخل منه إلا من يعرفانه.

لم نأتِ ولو مرة واحدة على ذكر ما جرى في المنزل. ولم تكن هناك من كلمات نكفي للتخلُّص من الخوف، تمامًا مثل طريقة الحصادة في قطع النباتات بشفراتها بحيث لا تترك سوى البذور التي يمكن استخدامها. تأملنا غروب الشمس في صمت، وفي طريق العودة، اشترينا كيس رقائق البطاطس من أحد الأكشاك. أكلناها ونحن في السيارة.. تجمَّع البخار على نوافذنا. كادت عيناي تدمعان، إنها أوَّل مرة لا أشعر فيها بالوَحْدة، حتى ولو إلى حين؛ وجدت أن رقائق البطاطس توحد الناس بأكثر مما يفعل أي صنف طعام آخر.

بعد ساعة، كنا في الفراش وقد تلطخت أيدينا بأثر البطاطس، وبرائحة المايونيز، بعد أمسية ملأها الأمل على الرغم من كل ما يدعو إلى اليأس. أشبعتني البطاطس، ولم أجد رغبة في تناول فطائر الـ"كرومبت". ولكنني لم أشأ أن أحزن أمي، لذا تناولت قضمة منها. ما زلت أراها في مخيلتي داخل عربة اليد، وقد تدلت قدمها المصابة فوق حافتها. و"أوبي".. الذي تفاجأ بما كان عليه من خوف، حتى تمنيت أن أهدهده. في الإصحاح الثاني عشر من رسالة "بولس الرسول" إلى أهل "رومية": **"وَلكِنْ لَنَا مَوَاهِبُ مُخْتَلِفَةٌ بِحَسَبِ النِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لَنَا: أَنُبُوَّةٌ فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الإِيمَانِ، أَمْ خِدْمَةٌ فَفِي الْخِدْمَةِ، أَمِ الْمُعَلِّمُ فَفِي التَّعْلِيمِ، أَمِ الْوَاعِظُ فَفِي الْوَعْظِ، الْمُعْطِي فَبِسَخَاءٍ، الْمُدَبِّرُ فَبِاجْتِهَادٍ،**

"الرَّاجِمُ فَبِسْرُور".. أنا لا أعرف ما هي موهبتي؛ فلربما كانت في الصمت والاستماع. وهذا ما فعلت. سألته فقط عن حال الـ"سيمز" في لعبة الفيديو. وعما إذا كانوا قد تبادلوا القبلات بالفعل، ولكنه عزل نفسه في غرفة نوده. أدار الألبوم الجديد لفرقة "هوت زون" بصوت عالٍ، حتى إنني كنت أغني معهم همسًا. لم يطلب أحد منه أن يخفض الصوت.

تفسد أمي يومًا بعد يوم، مثل حبات الفاصولياء التي كانت متجمدة. أحيانًا ما تترك الأشياء تسقط من يدها ومن ثم تلومنا نحن. صليت للرب خمس مرات في اليوم. وفي آخر صلاتين، أبقيت عينيَّ مفتوحتين حتى لا يفوتني شيء من حولي. أتمنى أن يتفهم الرب ذلك؛ تنام الأبقار وقد تركت عينًا واحدة مفتوحة حتى لا تُباغت بهجوم. صرت أسيرة الخوف من هجوم مباغت ليلًا.. بدايةً من البعوض.. وانتهاءً بالرب.

تحدق أمي بعينين شاردتين إلى لحاف الفسفوري. عجزت عن ابتلاع قضمة من فطائر الـ"كرومبت". لكنني لا أريدها أن تحزن وأن أكون أنا السبب في حزنها. لا أريدها أن تصعد سلم المطبخ من جديد، وإلا سوف تعتاد ذلك وسوف يسهل عليها الوصول إلى ذلك الحبل أو الصعود فوق صومعة الغلال. يقول "أوبي" إنها مِيْتَة لا تستغرق وقتًا؛ الانتحار شنقًا هو الذي يستغرق وقتًا، لأن الأفكار كلها تنهش عقلك في تلك اللحظة. وتظل تفكر. ولكن التفكير لا يستغرق منا في الكنيسة سوى الوقت اللازم

ادوبان حبتي نعناع في أفواهنا. وإن لم يمنعها خوفها من الارتفاعات هذه المرة، فلن يمنعها وهي فوق الصومعة. قلت لها، والقضمة لا تزال في فمي:

- ظلام شديد هنا.

تنظر أمي إليَّ في أمل، فأتذكر دفتر الصداقة لدى "بيل". كانت أمي قد شطبت على إجابتي عن سؤالها "ماذا تريدين أن تكوني؟"، وكتبت بدلًا منها.. "مسيحية متدينة". لم يهتم أحد بحقيقة أن جسدي كان ينمو بينما عليَّ أن أجيب عن سؤالها.. "ما طولكِ بالسنتيمتر؟".. ولكنني تساءلت عما إذا كنت مسيحية متدينة بالفعل، أم لا. ربما عليَّ أن أقدم لأمي ما يبعث البهجة في روحها مجددًا.

- ظلام؟ أين الظلام؟

- في كل مكان.

أخيرًا ابتلعت القضمة. تنير أمي الكرة الأرضية جوار فراشي، وهي تتظاهر بأنها تزيح الظلام عن غرفتي، وتتحرك بقدمها المتورمة المغطاة بالضمادات، وقد أحكمت رباط منامتها. كانت لعبة اعتدنا أن نلعبها أيام كان "ماتياس" على قيد الحياة، ولم أكن قد مللت إطلاقًا من هذه اللعبة.. إطلاقًا.

- أيها الدب الكبير.. الدب الكبير! لا أستطيع النوم من الخوف!

أنظر ، ن بين أصابعي فأراها تتجه إلى النافذة، وتفتح الستائر وهي تقول:

- انظري.. جلبت لكِ القمر. القمر وكل النجوم. هل يرغب الدب فيما هو أكثر من ذلك؟

الحب.. يرغب في الحب.. مثل ذلك الدفء الذي يحتضن حظيرة الأبقار التي يجمع بينها هدف واحد.. العيش. أرغب في صدر دافئ أسند رأسي إليه، تمامًا كما تفعلين وأنتِ تحلبين البقرات. أرغب في كل ذاك الحب الذي تبديه البقرات وهي تمد ألسنتها لتتاول ما تعطيه لها من جذور الفجل.

- لا أرغب في شيء.. أنا دب سعيد.

أقبع في سريري حتى يتوقف صرير الخشب تحت قدميها، ومن ثم أقوم لأغلق الستائر، وأنا أفكر في منقذي حتى ينقشع ذلك الإحساس المؤلم في بطني، ليحل محله إحساس التوق، من النوع الذي لا يجيد التعبير عنه سوى الطيور. ألاحظ أن سريري يصدر صريرًا مع كل حركة لي، وهو ما يعني أن أبويَّ سيعرفان كل ما أقوم به في الليل. لذا، أقف فوق المرتبة، لألف الحبل المتدلي من عارضة السقف حول عنقي. لكنني أجده واسعًا للغاية. وأعجز عن تحرير العقدة، فهي معقودة منذ أمد بعيد.. فأحيط عنقي به مثل وشاح وحسب، لأستشعر خشونته على جلدي. أتخيلني وأنا أختنق ببطء، وأتخيلني أرجوحة تقوم بكل حركة متوقعة منها، وأتخيلني والحياة تنسحب من داخلي، فأجده إحساسي نفسه وأنا راقدة على الأريكة بأرداف عارية.. في انتظار إقحام قطع الصابون بداخلها.

الفصل السابع عشر



- هذا تكريس.

قلت لـ "هانا"، التي تجلس على مرتبتي الجديدة واضعة ساقًا فوق الأخرى. على صدر منامتها رأس "باربي". ذات شعر أشقر طويل وشفاه وردية. تآكل نصف وجهها، تمامًا مثل دمى "باربي" القابعة على حافة الحمام. محونا ابتساماتها بالليفة وقليل من الصابون. لم نكن نريد أن نعطي أمي الانطباع بأن هناك ما يستدعي الابتسام هنا، خصوصًا الآن، بعد أن مرضت الأبقار.

- وما التكريس؟

عقصت شعرها على شكل كعكة. لا أحب الشعر وهو على هذا الشكل؛ أشعر أنه منجذب بشدة، كما أن الرجال يصفونها ساخرين بأنها "جوارب سوداء"، ربما لأن كعكات شعر النساء في الكنيسة تبدو تمامًا مثل الجوارب الملفوفة.

- إنه طقس يقوم به من يرحب بشخص ما أو شيء ما. ولأن فراشي جديد، ولأن هذه هي أول ليلة له هنا.

- حسنًا.. ماذا عليّ القيام به إذًا؟

- لنبدأ بالترحيب به.

أزيح خصلات شعري خلف أذني، وأصيح بصوت واضح:

- مرحبًا بك أيها الفراش.

أضع يدي على الملاءة، وأنا أردف:

- الآن نبدأ الطقوس.

أستلقي على بطني فوق المرتبة وجانب رأسي تحت وسادتي، حتى يتسنى لي النظر إلى "هانا" كي أخبرها أنها أبي وأنا أمي.

- بالتأكيد.

ترقد على بطنها إلى جواري. أسحب الوسادة فوق رأسي، وأدس أنفي في المرتبة. تفوح من السرير رائحة متجر الأثاث، حيث اشترتها أمي وأبي.

.الحة حياة جديدة. تقلدني "هانا". نرقد في سكون للحظات مثل غرابين
.ـلطا برصاص بندقية. لا يتكلم أيٌّ منا، حتى أبعد وسادتي عني وأنظر
إلى "هانا". تتحرك وسادتها في هدوء لأعلى ولأسفل مع أنفاسها. هذه
المرتبة سفينة.. سفينتنا.. **"فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى تَهَدَّمَتْ خَيْمَتُنَا الأَرْضِيَّةُ
الَّتِي نَسْكُنُهَا الآنَ، يَكُونُ لَنَا بِنَاءٌ مِنَ اللهِ: بَيْتٌ لَمْ تَصْنَعْهُ أَيْدِي
الْبَشَرِ، أَبَدِيٌّ فِي السَّمَاوَاتِ".** تذكرت هذه الآيات من "رسائل بولس
الرسول إلى أهل كورنثوس". التفت إلى "هانا" وهمست لها:

- من الآن فصاعدًا، ستكون هذه قاعدة عملياتنا، وملاذنا الآمن. كرري
.معي: عزيزي السرير، نحن، "ياس" و"هانا" - الأم والأب - يسعدنا
.ترئيسك في عالم الخطة السرية. كل ما يقال هنا يبقى هنا. وأنت من الآن
فصاعدًا واحد منا.

تكرر "هانا" الكلمات، بصوت مثل التمتمة، لأنها مستلقية ووجهها في
المرتبة. أستشعر من صوتها أنها لم تجد أي إثارة في هذا الطقس، ولن يمر
وقت طويل قبل أن تمل وترغب في لعب لعبة مختلفة. على الرغم من أن
هذه ليست لعبة، بل هو أمر جاد وخطير.. للغاية.

وحتى أنبهها إلى جديته، أضع يدي على الوسادة التي تغطي قفاها، ثم
أجذبها من طرفيها وأضغط بقوة. تبادر "هانا" بمحاولة تخليص
جسدها، وتتوتر أطرافها، مما يعني أنه عليَّ بذل المزيد من القوة. تشوح

بيديها في كل جهة، حتى تجد معطفي فتتشبث به. أنا أقوى منها؛ ولن تستطيع التملص مني.

- هذا طقس تكريس. وعلى كل من يعيش هنا أن يجرب إحساس الاختناق والاقتراب من الموت، تمامًا كما جرى مع "ماتياس".. الاقتراب من الموت. عندئذ.. وعندئذ فقط.. نصير صديقتين.

أرفع الوسادة، فأجد "هانا" تبكي، وجهها في حمرة حبة طماطم، تلهث بحثًا عن ذرات الهواء.

- كدت أختنق أيتها الحمقاء.

- هذا جزء من التكريس. هكذا تعرفين الآن شعوري في كل ليلة، والآن يعرف السرير ما يمكن أن يحدث.

أحتضنها وألثم وجنتيها حتى تجف الدموع من عليهما، بينما أتذوق ملوحة خوفها.

- لا تبكي، أيها الرجل الصغير.

- لقد أخفتني، أيتها المرأة الصغيرة.

•

وشيئًا فشيئًا، أحك جسدي في جسدها، كما أفعل مع دبي، وأنا أهمس في أذنها:

- قد تطول ساعات نهارنا إن صرنا أكثر جرأة.

تزداد سخونة جسدي، لتواكب سرعة حركاته؛ ويلتصق معطفي بجلدي. ولا أتوقف إلا حين أدرك أن "هانا" تتعس. لا وقت للنوم الآن. أعتدل في جلستي على الفراش مجددًا.

- أختار البيطري.

أقولها فجأة، بنبرة حاسمة. خيمت لحظة صمت.

- إنه طيب ويعيش على الجانب الآخر، كما أنه استمع إلى الكثير من القلوب.. الآلاف منها.

تومئ "هانا" برأسها، وكذلك تفعل رأس "باربي" على صدرها. تقول:

- بالفعل.. طموح "بودوينجن دي جروت" أكبر بكثير من بنتين مثلنا.

أجهل ما تعنيه بهذا.. بنتين مثلنا. ما الذي يجعلنا على ما نحن عليه؟ كيف يمكن للناس أن يعرفوا بمجرد النظر إلينا أننا جميعًا من عائلة "مولدر"؟ أعتقد أن هناك الكثير من البنات مثلنا، لكننا لم نلتقيهن بعد. في كل يوم، يجتمع آباء وأمهات. وبما أن في داخل كل إنسان أبًا أو أمًّا، فيمكنه الزواج في نهاية المطاف.

ما زال لغزًا بالنسبة إليَّ أن أعرف كيف التقى أبي وأمي. من ينظر إلى أبي يدرك ألا نفع منه. يبحث عن الشيء طويلًا ثم يكتشف أنه كان في جيبه منذ

البداية، وعندما يذهب إلى التسوق يعود دائمًا بأشياء غير المكتوبة في القائمة؛ أما أمي فهي مختلفة عن بقية النساء، ولكنه سعيد معها.. وهي سعيدة معه، نوعًا ما. لم يخبرانا قطُّ عن حكاية لقائهما، ولكن أمي لم تعبر يومًا عن سعادتها بذلك اليوم. نادرًا ما نمر بأوقاتٍ سعيدةٍ هنا، وحتى إن مررنا بها، فنحن لا ندرك ذلك إلا بعد أن تكون قد انقضت. أحس أن الأمر معهما كان كما يحدث بين الأبقار؛ فذات يوم، فتحت الجدة والجد باب غرفة نوم أمي وأقحما أبي داخلها.. ليكون معها مثل الثور مع البقرة. ومن ذلك اليوم، صار أبي يسميها "زوجتي" وصارت أمي تسميه "زوجي". وفي الأيام السعيدة، تناديه "صغيري" ويناديها "صغيرتي"، فأستغرب ذلك، كما لو كانا قلقين من أن ينسيا جنس بعضهما بعضًا، أو أن كلًّا منهما ينتمي إلى الآخر.

كذبت عليّ "بيل" وأنا أحكي لها عن كيف التقيا. أخبرتها أنهما التقيا مصادفةً عند قسم السَّلطة الروسية في محل البقالة، واختار كلاهما نوع السلطة نفسه باللحم البقري، وتلامست أيديهما للحظات عند واجهة العرض. تقول معلمتنا إن نظرات العيون ليست ضرورية للوقوع في الحب، فلمسة واحدة تكفي. وتساءلت عندئذ.. ماذا نسمي إذًا تلك الحالة التي لا يكون فيها أي تواصل؛ لا بالعينين ولا باليدين؟

وعلى الرغم من أنني أعتقد أن هناك بناتٍ مثلنا، فإنني أومأت لـ"هانا". ربما لا تفوح من أجساد تلك البنات رائحة الأبقار طوال الوقت.

، رائحة غضب آبائهن ودخان سجائرهم، ولكن ربما هناك شيء يمكنهن القيام به حيال ذلك.

أضغط بيدي للحظات على عنقي. ما زال بإمكاني أن أشعر بالحبل على ما دي، وأتذكر مشهد سلم المطبخ المتأرجح والسقوط، وعندها يزداد شعوري ،مشدودة الحبل وإحكامه؛ عقدة مزدوجة أسفل حنجرتي. يبدو أن كل شيء ،يولف تمامًا تحت العنق، تمامًا مثل سقوط شريط الضوء المنبعث من المصابيح الأمامية لجرار أبي الآن على لحافي. نسمعه في الخارج وهو ينثر .روث البقر في الحقول. وعليه أن يفعل ذلك سرًّا، لأنه لم يعد مسموحًا لأحد ..ر روث البقر، بعد انتشار المرض. ولكننا لا نعرف ما الذي يفترض أن ... بروث البقر خلاف ذلك. غاصت الألواح الخشبية فوق حفرة السماد، ..ي تجري فوقها عربة اليد، لأسفل كثيرًا، فلم يعد هناك مزيد من السماد. ..ال أبي إن أحدًا لن يلاحظ أنه نشر السماد عبر أرض الحقول ليلًا. حتى إن ..مثلًا لشركة الماشية أتانا مرتديًا بدلة بيضاء، وأحضر العشرات من الصناديق المليئة بسم الفئران الأزرق حتى ننثره في جميع أنحاء المزرعة ومن ..ثمَّ لا تستطيع الفئران نشر مرض جنون البقر. يجب أن أبقى و"هانا" مستيقظتين. يجب ألا يغيب أبي عن أبصارنا. يتحرك شريط الضوء من طرف قدمي إلى ما تحت ذقني قبل أن ينحسر ثانية، ومن ثم يعود بعد فترة.

- حادث جرار أم السقوط في حفرة عميقة؟

تهتم "هانا"، وتقترب مني تحت اللحاف. تفوح من شعرها الداكن رائحة العلف الأخضر. أتنفس الرائحة بعمق للحظة وأنا أفكر في عدد المرات التي شتمت فيها الأبقار، ولكنها الآن على شفا الموت، وأتمنى بشدة أن تبقى بيننا؛ وأتمنى ألا تذهب فيخيم الهدوء القاتل على المزرعة، ولا يبقى من مخلوق يتابعنا بنظراته إلا تلك الغربان. تقول "هانا":

- جسدك بارد مثل رغيف خبز في المبرِّد.

تضع رأسها على ذراعي. لا ترغب في مجاراتي في اللعبة. ربما تكون قلقة من أن يتحقق شيء مما تقول. كما هو الحال في لعبة "لينجو"، حيث نتمكن من التنبؤ سابقًا بمن سيتناول الكرات الخضراء المحظوظة ليفوز بالجائزة الكبرى، لذا فمن الممكن أن نتنبأ بالموت.

- رغيف عيش بارد أفضل من كيس فاصولياء فاسد.

نضحك، وقد سحبنا اللحاف إلى ما فوق رؤوسنا، حتى لا توقظ ضحكاتنا أمي. عندئذ، أنقل يدي من عنقي إلى عنق "هانا". إنه دافئ. أتلمس فقراته عن طريق بشرتها.

- أنتِ أقرب إلى الهيئة المُثلى مني، أيتها المرأة الصغيرة.

- لأجل ماذا، أيها الرجل الصغير؟

- لأجل أن تجدي من ينقذك.

دفعت "هانا" يدي بعيدًا عنها. على العكس من كلامي.. الهيئة غير المثالية والضعف والهشاشة، هي الصفات التي تستدعي الإنقاذ.

- هل نحن هشتان؟

- هشتان مثل قشة.

أدركت فجأةً حقيقة ما يجري. أصبح كل عنصر من الماضي القريب في موضعه الصحيح، وانتبهت إلى أننا كنا هشتين طوال الوقت.

- هذا وباء مثل الأوبئة التي وردت في سفر "الخروج".. هذا أكيد. ولكن ترتيبها الآن مختلف. أتفهمين كلامي؟

- ماذا تقصدين؟

- اسمعي.. لقد أصبت بنزيف في الأنف.. وهو رمز للماء الذي تحول إلى دم. وكانت هناك هجرة الضفادع، ثم قمل الرأس في المدرسة، ثم موت المولود البكر، ثم الذباب حول كومة السماد، ثم الجرادة التي سحقها "أوبي" بحذائه، ثم قرح على لساني بسبب البيض المقلي، ثم عواصف البرد.

- أتظنين أن هذا هو سبب وباء الأبقار الآن؟

تتساءل "هانا" مصدومة. وضعت يدها على قلبها، فوق أذنَيْ "باربي" تمامًا، كما لو أنها لا تريد للصورة أن تسمع كلامنا. أومأتُ برأسي ببطء.

بعد ذلك، تتبقى علامة واحدة.. وهي الأسوأ.. الظلام.. الظلام التام.. حم
يرتدي النهار معطف أبي الأسود للأبد. لم أتفوه بذلك، لكننا ندرك أ
هناك شخصين في هذا المنزل يتوقان باستمرار للانتقال إلى الجانب الآخر
ويريدان عبور البحيرة وتقديم النذور هناك، سواء أكانت حبات سكاكر
"فايربول" أم جثث حيوانات ميتة.

ينقطع صوت الجرار. وأشغُل ضوء الكرة الأرضية على منضدة سريري
لأطرد الظلام، الآن بعد أن توقفت مصابيح الجرار عن طرده من غرف
نومي. انتهى أبي من نشر السماد. أتخيله في البدلة الوقائية، وهو يقف
ليتأمل المزرعة من بعيد. الضوء الوحيد الذي يسطع في مقدمة مشهد
المزرعة، من النافذة بيضاوية الشكل المضاءة كما لو أن القمر هبط تماً
على الأرض. عندما ينظر إلى المزرعة، يرى ثلاثة أجيال من المزارعين. كانت
تخص الجد "مولدر" الذي تولى أمرها من والده. وبعد موت الجد، عاشت
العديد من أبقاره. اعتاد أبي أن يروي في كثير من الأحيان قصة إحدى
أبقار الجد التي كانت تعاني أيضًا جنونَ البقر ولا تشرب الماء. يقول:

- اشترى برميلًا من سمك الرنجة ودس سمكة سمكة في فم البقرة
المريضة. وعلاوةً على البروتين الذي تحصلت عليه، صارت البقرة عطشانة
جدًّا، حتى إنها تغلبت على ألم البثور في فمها وبدأت تشرب مرة أخرى.

ما زلت أعتقد أنها قصة جميلة. ولكن لا يمكنك علاج بثور اللسان
بالرنجة الآن؛ لقد نفقت أبقار الجد أيضًا. وكذلك سوف تُسلب حياة أبي

، ،إنها دفعةً واحدة. لا بدّ أن هذا هو ما يشعر به الآن؛ وهو ما شعر به
.ـ.ـي" نفسه ولكن مضروبًا في عدد الأبقار، أي الشعور نفسه مائة
. ،ابين مرة. وأبي يعرف كل بقرة وكل عجل.

تخلص "هانا" جسدها من جسدي: تبتعد بشرتها اللزجة ببطء عن
،.ني. أشعر أحيانًا وكأنها واحدة من النجوم الملتصقة بسقفي التي
..قط من وقت لآخر، لتنبهني إلى أن الأماني تكاد تنفد مني، على الرغم
، أنني عرفت أن السماء ليست بئر أمنيات، بل مقبرة جماعية. كل نجم
،، طفل ميت، وأجمل نجم هو نجم "ماتياس".. هكذا تقول أمي. ولهذا
... أخشى في بعض الأيام أن يسقط وينتهي به المطاف في حديقة غير
،يقتنا، وألا نلحظ ذلك. تقول "هانا":

- علينا الوصول إلى الملاذ الآمن.

- بالضبط.

- ولكن متى.. متى نذهب إلى الجانب الآخر؟

لقد فرغ صبر أختي. لا تعرف الكثير عن الانتظار وتريد دائمًا فعل كل
شيء على الفور. أما أنا فأكثر حذرًا. ولهذا السبب تمر بي الكثير من
الأمور، وهذا لأن الأمور ذات صبر نافد أحيانًا.

- تجيدين الكلام وحسب.

أعد "هانا" أن أحاول جهدي، وأقول لها:

- إن غاب القط.. العب يا فأر. وإن غاب الفأر.. العب يا حب.

- هل هناك وباء فئران؟

- كلا.. هذه عبارة نقولها تحسبًا لعودة القط.

- وما الحب؟

أفكر للحظات، قبل أن أقول:

- هو مثل شراب البيض الذي كانت تصنعه لنا جدتي الأقل تدينًا، والذي كان سميكًا وأصفر ذهبيًا.. حتى تجعل طعمه لطيفًا، وكانت تحرص على إضافة جميع المكونات بالترتيب الصحيح والمقادير السليمة.

- لكنني لا أحب شراب البيض.

- هذا ما أقصده.. أن عليكِ أن تتعلمي حُبه. فلا أحد يحب الحب في البداية، ولكنكِ تتعودين عليه بالتدريج، حتى تحبيه، وتجديه أحلى وأحلى مع الوقت.

تتشبث "هانا" بي للحظات، وكأنني واحدة من الدمى التي تلهو بها، وتدس رأسها تحت إبطي. لا أذكر أن أحدًا هدهدنا.. لا أمي ولا أبي؛ أعتقد أنهما لم يفعلا حتى لا يلتصق أي من أسرارهما بأجسادنا.. مثل الفازلين. ولذلك أحرص على ألا أحتضن أحدًا عفوًا.. فأنا لا أعرف بعد أي الأسرار بمقدوري أن أتخلى عنها.

الفصل الثامن عشر



قبقاب أبي بجوار ممسحة الأحذية عند الباب، وحول مقدمته الصلبة غطاء بلاستيكي يمنع نقل العدوى وأي تلوث. أتمنى لو كان بإمكاني وضع غطاء بلاستيكي على وجهي حتى أتمكن من تنفس أنفاسي وحدها. أرتدي قبقابه للخروج وإفراغ سلة القشور في حفرة السماد، فألقي بها فوق روث الأبقار المندي، وأدرك فجأةً أن هذه قد تكون آخر كومة من روث الأبقار أراها، فترةً طويلة. سوف تتخافت أصوات الصباح الباكر.. خوار الثيران.. تشغيل خلاطات الأعلاف.. تشغيل نظام تبريد خزان الحليب.. هديل الحمام الذي يتجمع حول علف الذرة ويبني أعشاشًا في العوارض الخشبية بالحظيرة.. كل شيء سوف يتلاشى في النهاية، إلى ذكرى نستحضرها في أعياد الميلاد أو عندما يستعصي علينا النوم ليلًا. وسيكون كل شيء فارغًا.. مزاود الأبقار.. سقيفة الجبن.. صوامع العلف.. وقلوبنا.

يمتد خرير الحليب من خزانه إلى مصرف في منتصف ساحة المزرعة؛ لقد فتح أبي صنبور الخزان. لم يعد بيع الحليب ممكنًا، لكنه يواصل حلب الأبقار وكأن شيئًا لن يحدث. ويحرص على تأمين الأبقار خلف قضبانها، ويعلق أكواب الحلب في أضرعها، ثم ينظفها مستخدمًا أحد سراويلي الداخلية القديمة بعد أن يغمسها في مرهم خاص. كنت أشعر بالحرج كلما رأيت أبي وهو يفرك ضرع بقرة بقطعة بالية من سراويلي الداخلية، أو ينظف أكواب الحلب بها دون أي خجل؛ لكنني أحيانًا ما أستحضر خلال الليل منظر سراويلي الداخلية تلك التي مرت على أيدي كثيرين، من يد "أوبي" وحتى يد المزارع "يانسن"، وأتخيل أنهم يلمسونني بالطريقة نفسها، وبكل ما في أيديهم من قروح وبثور. وأحيانًا ما تضيع سراويلي الداخلية البالية وسط الأبقار قبل أن تركلها في النهاية. يسميها أبي خرقة الضرع. لم يعد يعتبرها سروالًا داخليًا. وفي أيام السبت، تغسل أمي خرق الضرع وتعلقها لتجف على حبل الغسيل.

أستخرج قلب تفاحة التصق بقعر السلة بأظفاري، وألمح بطرف عينيَّ الطبيب البيطري جالسًا بجوار خيمة بيضاء. يدخل محقنًا في عبوة مضادات حيوية قبل أن يحقن بها عنق أحد العجول. أصيب العجل بالإسهال؛ على مؤخرته آثار فضلاته، صفراء بلون المستردة، وترتجف ساقاه مثل أعمدة سياج تتلاعب بها الرياح. صار البيطري موجودًا دومًا، حتى يوم الأحد، ولكن إذا كنا سنستلقي على بساط الحمام وموازين الحرارة مندسة في مؤخراتنا العارية، فسوف يتم تأجيل بقية الأمور حتى

،م الإثنين. كانت أمي تغني أغنية الأطفال الهولندية عن "كورتياكي"..
،ثيرًا ما تمرض "كورتياكي"، ولكنها لا تمرض أبدًا في يوم أحد، بل في
،بة أيام الأسبوع دومًا". كنت أرى أن "كورتياكي" هذه مجرد جبانة؛ لا
، بد الذهاب إلى المدرسة، لكنها توافق على الذهاب إلى الكنيسة. ولم أفهم
،بب ما تفعله إلا حين بدأتُ الذهاب إلى المدرسة الثانوية. كانت
"كورتياكي" خائفة من كل ما لم تألفه. هل تعرضت للتنمر؟ هل أصيبت
،الم في بطنها بمجرد أن شاهدت ملعب المدرسة.. كما يحدث لي؟ أم حين
،نم الإعلان عن الرحلات المدرسية فتخشى من أن تصاب بكل أنواع
الجراثيم؟ هل كسرت حبات النعناع على حافة الطاولة حتى تخرس هذا
الألم؟ لا تجد أمامك سوى أن تشفق على "كورتياكي".

أسمع صوت انسحاق الغطاء البلاستيكي مع كل خطوة. قال أبي ذات مرة إن الموت يأتي دائمًا مرتديًا قبقابًا. لم أفهم كلامه. لماذا لا يرتدي الموت زلاجة أو حتى حذاء ركض عاديًا؟ أما الآن فقد فهمت: الموت يعلن عن نفسه بصوت عالٍ، مثل صوت القبقاب، في معظم الحالات، ولكننا غالبًا من لا نريد رؤيته أو سماعه. فقد كنا نعرف أن طبقات الجليد هشة في بعض الأماكن، وكنا نعرف أن جنون البقر لن يغفل قريتنا.

ألجأ إلى حظيرة الأرانب، حيث أكون في مأمن من جميع الأمراض، وأدس لها قطع الجزر الملتوية بواسطة السلك الشبك. أفكّر للحظات في فقرات عنق الأرنب. هل تتهشم عندما تلوي رأسه؟ فكرة مخيفة أن يكون موت كائن في

أيدينا، ومهما كانت يداي صغيرتين؛ يمكنك أن تستخدم يديك في البناء، وكذلك تستخدمهما في تقطيع الأشياء إلى أي حجم تريده بنصل حاد. أدس يدي، لتتحسس الفراء، بينما أذني "ديفيرتجي" نائمتين على جسده. حواف أذنيه صلبة لأن بها غضروفًا. أغمض عينيّ للحظة وأتخيل السيدة ذات الضفائر في برنامج الأطفال التلفازي. ذلك القلق في عينيها وهي تحكي كيف أن مساعدي "بابا نويل" تاهوا جميعًا، وأن الكل سوف يستيقظ ليجد أحذية فارغة جوار المدفأة وبجانبها قطع الجزر التي يأكلها حصانه، وقد صارت طرية، وتجعدت قشورها البرتقالية بسبب حرارة المدفأة. أفكر كذلك في قطع الكعك الحلو على طاولتها، وقطع خبز الزنجبيل على هيئة رجال، والطريقة التي أتخيل بها أحيانًا رجل خبز الزنجبيل وهو يقترب منها جدًا، أقرب من أي شخص. وعندها سوف تقول.. "فلتعلمي يا "ياس" أن الأشياء تنمو وتنكمش، ولكن البشر يبقون دائمًا بالحجم نفسه". تلك الطريقة التي تطمئنني بها لأنني عجزت عن طمأنة نفسي.

عندما أفتح عينيّ مرةً أخرى، آخذ أذن الأرنب اليمنى بين أصابعي، ثم أتحسس ذلك المكان بين ساقي "ديفيرتجي" الخلفيتين. أجدني أفعل هذا وحسب، تمامًا كما كنت أفعل مع الملائكة الخزفية الصغيرة في الماضي. لحظتها، ظهر الطبيب البيطري. أسحب يدي بسرعة، وأعيد طبق الجزر أمام فتحة القفص. يثقل رأسك عندما يحمر وجهك، وهذا لأن للحرج والخجل كتلة أكبر.

- لقد أصيبت جميعها بالحمى، حتى إن درجة حرارة بعضها بلغت 42 درجة.

يغسل البيطري يديه في برميل الماء بقطعة من الصابون الأخضر. هناك طحالب داخل البرميل. لا بدَّ لي من تنظيفه بفرشاة على وجه السرعة. أحدق إلى الحافة. يصيبني منظر رغوة الصابون بالغثيان، وعندما أضع يدي على أسفل بطني أشعر بتورم أمعائي. كأنها النقانق التي يبيعها الجزار ونجدها مستحيلة الهضم.

يضع البيطري قطعة الصابون الأخضر بين المزاود الحجرية على طاولة خشبية. هنا كانت تكبر الأرانب السابقة، والتي مات معظمها بسبب كبر السن. دفنها أبي في حفرة عند أبعد بقعة من الحقل، حيث لا يُسمح لنا باللعب. وفي بعض الأحيان، أقلق على الأرانب هناك، وأفكر.. هل تستمر أسنانها في النمو فترة طويلة بعد موتها لتخرج من الأرض، وتقبض على ساق بقرة، أو ساق والدي، وهذا أسوأ؟ لهذا أعطي "ديفيرتجي" الكثير من الطعام، وأجلب له دلاء العشب حتى لا تنمو أسنانه وتطول، بل تكبر بما يكفيه لمضغ الطعام.

- لماذا لا تتحسن حالتها؟ الأطفال تشفى حتى بعد أن تصاب بالحمى.. أليس كذلك؟

يجفف البيطري يديه في منشفة شاي قديمة ويعلقها مرة أخرى على خطاف بجدار الحظيرة.

- إنه مرض مُعدٍ للغاية، ولا يمكنكم بيع أي من لحومها أو حليبها. ستخسرونها وحسب.

أومئ برأسي، على الرغم من أنني لم أفهم. ألن تكون خسارة أكبر بهذه الطريقة؟ كل تلك الأجساد الساخنة بالحمى والتي نحبها كثيرًا ستموت عمًّا قريب. مثل اليهود، الذين ماتوا بسبب الكراهية، وبعد ذلك يحين سريعًا دورك لتموت، وقد فرغ منك الحب وصرت منعدم الحيلة.

يقلب البيطري دلو العلف ويجلس عليه. تتلوى الخصلات المتهدلة من شعره الأسود على جانبي وجهه مثل شرائط زينة في حفلة. أشعر وكأن كلي سيقاني الآن وقد صرت أعلى منه. يصعب عليَّ معرفة ما يجب فعله بتلك السنتيمترات الإضافية، كلما طال جسدي، وكلما دونت الطول في دفتري. اعتدنا أن نضع علامة نحدد بها أطوالنا على إفريز الباب. كان أبي يحضر شريط القياس وقلم رصاص، ويرسم خطًا على الخشب في المكان الذي تصل إليه قمة الرأس. وعندما لم يعد "ماتياس" إلى المنزل، طلى أبي إفريز الباب بلون زيتوني؛ درجة لون الستائر نفسها التي صرنا نسدلها طوال الوقت.. حتى لا يرانا أحد ونحن نكبر.

- جهد ضائع.

يتنهد وهو يقلب كفيه. يمكنني رؤية البثور في راحتيهما. تشبه فقاقيع الهواء في الأظرف التي يرسلها أبي وبها قوارير الحيوانات المنوية للثيران، التي نجدها أحيانًا على المائدة ونحن نفطر. كنت أضعها في الشتاء على خدي فور أن

استيقظ وينهش برد الأرض حذاي متسللًا عبر جسدي من أصابع قدميّ، بينما أسمع أمي في الخلف وهي تبصق على الفتحات الصغيرة للموقد الخشبي قبل تلميعها بمناديل المطبخ. دومًا ما تفعل ذلك قبل أن تترك أبي يشعل النار ببعض أوراق الصحف القديمة. تقول إننا سوف نشعر بمزيد من الدفء ونحن نرى لهيب النيران قويًا يلتهم قطع الحطب.

لم تحب أمي أن أضع القنينة على خدي؛ قالت إن ذلك شيء بغيض. وقالت إن العجول تأتي منها، مثلما تصنع الجدة شموعًا جديدة من بقايا الشمع القديم الذي تجمعه من أهل القرية. ولكن المادة في القوارير بيضاء.. أحيانًا مائية القوام.. وأحيانًا سميكة القوام.. جدًا. ذات مرة، أخذت بعضها سرًا إلى غرفة نومي. أصررت "هانا" على فتح القارورة بمجرد أن بردت ولم تعد تدفئنا. وعندما أصبحت القارورة باردة مثل أجسادنا، غمس كلانا إصبعه الصغيرة فيها، وعددنا حتى ثلاثة، ثم دس كل منا إصبعه في فمه. وجدنا مذاقه شهيًا ومالحًا. وخلال المساء، تخيلنا أن العجول ستخرج من داخلنا، حتى خطرت لنا خطة العثور على المنقذ، وشعرنا بأننا أكبر من أي وقت مضى؛ لسوف نتحول إلى سائل بين يدي المنقذ.. تمامًا مثل سائل الثور المنوي في القارورة.

- معطفك هذا.. مريح؟

مرت لحظات، قبل أن أرد. ما زلت أفكر في بثور راحتيه.

- طبعًا.. جدًا.

- ألا يشعرك بالحر؟

- بلى، لا يشعرني بالحر.

- ألا يسخر منكِ أحد بسببه؟

أهز كتفيَّ في صمت. أجيد التفكير في الإجابات ولكنني لا أجيد البوح بها. وتتحول كل إجابة إلى ملاحظة. وأنا لا أحب الملاحظات. إنها تلتصق بك، كما يحدث حينما تسقط فرشاة زبدة مغموسة في شمع الجبن على ملابسك.. لتخلف بقعة يستحيل غسلها.

يبتسم البيطري. ألاحظ أن لديه أوسع فتحتي أنف رأيتهما في حياتي، وهو ما يعني أنه يقضي الكثير من الوقت في دس إصبعه في أنفه. ويترسخ في عقلي ارتباط عليَّ ألا أنساه. هناك سماعة طبية حول رقبته. وللحظة، أتخيل المعدن البارد على صدري ليستمع إلى كل ما يتحرك ويتغير بداخلي. يبدو العبوس على وجه البيطري بينما يسمع ما تأتيه به السماعة، قبل أن يدس إبهامه وسبابته بين فكيَّ لإطعامي جبرًا، مثل عجل. لسوف يحرص على تدفئة جسدي تحت معطفه الأخضر هذا.

- هل تفتقدين أخاكِ؟

سألني بغتةً. يضع يده على سمانة ساقي ويدلكها برفق. ربما يريد التأكد من أنني لست مريضة؛ فهو يطمئن على صحة العجول من تحسس سمانة سيقانها. يستمر في تدليك سمانتي، فأشعر بسخونة فيها من تحت قماش الجينز، وسرعان ما ينتشر الدفء في جسدي كله.. مثلما يحدث لي

وأنا أفكر في ساعة العودة إلى المنزل لتناول كوب كاكاو ساخن في يوم شتوي بارد، وهي فكرة سرعان ما تبرد ما إن أصل إلى المنزل. أتأمل أظافره المقلَّمة بدقة. أرى بوضوح أثر خاتم زواج غائب عن إصبعه، لون الجلد أفتح في مكانه. يبقى الأحباء حاضرين بصورهم في قلبك أو تحت جلدك، تمامًا كما أشعر بأن صدري يكاد ينشق وقت أن تجلس أمي على حافة فراشي لتسألني بصوت ناعم عما إذا كنت أحبها أم لا، فأجيبها.. "من الجحيم إلى الجنة". وأحيانًا أسمع صوت طقطقة قفصي الصدري فأخشى أن ينشق للأبد. أهمس له:

- أجل.. أفتقده.

كانت أوَّل مرة يسألني فيها أحد عما إذا كنت أفتقد "ماتياس". ليس مجرد تربيتة على الرأس أو قرصة إشفاق في الخد.. بل سؤال صريح. ليس سؤالًا عن حال أبويَّ.. أو حال الأبقار.. لكنه سؤال عن حالي أنا. سكت، وأنا أحدق إلى حذائي.

عندما أنظر إلى البيطري، أجده يطرق رأسه فجأةً، كما تفعل أمي كثيرًا، كما لو كانت تحمل كوبًا من الماء فوق رأسها وتسير به طوال اليوم دون أن تريق منه قطرة. لهذا أقول له:

- لكني بخير.. حتى إنني قد أحدثك عن السعادة، وأمجد الرب جاثية على ركبتيَّ، إلى أن تبلى ركبتي بنطالي، فأرقعهما برقعتين عليها رسوم

لشخصيات الكومكس.

ضحك البيطري، وسألني:

- أتعرفين أنكِ أجمل بنت رأيتها في حياتي؟

أشعر أن وجنتيَّ تتلونان بكل الألوان، مثل الدوائر في أسئلة الاختيار من متعدد. لا أعرف عدد البنات اللواتي رآهن في حياته، ولكني ما زلت أشعر بالإطراء. ها هو شخص ما يجدني جميلة، حتى وأنا في معطفي الباهت الذي بدأ قماشه يهترئ ويتآكل. لم أعرف كيف أرد. غالبًا ما تحتوي أسئلة الاختيار من متعدد على فخاخ لنا، كما تقول معلمتي، لأن الإجابات تحتوي على جزء من الصواب وجزء من الخطأ في الوقت نفسه.. على حقائق وأكاذيب معًا. يحمي البيطري ساعته تحت قميصه. ويغمز لي وهو خارج. تقول أمي أحيانًا إنها الحركة التي يصالحها بها أبي، ولكنها تقول ذلك بغضب، لأن ذلك الصلح مات. ومع ذلك، أشعر بحرقة في داخل قفصي الصدري، في مكان مختلف عن قلبي، وكثيرًا ما تستحيل الحرقة لهيبًا على هيئة شجيرة عليق.



الفصل التاسع عشر



نكبر ونتربى برفقة الكلمة.

ولكن الكلمات تندثر يومًا بعد يوم في المزرعة. مضى وقت تناول القهوة، ومع هذا ما زلنا نجلس صامتين في المطبخ، نومئ برؤوسنا في ردود على أسئلة لم يطرحها أحد. يجلس البيطري في مكان أبي على رأس الطاولة. يتناول قهوته دون حليب، وأتناول عصيري ثقيلًا. ومثل كل ظهيرة وقبل موعد علف الأبقار، انطلق أبي بدراجته النارية إلى البحيرة للتعرُّف على آخر المستجدات، وقد وضع أسفل ساقه اليسرى قماشة ثقيلة حتى لا تقتنص تروس الدراجة قماش سرواله. هناك أمور كثيرة تفوت أبي. اعتاد النظر إلى الأرض أو التحديق في السماء أكثر من النظر في مستوى عينيه. أنا بحجمي الحالي بين تلك الأشياء، وسأضطر إما أن أجعل

نفسي أكبر وإما أصغر ليتمكن من رؤيتي. وفي بعض الأيام، أراقبه عن طريق نافذة المطبخ حتى يصبح مجرد ذرة بعيدة فوق السد، وكأنه طائر ابتعد عن سربه. في الأسابيع الأولى بعد وفاة أخي، ظللت أنتظر عودة أبي بصحبته على الدراجة، حتى وإن كان متجمدًا. عندئذ يصبح كل شيء على ما يرام مرة أخرى. أما الآن، فقد تيقنت من أن أبي لن يعود في كل مرة إلا خالي الوفاض، وأن "ماتياس" لن يعود أبدًا، مثله مثل "يسوع".. الذي لن يهبط أبدًا من السماء على سحابة.

الصمت شاخص حول الطاولة. كلمات قليلة، ولكن الثرثرة كثيرة داخل رأسي. لسوف أثرثر طويلًا مع يهود القبو، وأسألهم عن رأيهم في حالة أمي العقلية، وعما إذا كانوا قد رؤوها تأكل أي شيء في الأيام الأخيرة، وعما إذا كانوا يعتقدون أنها ستخر ميتة ذات يوم، مثل الضفدعين اللذين يرفضان التزاوج. أتخيل وجود طاولة في قلب القبو بين أرفف أكياس الدقيق وأواني الخيار المخلل، والمكسرات التي تحبها أمي في تلك العبوات الدهنية؛ على الرغم من أنها تحب المكسرات كاملة وليست مجروشة، وتقدمها لأبي. وقد ارتدت فستانها المفضل، في لون زرقة البحر وتنتشر فيه زهور الأقحوان. سوف أسأل اليهود عما إذا كانوا سينشدون لها سفر "نشيد الأنشاد سفر سليمان في العهد القديم" لأنها تحبه جنًّا، وعما إذا كانوا سيعتنون بها، في اليسر والعسر.

الثرثرة بشأن أبي مختلفة. سوف تدور غالبًا عن تجهيزاته لأسرته الجديدة. أتمنى أن تتحدث معه أسرته الجديدة أكثر منا، إذا تركنا، وأن

يتجرأ أحد على تحديه والتشكيك في كلامه، كما نشك نحن في وجود الرب أحيانًا. كما آمل أن يغضب شخص منه ويقول له: "أنت أصم.. لا تسمع إلا نفسك، وذلك الحاجز الذي تقيمه ضعيف للغاية، وعلينا إصلاحه، فلا ينبغي أن يكون به أي مفصلات". كم سيكون ذلك لطيفًا لو حصل.



يخرج "أوبي" لسانه ليغيظني. في كل مرة أنظر إليه، يخرج لسانه البني من أثر البسكويت بالشوكولاتة الذي قدماه لنا مع العصير. أحب أن أفصل قطعتيْ البسكويت حتى آكل الكريمة البيضاء بأسناني. لا أدرك أن عينيَّ امتلأتا بالدموع، إلا عندما يغمز لي الطبيب البيطري. أتذكر درس العلوم الذي تلقيناه في المدرسة عن "نيل أرمسترونج"، أوّل رجل يهبط على سطح القمر، وفي شعور القمر وهو يجد أن هناك من تجرأ على الاقتراب منه لأول مرة. ربما كان البيطري رائد فضاء أيضًا، وربما يتحمل شخص ما عناء معرفة ما تبقى من حياة بداخلي. وعندئذ، آمل أن تكون محادثة جيدة. ولكنني أجهل ما يجعل أي محادثة جيدة. لا بدَّ أن تحتوي على كلمة "جيدة"، هذا واضح بالنسبة إليَّ. ويجب ألا أنسى أن أنظر في عينيْ الشخص الآخر وأنا أحدثه، لأن الأشخاص الذين ينظرون بعيدًا لديهم في الغالب أسرار، والأسرار دائمًا ما تكون مخبأة في ذاك الجمد العميق داخل رأسك، مثل حاويات اللحم المفروم في المبرِّد. فهي تتفشى بمجرد إخراجها وتركها دون رقيب.

- أصيبتْ جميع الحيوانات بالإسهال، لا يمكن أن تزداد الأمور سوءًا عن هذا!

قالها البيطري في محاولة لكسر الصمت. شدت أمي قبضتيها في حنق. كانتا مستقرتين فوق الطاولة مثل قنفذين تكورا على نفسهما. أخبرت "هانا" أنهما كانتا في حالة سبات، ولكن أمي سرعان ما سوف تتحسس بهما العروق في فكينا، كما تفعل أحيانًا بسبابتها قبل أن تمسح آثار اللبن الجاف من أركان أفواهنا.

ثم، ينفتح باب الردهة، ويدخل أبي إلى المطبخ. ينزل سحَّاب قميصه الرياضي وهو يلقي بكيس الخبز المجمَّد على الرخامة. ويقف بجانب الطاولة ليتناول قضمات كبيرة من البسكويت. يقول البيطري:

- سيأتون في الغد.. قرب وقت شرب القهوة.

يضرب أبي الطاولة بقبضته. يرتفع بسكويت أمي فوق الصحن لسنتيمترات، فتضع يدها فوقه بحركة لا إرادية؛ آهٍ لو كنت قطعة بسكويت.. لكنت مناسبة تمامًا لراحة يدها. تتساءل أمي:

- ماذا فعلنا لنستحق هذا؟

تنهض وتذهب إلى رخامة المطبخ. ضغط أبي بإصبعيه على أنفه، وكأن إصبعيه مشابك أكياس الخبز، التي تمنعه من البكاء. يصيح فينا:

- اصعدوا إلى غرفكم.. جميعكم.. الآن.

يشير إلينا "أوبي" أن نتبعه. ونتبعه حتى غرفته، التي لا تزال ستائرها مسدلة. بعد ظهر هذا اليوم، قالت لنا المعلمة في نهاية درس العلوم إنه إذا تنفسنا عن طريق أنوفنا، فإن الشعيرات الصغيرة فيها تنقي الهواء قبل أن يدخلنا. أما إذا كنا نتنفس عن طريق أفواهنا، فعندئذ كل شيء يدخلك، بما في ذلك الأمراض. لحظتها، بدأت "بيل" تتنفس بصوت عالٍ بواسطة فمها، وضحك الجميع. وحدي كنت أنظر إليها بقلق؛ فإذا مرضت "بيل"، فإن هذا يعني نهاية صداقتنا. والآن لا أتنفس إلا من أنفي. وأبقي شفتيَّ مغلقتين بإحكام. لا أفتحهما إلا لأقول شيئًا، وهذا على كل حال صار قليلًا الآن. يخاطب "أوبي" أختي:

- عليكِ أن تقلعي سروالك، "هانا".

أسأله:

- لماذا؟

- مسألة حياة أو موت.

- هل يريد أبي المزيد من السراويل لأجل الأبقار؟

أفكِّر في سروالي. ربما وجدت أمي الملابس الداخلية تحت سريري ووجدت أنها مصفرة وناشفة من أثر البول الجاف. يرفع "أوبي" حاجبيه كأنني أنا من يطرح أسئلة مضحكة. ثم يهز رأسه.

- لديَّ لعبة مسلية.

سألته "هانا":

- لن تتعلق بالموت، أليس كذلك؟

- نعم. ليست عن الموت. مجرد لعبة.

تومئ "هانا" موافقة. هي تحب الألعاب. وكثيرًا ما تلعب الـ"مونوبولي" وحدها على سجادة الصالون.

- عليك إذًا أن تخلعي ملابسك وترقدي على الفراش.

قبل أن أسأل عن خطته، خلعت "هانا" سروالها، ثم سروالها الداخلي، الذي سقط حول كاحليها. أنظر إلى ذاك الشق بين ساقيها. لا يبدو مثل كعكة الـ"كاسترد" التي وصفها لي "أوبي". بل هو أشبه بالبزاقة التي شقها "أوبي" ذات مرة نصفين بسكينه، فخرجت من بطنها مادة لزجة.

يجلس على الفراش، جوار "هانا".

- والآن، أغمضي عينيك وباعدي بين ساقيك.

أقول لها:

- أنتِ تختلسين النظر.

- كلا.. لم أفعل.

- رأيت رموشك وهي ترتعش.

- إنه هواء.

وحتى أتأكد من أنها لا ترى شيئًا بالفعل، أضع يدي على عينيها وأشعر برموشها تدغدغ بشرتي. أراقب "أوبي" وهو يتناول علبة "كوكاكولا" ويرجها بعنف. ثم يقرب العلبة من الشق بين ساقيها، بينما يفتح الساقين إلى أقصى اتساع ممكن، فأرى ذلك الجلد الوردي في الشق. يرج العلبة عدة مرات، ثم يمسكها قرب الشق قدر الإمكان. وفجأة.. يفتح العلبة فيندفع شراب "الكوكاكولا" مباشرة إلى داخلها. ترتعش "هانا" بقوة، وتصرخ. ولكن ما أراه في عينيها وأنا أبعد يدي عنهما مصدومة هو شيء أعرفه. ليس إحساس الألم، بل أقرب إلى الهدوء والسكينة. تضحك. ويرج "أوبي" علبة ثانية ويكرر اللعبة. وتتسع عينا "هانا"، وهي تضغط شفتيها برفق على كفي، وتتأوه.

- تتألمين؟

- أبدًا.. إنه إحساس لطيف.

ثم، يكسر "أوبي" حلقة غطاء إحدى العلب ويضعها على ذلك الجزء الوردي الصغير الخارج من شقها. يداعبه بإصبعه بحركات متتالية سريعة، كما لو كان يريد أن يفتحه مثل علبة "كوكاكولا". الآن، تتأوه "هانا" بصوت أعلى ويتلوى جسدها فوق اللحاف. أصيح فيه:

- توقف.. أنت تؤلمها!

ترقد أختي مستكينة في الفراش، وهي تتصبب عرقًا، وجسدها مبتل بالشراب الغازي. وكان العرق على وجه "أوبي" أيضًا. يتناول العلبتين

نصف القارغتين من على الأرض ويناولني واحدة. أجرعها في نهم، وأنا ألمح "هانا" وهي تهم بارتداء سروالها الداخلي. يبادرها "أوبي":

- مهلًا.. عليكِ أن تحتفظي بشيء لأجلنا.

يخرج سلة القمامة من أسفل مكتبه، ويفرغها على الأرض، ليلتقط عشرات من حلقات أغطية علب "الكوكاكولا" من بين أوراق تجاربه الفاشلة. ثم.. يدسها داخل سروال "هانا" الداخلي.. واحدة تلو الأخرى، وهو يقول لها:

- وإلا لاحظت أمي وكذلك أبي أنكما تسرقان علب "الكوكاكولا".

لم تشتكِ "هانا". وفجأةً، شعرت أنها شخص آخر. شعرت أنها مرتاحة لما يفعله، على الرغم من أننا وعدنا بعضنا بعضًا أن نتحمل للأبد كل الأعباء عن أبوينا. أنظر إليها في غضب:

- أمي وأبي لا يحبانك.

خرجت مني الكلمات دون أن أشعر. تخرج لي لسانها في استهتار. ولكني ألاحظ الارتياح وهو يتبخر من عينيها، اللتين تضيقان شيئًا فشيئًا الآن. وأسارع بالتربيت على كتفها، وأطمئنها بأنني كنت أمزح معها. كلنا نرغب في محبة أمي وأبي. يقول "أوبي":

- علينا القيام بمزيد من التضحيات.

يجلس إلى حاسوبه، ويضغط زر التشغيل. لا أعرف نوع التضحية التي
ابداها للتو، ولكنني خشيت أن أسأله، حتى لا يبادر بالقيام بأمر آخر.
جلس "هانا" بجانبه على كرسي قابل للطي. يتصرف كلاهما وكأن شيئًا لم
يحدث، وربما هذا هو الحال وربما لا داعي لما أشعر به من قلق، تمامًا كما
أقلق كلما حلَّ الليل. فعلى الرغم من خوفي من الظلام، فإنه في النهاية يذهب
ليعود النور من جديد، كما هو الحال الآن، حتى ولو كان نورًا اصطناعيًّا،
يتمثل في ضوء الشاشة، ولكنه يبدد الظلام إلى حد كبير. ألتقط حلقة مفاتيح
منسية وأدسها في جيب معطفي وسط شعيرات الأرنب وشظايا حصالتي.
يجب أن نكون حذرين مع "هانا"؛ يمكنها أن تخوننا في أي لحظة. أكاد
أسمع صليل الحلقات داخل جسدها، الصوت نفسه الذي تصنعه حلقة غطاء
العلبة لو سقط فيها وأنت تشرب.. تسمعه مع كل رشفة. أحدق إلى ظهري
أخي وأختي. أنتبه لحظتها إلى أنني لم أعد أسمع رفرفة أجنحة الفراشات على
أغطية أوعية الجبن. وأتذكر آية من "إنجيل متَّى".. **"إنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ،
فَاذْهَبْ إِلَيْهِ وَعَاتِبْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَلَى انْفِرَادٍ. فَإِذَا سَمِعَ لَكَ، تَكُونُ قَدْ
رَبِحْتَ أَخَاكَ"**. لا بدَّ أن أتحدث مع "أوبي". ولأننا ثلاثة ولسنا اثنين وحدنا،
فعليَّ أن أحرص على ألا تسمعنا "هانا"، ولو للحظات.



بعد العشاء، أتسلل سريعًا للخارج، وأتجاوز الشريط الأحمر حول حظيرة
الأبقار، وأضع يديَّ على فمي مثل كمامة ورقية في أثناء دخولي. أشم العبق

القوي للحظيرة، لأن فتح الأبواب أو النوافذ صار ممنوعًا. رائحة أمونيا شديدة تمتزج برائحة العلف الأخضر. أمر بمجرفة السماد خلف الأبقار لأجمع فضلاتها السائلة في منتصف الحظيرة. يقع بين الفتحات الشبكية وأسمعه يستقر في القاع. عليك أن تبقي المجرفة في زاوية جيدة من جسمك وإلا علقت بين الفجوات. ومن وقت لآخر، أضغط بها على حافر بقرة حتى تتحرك. عليك في بعض الأحيان أن تفعل ذلك بقسوة وإلا تجاهلتك. أمشي إلى الأبقار العجفاء، التي تقف في مكانها تمضغ العلف في رضا كما لو كانت لا تهتم إلى حقيقة أن هذه هي وجبتها الأخيرة. تركت "بياتريكس" تلعق يدي، بقرة سوداء برأس أبيض وبقع بنية حول عينيها؛ لكل الأبقار عيون زرقاء لأن فيها غلافًا إضافيًا يعكس الضوء. أفعل ذلك في الشتاء مع العجول؛ أتركها تمتصُّ أصابعي المتجمدة من البرد حتى تسحب البرد منها تمامًا، مثلما ينسحب ذلك الحزن من صدري. وفي كل مرة أسمع فيها صوت مص أفواهها لأصابعي، أتذكر حكاية "أوبي". حكى لنا أن ابن "يانسن" لم يضع أصابعه في أفواهها، بل شيء آخر، ولكنها كانت مجرد حكايات تتداولها القرية، وهي مثل انتشار الرائحة النتنة للسماد مرة كل شهر، أي إن من الأفضل ألا تلقي لها بالًا.

أترك البقرة تلعق يدي مرة أخرى. عليك أولًا أن تكسب ثقتها وبعد ذلك تضرب دون رحمة، هذا ما علمني إياه "أوبي". كانت هذه هي الطريقة التي اصطاد بها الفراشات لمجموعته. تركت يدي تنزلق من رأسها على طول عمودها الفقري إلى ذلك المكان بين عظم الفخذ والذيل. هذا المكان، والبقعة داخل آذانها، أكثر مكانين تحب الأبقار أن يلمسها أحد فيه. وفي كل مساء، أبحث عن مكان

،دابه له في جسدي وأنا أسلط الكشاف عليه، لكني لا أجد فيه أي بقعة تستحق ال لمس، ولا أجد أي نقطة بوسع لمسها أن يهدئني أو يجعلني أتنفس بوتيرة أسرع. وكأن يديَّ تتحرك من تلقاء نفسها، تنزلق أكثر باتجاه ذيلها. أستطيع أن أرى فتحة مؤخرتها تنفتح وتنغلق مثل فم طفل جائع. ومن دون تفكير، أدس إصبعي في مؤخرة البقرة. أجدها دافئة واسعة. ومن تحتها، أرى شيئًا معلقًا يبدو بالفعل مثل كعكة الـ"كاسترد" التي تحدث عنها "أوبي"، ولكنه أدكن لونًا، وينتهي بخصلة شعر. أتحسس فتحة أخرى، ولكنها ضيقة ناعمة. لا بدَّ أنه شق البقرة. فجأةً، شدَّت البقرة عضلات وركها وتكهرب ذيلها بالقرب منها، بينما تحركت ساقاها بلا كلل. أتذكر "هانا" وأنا أحرك إصبعي داخل الفتحة وخارجها، أسرع وأسرع حتى تكل يدي. أضع يدي الأخرى في جيب معطفي، المس مغرفة الجبن بين شظايا حصالتي وحلقة غطاء "الكوكاكولا" وشعيرات "ديفيرتجي". لقد نسيت أنني أخذت المغرفة من كوخ الجبن. أخرجها من جيب معطفي وأتأملها أمامي من جميع الزوايا. تخطر لي فكرة. لا بدَّ من اختبار المنقذ، بالطريقة نفسها التي يختبرون بها الغواصين قبل منحهم رخصة غوص. سيكون هذا اختبارًا للطبيب البيطري، لأنه إذا كان بإمكانه إنقاذ بقرة من مغرفة جبن تائهة بداخلها، فيمكنه عندئذ إنقاذ قلب فتاة تائه. أضغط عينيَّ بقوة، وأنا أتخيل كم الألم الذي سوف تشعر به "بياتريكس"، ثم أدس مغرفة الجبن ببطء في فتحة مؤخرتها. أضغط بقوة أكبر حتى تصبح فتحة مؤخرتها أوسع وتتشكل حول المغرفة، إلى أن أعجز عن دسها أعمق. صار معصمي كله داخل البقرة، فأترك المغرفة وأسحب ذراعي. إنه مغطى بالخراء. أربت على

جسدها الدافئ، كما ربت والدي على أسفل ساقي عندما انتهى من إدخال قطع الصابون في جسدي.

- تشتكي البقرة "بياتريكس" من شيء ما.

أقول للبيطري، بعدما نظفت ذراعي بالخرق التي تستخدمها أمي لتنظيف دلاء الحلب، وبعد أن شطفت حذاء الحظيرة بالخرطوم وأغلقت الصنبور.

- سوف ألقي نظرة عليها.

ذهب إلى الحظيرة. وعندما عاد بعد برهة، لم أتبين أي شيء من نظرات عينيه. لم أجد فيهما سخطًا أو عبوسًا، ولم أجد تجهمًا على وجهه.

- ماذا وجدت؟

- تعرفين أن هذه البقرة من سلالة راقية، وتنزعج من أقل ألم. ولكن لا شيء بها، وهي صحيحة الجسد مقارنة بغيرها في هذه الظروف، حتى إنني أتألم كلما تذكرت أنها سوف تموت مع بقية الأبقار في الغد. جنون البقر هذا غضب شديد من الرب.

أبتسم له، تمامًا كابتسامة مقدمة برنامج "لينجو". وهي تراقب متسابقًا يفشل في التقاط الكرة الخضراء.

الفصل العشرون



- سوف تموت أولى البقرات اليوم.

قالتها أمي، الواقفة إلى جوار باب حظيرة الأبقار، وفي يديها تُرمسان؛ مكتوب على أحدهما أحرف كلمة "شاي" بحبر لا يمحوه الماء، وعلى الآخر "قهوة". وكأنها تحفظ توازنها على الأرض بحمل هذين الترمسين. تحت ذراعها كيس قطع كعك لونها وردي. صوتها مبحوح. أتبعها إلى داخل الحظيرة، في اللحظة نفسها التي سقطت فيها أول دفعة من البقر ميتة فوق شبكة الفضلات المعدنية. سرعان ما بادروا بسحبها من سيقانها الخلفية إلى آلة التحميل، التي التقطتها واحدة واحدة مثل الدمى لتلقي بها في قلب صندوق الشاحنة. تقف بقرتان تحت فرشاة تنظيف الماشية الدوارة، تلوكان العلف في برود، مع أن أنفيها مغطيان بقشرة سميكة،

يحدقان إلى الرفيقات اللاتي سقطن في مكانهن. كانت بعض العجول لا تزال على قيد الحياة عندما دخلت شاحنة نقل الجثث الحظيرة.. وقفت في انتظار مصيرها الذي سبقها إليه بعضها الآخر.. رصاصة برغي في منتصف الجبهة. تحدث أصوات الأنين والارتطام بجانبي الشاحنة. تشققات صغيرة تحت جلدي، ويصاب جسدي ببوادر الحمى. لم يعد مجديًا أن أرفع ياقة معطفي حتى أنفي وأن أعض على حبليه. قتلوا "ماكسيما".. "جويل".. و"بليز" دون شفقة. تخر صريعة ثم تختفي عن الأعين، مثل علب حليب فرغت وألقيتها في حاوية قمامة.

فجأة، سمعت صياح أبي. يقف مع "أوبي" عند العلف، بين رجال يرتدون ملابس زرقاء وخضراء موحدة، وعلى رؤوسهم واقيات رأس وعلى أنوفهم كمامات. يصيح بأعلى صوته بكلمات الآية الأولى من المزمور الخامس والثلاثين، حتى إن صياحه استحال صراخًا، والزبد يخرج من ركني فمه.. "**خَاصِمْ يَا رَبُّ مُخَاصِمِيَّ. قَاتِلْ مُقَاتِلِيَّ. أَمْسِكْ مِجَنًّا وَتُرْسًا وَانْهَضْ إِلَى مَعُونَتِي. وَأَشْرِعْ رُمْحًا وَصُدَّ تِلْقَاءَ مُطَارِدِيَّ**". يسيل اللعاب على ذقنه ثم إلى الأرض وهو في مكانه عند العلف. أتأمل قطرات اللعاب، والحزن الخارج منه، مثل السماد السائل الذي امتزج بدماء الأبقار الميتة وتدفقا معًا على البلاط ليستقرا في البالوعة، حيث يستقبلهما الحليب المتدفق من خزان التبريد.

بدؤوا بالعجول، حتى لا ترى أمهاتها وهي تُقتل بقسوة. ويبدو أن ذلك لم يعجب "أوبي"، فقد علّق أصغر عجل في الفناء من قدميه على غصن شجرة، ابتدلى لسانه من فمه. وهكذا فعل كل مزارع في القرية، احتجاجًا على ما يجري. ،شر بعضهم شجرة ووضع جذعها عبر المسار المفضي إلى مزرعته حتى يعوق الهدم حملة التخلص من الماشية. وقتها، أخذ الرجل الذي يرتدي البدلة البيضاء، وهو الشخص نفسه الذي وضع صناديق سم الفئران حول المزرعة من قبل، جثث الماشية ووضعها بعناية في الشاحنة. ولكنهم لا يضعونها بأي عناية الآن؛ ،ل يقذفون بها مثل سم الفئران في قلب الحاوية الأسود.

- "لا تقتل".

يصيح أبي. يقف إلى جوار بقرة كانت ملكًا لجدي، ولكنها الآن ترقد على الأرض وأقدامها لأعلى. هناك ذيول أبقار فوق الشباك المعدنية.. وقرون... وأجزاء من حوافر.

- قتلة! أتباع هتلر!

يصيح "أوبي" من بعد أبيه. أتذكر اليهود الذين لقوا مصيرًا مشابهًا لمصير هذه الماشية المنكوبة، وأتذكر "هتلر"، الذي كان مرعوبًا جدًّا من الأمراض لدرجة أنه اعتبر البشر مجرد بكتيريا على قدمين، ويجب القضاء على شعوب منهم في غمضة عين. أخبرنا المعلم خلال درس التاريخ أن "هتلر" سقط في حفرة جليد عندما كان في الرابعة من عمره وأن أحد القساوسة أنقذه، وعلّق

المعلم قائلًا إنه من الأفضل أحيانًا ألا ننقذ بعض الناس من قلب حفرة الجليد

تساءلت يومها: لماذا ينقذ القدر شخصًا سيئًا مثل "هتلر" ويُفلت أخي متجاهلًا. لماذا تموت الأبقار وهي لم تقترف إثمًا؟

أرى الكراهية في عيني "أوبي" وهو ينقض في غيظ على أحد الرجال الكممين. بادر المزارعان "إيفرتسن" و"يانسن" بجذبه من ملابسه بعيدًا وحاولا تهدئته، لكنه تملص منهما وركض خارج حظيرة الأبقار، متجاوزًا أمي، التي ما زالت واقفة عند الباب ممسكة بالتُرْمُسَيْن. لو أنني تناولت منها تُرْمُسًا، فلربما تنهار على الأرض، تمامًا مثل بقرة عجفاء حان دورها. تلتصق رائحة الموت المقبضة بحلقي، مثل قطعة لزجة من مسحوق البروتين. أحاول أن أبتلعها وأغمض عينيَّ حتى أطرد منظر العجول منها، ولكن المنظر يقاومني فلا يمكنني التخلص منه إلا بالدموع. تنطوي كل خسارة على محاولات سابقة للتشبث بشيء لم نرد أن نخسره ولكننا لم نكن نعرف أن علينا التخلي عنه في نهاية المطاف: مثل كيس البلي الذي جمعته من أجمل الأنواع.. ومثل أخي. نجد أنفسنا في حالة من الفقد، ونظل كما نحن.. كائنات ضعيفة، مثلها مثل فراخ طائر الـ"زرزور" الصغيرة التي تسقط عارية من الريش من أعشاشها وتبقى على أمل أن يلتقطها أحدهم ويعيدها إلى العش مرة أخرى. أبكي على الأبقار.. أبكي على "الملوك الثلاثة"؛ ثم أبكي على نفسي، المتدثرة في معطف القلق، ولكني سرعان ما أمسح الدموع. يجب أن أذهب إلى "هانا" وأخبرها أنه من غير الممكن أن نذهب إلى الجانب الآخر في الوقت الحالي. لا

هنا أن نترك أمي وأبي خلفنا هكذا. ما الذي سيحدث لهما بعد أن
ـلت الأبقار؟

أضع يدي على فمي في محاولة للهروب من الرائحة، وأهمس لنفسي
ـ.ـتمرار.. "أمي المثقفة قدمت لنا طبقًا من الناتشو.. أمي المثقفة قدمت لنا
ـطبقًا من الناتشو.. أمي المثقفة قدمت لنا طبقًا من الناتشو". ولكن الحيلة لا
ـجدي هذه المرة. لم تهدأ أعصابي. أنظر إلى أبي. فأجده يحمل مذراة ويلوّح بها
ـر ـغضب إلى الرجال بين الحين والآخر. ليتها كانت مجرد بالات تبن أو علف
ـأخضر، فعندئذ كنا سنتمكن من رفعها ونقلها معًا، أو لفها بالمشمع الأخضر
ـووضعها في الحقول حتى تجف. يقف أحد الرجال، أطولهم، بجانب باب
ـ.ـحظيرة مع أمي، يأكل إحدى قطع الكيك البارنة الوردية؛ وقد أسقط الكمامة
ـإ تحت ذقنه.. بدت لي مثل كيس تقيؤ. يكشط الطبقة الحلوة بأسنانه من أعلى
الكيكة، ومن ثم يأكل الكيكة، ولا يلقي بالًا للأبقار التي تخر صريعة من حوله
ـبرصاص براغي في رؤوسها. وعندما يخرج كيكة ثانية من الكيس ويكشط
طبقتها الحلوة بأسنانه، أشعر أن الشقوق في بشرتي تتسع؛ لا بدَّ أن هذا هو ما
تشعر به اليرقة وهي توشك أن تصير فراشة، ولكنَّ شيئًا ما يجعلها ترفض
ذلك، رغم أنها ترى الشقوق تتشكَّل من حولها، ونور الحرية يتسلل إليها عن
طريقها. تتسارع نبضات قلبي بشدة خلف أضلعي، حتى أخشى أن تأتي لحظة
يسمع فيها أهل القرية بأكملها صوت النبضات، مثلما أخشى أحيانًا أن
يسمعونها في أثناء الليل وأنا أستلقي فوق دبي، بينما تتسل تلك الأصوات
مخترقة الظلام. أتمنى أن أصرخ وأن أركل هؤلاء الرجال في بطونهم أو أن أربط

الكمامات على أعينهم فيعجزون عن رؤية الأبقار؛ فلا يرون سوى سواد أفعالهم التي سوف تلاحقهم وتلتصق بهم، مع كل خطوة يخطونها في حياتهم بعد الآ سوف أسحبهم من رؤوسهم الحمقاء عبر الحظيرة التي تلطخت بالدماء، ثم ألتقطهم من أرجلهم بأسنان آلة التحميل، وأطوح بهم إلى قلب الحاوية.

يلقي أبي بشوكة العلف، ويرفع رأسه في استسلام إلى عوارض السقف الخشبية، حيث يطير الحمام مع كل دوي مكتوم لرصاصة. تلوث ريشها؛ لو السلام أبيض دائمًا، أما هذه فحرب. أتمنى للحظة أن يأتي أبي ويضمني بقوة إلى جسده، حتى تضغط أزرار البدلة الوقائية المفتوحة على خدي، وحتى أفقد روحي في شوقي إلى حضنه، ولكنني أدرك أن الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أفقد فيه روحي الآن هو شعور الفقد المرير نفسه.

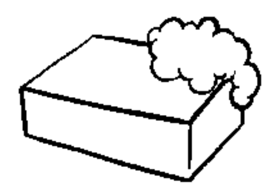
أبتعد، فأجد "أوبي" وهو يتخلص من البدلة الوقائية. يلقي به في النار التي أشعلها احتجاجًا من أعواد قصب جافة جوار حفرة السماد، بينما يقف حوله حفنة من المزارعين معدومي الحيلة.

ليتنا نخلع عنا أجسادنا بالطريقة ذاتها.. لنتحرر من الوسخ الذي أثقل كاهلنا.

الجزء الثالث



الفصل الأول



اقترب فم "أوبي" من أذني بغتةً، وهمس بنبرة بطيئة:

- اللعنة!

يسقط شريط من الضوء عبر فتحة الستائر على جبهته. الجرح الأحمر الناتج عن ضرب رأسه في خشب الفراش أصبح ندبة، مثل خيط من موربي. أغمض عينيَّ وأشعر بأنفاسه الدافئة التي تنطق بالكلمة المحظورة، التي يكررها إلى أن تختفي في طبلة أذني. من حسن الحظ أنهما أذناي وليستا أذني أمي وأبي، لأن هذه هي أسوأ كلمة يمكننا أن ننطق بها ونفكر فيها.. لم ينطقها أحد في المزرعة من قبل. أشعر بالحزن على الرب أكثر من حزني على نفسي، فهو لا يستطيع المساعدة على

تصحيح الأمور هنا، ومع ذلك فإن اسمه يُتخذ عبثًا. كلما نطق الكلا،
كلما انكمشت تحت غطائي.

- استخدمتِ كلمة سر "سيمز".

كان يدور حول فراشي في تحفز وهو في منامته، وأسند يديه إلا
جانبي وسادتي.

- مرة واحدة فقط.

- غير صحيح. أنتِ تغشين. كان عليكِ أن تستأذنيني أولًا.. اللعنة!

أشم رائحة عطر ما بعد الحلاقة الخاص بأبي؛ خليط من القرفة وه،
الهند. سأضطر إلى إرضاء "أوبي" بالطريقة نفسها التي أرضي بها أ،
هكذا قررت، فانقلبت طوعًا على بطني، وأنزلت سروال منامتي وملابس
الداخلية حتى أعرّي له مؤخرتي. ولكن "أوبي" أجفل وأبعد فمه عن أذني.

- ماذا تفعلين؟

- عليك أن تضع إصبعك في فتحة مؤخرتي.

- ولكن هذه قذارة!

- أبي يفعلها، كل يوم، حتى يتسنى لي أن أتبرز. أنت بذلك تفتح المسار، مثلما نصنع مسارات للنمل في ذلك الحوض الممتلئ بالرمال. لن يستغرق الأمر سوى لحظات.

وهكذا، يشمر "أوبي" كمي منامته، ويباعد بين أردافي بحرص كما لو كانت مجلد موسوعة الحيوانات التي يعتني بها جيدًا ولا يسمح لأحد بمسها، ثم يدس سبابته كما لو كان يشير نحو مخلوق نادر.. طائر الـ"كوكاتو".. مثلًا.

- ألا يؤلمك هذا؟

- أبدًا.

قلتها، على الرغم من أنني جاهدت لحبس دموعي. لا أخبره أنه من المفترض أن يحمل طرف إصبعه قطعة من الصابون الأخضر. لا أود أن يلحظ ارتعاش شفتيّ، مثلما حدث لبعض الأبقار التي أصيبت بالجنون. لكن أبي ينسى هذه الأيام أن يفعلها لي. وعلى أحد أن يقوم بذلك حتى لا أضطر للذهاب إلى الطبيب.

يدفع "أوبي" إصبعه إلى أبعد نقطة ممكنة.

- إياكِ أن تطلقي الريح.

التفتُّ خلفي، لمحت قضيبه وهو يضغط بشدة على مقدمة سروال منامته، وأفكر في عدد الأصابع التي يساوي سمكها سمك قضيبه، وهل ينبغي أن نستخدمه حتى يصير المسار أوسع؟ لكنني لا أخبره بذلك.. ليس الآن؛ طرح الأسئلة يولِّد توقعات، وأنا لا أعرف بعد ما إذا كنت على قدر تلك التوقعات أم لا. عندما يسألني المعلم سؤالًا، أشعر أحيانًا أن أفكاري تتطاير بعيدًا. الأفضل لي ألا أزيد من غضب "أوبي". ماذا لو أن شتائمه تلك أيقظت أمي وأبي. فجأةً، يبدأ "أوبي" في تحريك إصبعه للخلف وللأمام، أسرع وأسرع، كما لو أنه يريد أن يبث الحياة في جسد أحد تلك الكائنات الميتة التي يحتفظ بها في مجموعته. أبدأ في تحريك فخذيَّ ببطء لأعلى ولأسفل، لأجاري إيقاعه؛ أريد أن أهرب منه وأن أبقى معه.. في الوقت نفسه. أريد أن أغرق.. وأريد أن أطفو. أشعر أن الثلوج تحيط بي.

- أتعرفين كم عمر ثعبان البحر؟

- كلا.

لا يوجد سبب يجعلني أهمس، لكن صوتي يصبح هكذا من تلقاء نفسه. كما أن فمي مليء باللعاب. أفكر في الضفدعين. كانا يركبان بعضهما ويسمي أحدهما الآخر "الرجل الصغير" و"المرأة الصغيرة". لساناهما الطويلان يلتفان حول بعضهما، كما لو كانا يتصارعان على الزجاجة الخيالية الزرقاء نفسها. هل للضفدع قضيب؟ وهل يمكنه سحبه إلى غمده مرة أخرى مثل الثور، كما يعيد "أوبي" مسدسه الخشبي إلى غمده؟

- يمكنه أن يعيش حتى ثمانية وثمانين عامًا، وله ثلاثة أعداء: طيور الماق، والديدان الحلزونية، والصيادين.

يسحب "أوبي" إصبعه فجأةً من فتحة مؤخرتي. ويبدأ المشهد الثلجي في الدوبان. أشعر بمزيج من الراحة وخيبة الأمل، كأنه دفعني مجددًا إلى ظلمات مثلي: كشعلة أمل ما إن أنيرت حتى أطفأت. كنت أقضي المزيد والمزيد من الوقت في الهروب من المزرعة راقدةً على بطني أحك جسدي في فراء دبي، فيصدر سريري صريرًا، فأتحرك أقوى وأقوى إلى أن أتوقف عن سماع أي شيء، وإلى أن أتخلص من كل توترات النهار فلا أسمع إلا ذاك الدوي في أذني، وإلى أن يصير البحر أقرب بكثير مما كان عليه خلال ساعات النهار.

- أمي وأبي في الخامسة والأربعين وليس لهما أي أعداء.

- ولكن هذا لا يعني أي شيء.

أجيبه، وأنا أعيد ملابسي إلى مكانها على جسدي. أتمنى ألا يغضب أبي من استعانتي بغيره ليقوم بمهمته، حتى ولو كان قد توقف عن القيام بها بل وتوقف عن لمسي تمامًا. أنا لا أريد أن أكون عبئًا عليه.. فوق أعبائه.

- بالفعل.. هذا لا يعني أي شيء.

يحاول استعادة هدوء أعصابه، متظاهرًا بأنه رابط الجأش، أو ربما هو يريدني أن أشعر أنه ليس خائفًا من أن نفقدهما في وقت أقرب مما

نتصور. ينظر إلى سبابته في استغراب، ويشمها.

- أهذه هي رائحة الأسرار إذًا؟!

- أنت مقرف.

- لا تخبري أمك وأباك بشيء، وإلا قتلت "ديفيرتجي" وخلعت عنك معطفك الغبي هذا.. اللعنة.

يدفعني "أوبي" بعيدًا عنه، ويخرج من غرفة نومي. أسمعه ينزل إلى الطابق السفلي، حيث يفتح أدراج المطبخ، ثم يغلقها مرة أخرى. الآن وقد رحلت الأبقار، لم يعد لدينا وقت محدد للإفطار. وفي بعض الأحيان لا يوجد أي إفطار، بل بعض قطع البسكويت والمهلبية سريعة التحضير. نسي أبي إحضار الخبز يوم الأربعاء من فرن القرية. أو ربما صار يخاف العفن. علينا أن نقف أمامه كل ظهيرة. يجلس على كرسيه، يدخن بجوار النافذة، وقد وضع ساقًا فوق الأخرى، وهي جلسة لا تناسبه.. يناسبه أكثر أن يجلس وقد باعد بين ساقيه، وفي يده قلم الحبر الأزرق الذي يدون به حساباته. صرنا الآن قطيعه البديل، وعليه فحصنا خشية إصابتنا بأمراض محتملة؛ علينا أن نريه ظهورنا العارية ليتفقدها بحثًا عن بقع زرقاء أو بيضاء. يقول لنا:

- عدوني ألا تموتوا.

نومئ له.. اطمئن، ولكننا لا نخبره أننا جائعون، وأن الجوع مميت أيضًا. وفي المساء، يحصل كل منا على طبق حساء وصحن كرات لحم مع المزيد من الشعيرية المحمرة في الحساء. هكذا تشعر أمي بأنها ما زالت قادرة على الطهي لنا. أتأمل بعض الشعيرية فأتخيلها مثل قطع صابون مبشور في الطبق المزين برسومات الدجاج.

أحرك ساقيَّ تحت غطاء لحاف الديناصورات، حتى تستعيدا وزنهما الطبيعي، على الرغم من أنني لا أعرف ما يجب أن تشعر به ساقان وكيف تشعر، ربما هما بلا وزن. كل ما هو جزء منك عديم الوزن والأشياء الغريبة عنك هي وحدها التي تشعر بثقلها. أنفاس معجون أسنان "أوبي" الممزوجة بكلمة "اللعنة" التي صارت عالقة حولي مثل زبون حليب يلح في طلبه؛ فهو غير راضٍ عن أي شيء ويتعامل مع مزارع الآخرين كما لو كان يمتلكها، ورأسه مرفوع عاليًا. دفعت اللحاف عني وذهبت إلى غرفة "هانا". غرفة نومها في نهاية الردهة، وبابها موارب دائمًا. ولا تطفئ النور الخافت أبدًا. تعتقد "هانا" أن اللصوص ينجذبون إلى نور المصابيح مثل العث وعندئذ بوسع أبي أن يطاردهم إلى الخارج مجددًا في الصباح.

أدفع بابها برفق. وجدتها مستيقظة بالفعل وتقرأ كتابًا مصورًا. نقرأ كثيرًا؛ نحب الأبطال ونتفاعل معهم، ونكمل قصصهم في عقولنا، ولكننا نكون الأبطال حينذاك. ذات يوم، سأكون بطلة قصة أمي، حتى يتسنى لي و"هانا" الذهاب إلى الجانب الآخر براحة بال. حينئذ، أطلق سراح الضفدعين واليهود،

وأشتري لأبي أبقارًا تملأ حظيرته من جديد، وأتخلص من كل الحبال المتدلية، بالإضافة إلى صومعة العلف. لن يكون هناك أي مكان مرتفع بعد اليوم.. إذًا لا يوجد ما يغويها. أهمس لها وأنا أجلس إلى حافة فراشها:

- لقد نطق "أوبي" بالكلمة الملعونة.

اتسعت عينا "هانا". ونحت الكتاب جانبًا.

- لو عرف أبي فلسو..

النعاس واضح في عينيها. بوسعي أن أزيحه عنهما بطرف إصبعي الصغيرة، كما فعلت مع "أوبي" عندما أخرجنا حلزونًا من قوقعته بطرف سكين صغيرة، ودعسنا جسد المخلوق الصغير فوق البلاط.

- أعرف. علينا أن نفعل شيئًا.. ربما علينا أن نخبر أمي بسوء أدب "أوبي"؟ أتذكرين عندما أراد "إيفرتسن" التخلص من كلبه؟ قال إنه حيوان قذر وبعد أسبوع قتله.

- ولكن "أوبي" ليس كلبًا يا غبية.

- ولكنه قذر.

- أجل، ولكن علينا أن نمنحه شيئًا. نمنحه عظمة وليس حقنة سم، حتى يصمت.

- ما هذا الشيء؟

- حيوان.

- حي أم ميت؟

- ميت. هذا ما نريده.

- وما ذنب المخلوق المسكين؟ عليَّ التحدث معه أولًا.

- لا تتفوهي بكلمات غبية، حتى لا يغضب. علينا أن نتحدث عن محطتنا. لم أعد أريد البقاء هنا أطول من ذلك.

أتذكر البيطري؛ ولكنه فشل في العثور على مغرفة الجبن داخل البقرة، ومن ثم سيعجز عن إنقاذ قلبينا. لم أخبرها بذلك، فهناك ما هو أهم.

تتناول "هانا" كيس حلوى الـ"فايربول" من فوق منضدة سريرها. على الغلاف رسم شخصية كرتونية تخرج ألسنة اللهب من فمها. تفتح واحدة حمراء وتناولني إياها. أضعها في فمي وأمتصها. بمجرد أن تسخن جدًّا، أخرجها من فمي مرة أخرى. لونها يتغير باستمرار، من الأحمر إلى البرتقالي إلى الأصفر.

- ما إن يتم إنقاذنا عند الجانب الآخر، سيصبح في وسعنا أن ننشئ مصنع "فايربول". يمكننا أن نسبح وسط كرات الـ"فايربول" كل يوم.

تحرك حبة الحلوى من جانب إلى الآخر في فمنا. نشتريها من متجر الحلويات الصغير في آخر القرية؛ من عند "كارنيملكسفيج". ترتدي السيدة التي تبيع الحلوى المئزر الأبيض اللطيف دومًا، ولها شعر أسود

غير مصفف يبرز من أسفل قبعتها في كل اتجاه. يصفها الجميع بـ"الساحرة". يحكون قصصًا مرعبة عنها. تقول "بيل" إنها تحول القطط الضالة إلى حلوى العرقسوس، على شكل قطة أيضًا، وتحول الأطفال الذين يحاولون سرقة الحلويات إلى قطع حلوى. ومع ذلك، لا يزال جميع الأطفال في القرية يشترون الحلوى منها.

لا يسمح لنا أبي بشرائها.

- إنها تتظاهر بكونها مسيحية تقية، ولكنني أعرف أنها ليست كذلك أراها أيام الأحد وهي تشذب أشجار سورها.

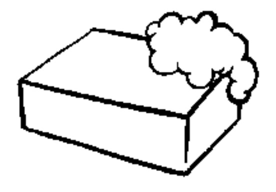
ذات مرة، تسللت مع "بيل" خلف منزلها لنلقي نظرة خاطفة على حديقتها من فوق السياج. كانت الأشجار طويلة لدرجة أنها تكاد تلامس النجوم. أَخَفْتُ "بيل" وأنا أخبرها أن الساحرة تزور في الليل كل من يسترق النظر إلى حديقتها، ويمكنها أن تحوله إلى نبتة وتزرعها في حديقتها لاحقًا.

وبالإضافة إلى الحلوى، يبيع المتجر أيضًا دفاتر وأقلام ومجلات على أغلفتها صور جرارات أو صور نساء عاريات. يرن جرس تنبيه عندما تفتح باب المتجر، وهو أمر أجده غير ضروري، لأن زوجها، الذي يرتدي معطفًا أبيض خفيفًا مثل وجهه الشاحب، وجسده النحيل مثل كلب هزيل، يقف دائمًا خلف طاولة البيع، يراقب كل من يدخل. تنجذب عيناه إليك مثل المغناطيس. وإلى جواره ببغاء في قفص. يتحدث السيد والسيدة "فان لويك" مع ذلك الطائر

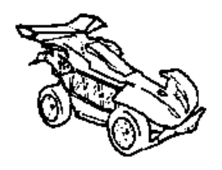
امي الألوان طوال الوقت، ويشكيان إليه تأخر وصول أقلام الحبر الجديدة،
وأ بطة حلوى العرقسوس التي جفت حتى يمكنك أن تهشم نافذة بها،
والطقس الحار جدًّا.. أو البارد جدًّا.. أو الخانق جدًّا.

- عليكِ الذهاب الآن إليه، وإلا استيقظ أبي وأمي.

أومأت برأسي وأنا أمضغ الـ"فايربول" التي تحولت الآن إلى علكة. يملأ
مذاق القرفة الحلو فمي. وتلتقط "هانا" كتابها المصور وتتظاهر
بالقراءة، لكني أعرف أنها تعجز عن التركيز في الكلمات. فالكلمات ترقص
بالطريقة التي ترقص بها في كثير من الأحيان داخل رأسي، وتجد صعوبة
في الوقوف في طابور انتظار قبل الخروج من فمي.



الفصل الثاني



استقرت شوكتا التبن على أرض المزرعة وقد تشابكت أسنانهما، مثل أصابع يدين في صلاة.

لا أجد "أوبي" في أي مكان. أبحث عنه داخل الحظيرة الخاوية، التي تملؤها رائحة الدم الجاف، وحيث التصق ذيل بقرة بشكل غريب في الأرض. لم يدخل أحد إلى هنا منذ أن أخذوا الأبقار. واصلت البحث حتى رقعة زراعة الخضروات، حيث وجدت أخي منهارًا على الأرض بجوار نباتات الشمندر. كتفاه ترتجفان. أراقبه من بعيد وهو يحمل جذر شمندر ميتًا بين ذراعيه ويدفع إصبعه بغضب في التربة ليزرع بذورًا جديدة، بحركة ذكرتني بإصبعه بين أردافي. لكنه يدفع هذه المرة بقوة أكبر. تقطع يد "أوبي" الأخرى الأوراق عن جذر الشمندر؛ لو كان في حالة مزاجية

مبدة، سينتف ريش الطيور أيضًا. لم يكن سببًا في أي مما حدث هنا.. لقد حضر الموت.. هكذا وحسب. ألف ذراعيَّ حول معطفي. ما زلنا في نوفمبر ،لكننا كدنا نتجمد من البرد في الليلة الماضية.

أجبر "أوبي" نفسه على النهوض. التفت فرآني واقفة. تذكرت آية من سفر "الخروج": "**إِنْ رَأَيْتَ حِمَارَ عَدُوِّكَ وَقَدْ رَبَضَ تَحْتَ حِمْلِ ثَقِيلٍ، فَلَا تَتْرُكْهُ، بَلْ تُسَاعِدُ فِي فَكِّ حِمْلِهِ**". ابتسمت في وجه "أوبي" لأطمئنه بأنني لا أحمل له خبرًا سيئًا، وأنني دائمًا ما أتينه في سلام، على الرغم من أنني أحيانًا ما أتوق لأن أتيه بحربٍ قاتلة، بالطريقة نفسها التي أتناول بها لعبة مكسورة أحيانًا وأحضرها إلى رقعة زراعة الخضروات لأدفنها بين البصل الأحمر إلى جوار الملاك مكسور الجناح؛ لكنني أعرف أنه يتعين علينا أن ننتمي إلى عائلة أفضل لنتمكن من دفن طفولتنا؛ علينا أن نرقد تحت الأرض، لكن الوقت لم يحن لذلك بعد. ما زالت لدينا مهامنا التي أبقتنا على أقدامنا حتى الآن؛ على الرغم من "أوبي" الذي جلس على ركبتيه فوق الأرض الرطبة، وهو ينظر إليَّ بنظرة متحجرة. ظللت أحك حذاء المزرعة في الأرض.. سرت قشعريرة باردة في ذراعيَّ. بنطال منامتي فضفاض حول خصري. يقف "أوبي".. لا يزال أثر الدموع في وجهه. ينفض الطين عن منامته المقلمة. إن الأشياء التي تؤثر فينا سوف تؤدي إلى انهيارنا؛ تمامًا مثل قطعة الجبن المفتتة.

يقف "أوبي" قبالتي. حاجباه الكثيفان مثل أسلاك شائكة فوق عينيه، تحذِّر بعدم الاقتراب أكثر. يمسح خديه بظهر يده، التي تقبض على

نباتات ذابلة. جذور الشمندر مجعدة عند أطرافها وعليها آثار عفن، وأوراقها بنية. يهمس لي:

– عليكِ أن تنسي ما رأيتِه للتو.

أومأت برأسي في تفهم، وأنا أنظر إلى البن المطحون الذي نذروه حول القرنبيط لإبعاد الآفات عنه. هل أمي وأبي آفتان تنهشان فينا؟ يستدير "أوبي" على عقبيه. هناك أثر تربة مبللة في سترة منامته. لأول مرة، أتخيلني أحفر حفرة في رقعة زراعة الخضروات، وأدفن فيها "أوبي". ثم أردم تلك الحفرة، وأدع الصقيع يغطيها كما نفعل مع اللفت، على أمل أن يخرج بعد ذلك في حال أفضل. عندئذ، سوف أحصل على نسخة أفضل من أخي، وسأقدم له حينها بسكويت الحليب في سعادة عندما يفيض البسكويت عن حاجتي.. أخ لا أخجل منه في المدرسة. أقول له: "لا تلعن طالما أن الرب لا يلعن؛ لا تسب طالما أن الرب لا يسب".

توقف "أوبي" عند عربة اليد التي جلست فيها أمي عندما التوى كاحلها. تجمعت فيها بعض مياه المطر. ركلتها بغضب فانقلبت، وانسكب منها الماء على الأرض حول كعبي حذاء "أوبي". ترقد عربة سباق "ماتياس" صدئة إلى جوار عربة اليد. وقد بهت لون المقعد الجانبي الأحمر وتمزق ظهره الجلدي. لم يلعب بها أحد منذ وفاته. يبتسم "أوبي"، ويقول:

– هل أنتِ طيبة هكذا دائمًا؟

- كل ما أريده هو ألا تسب؛ أتود أن يموت أبوك أو تموت أمك؟

- هما ميتان بالفعل.

يحرك إصبعه بعرض رقبته في دلالة على الذبح.

- وأنتِ ستموتين عما قريب.

- أنت كذاب.

- ما لم تقدمي تضحية.

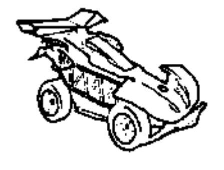
- تضحية؟

- سوف أريكِ في الوقت المناسب.

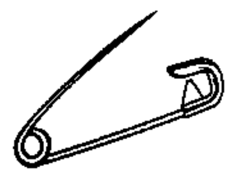
- ومتى سيكون الوقت مناسبًا؟

- عندما يصبح لون الطماطم قاني الحمرة، فلو تركتِها دون قطفها فترة أطول من اللازم، فإن الثمرة تنشق ويدخلها العفن. لذا فمن المهم تحديد اللحظة المناسبة لقطفها.

ابتعد "أوبي" عني، وهو يحمل تحت إبطه رؤوس الشمندر البنية الذابلة. أرمق أثرها الطيني في منامته، بينما أقف في حيرة.



الفصل الثالث



يضع أبي تماثيل الأبقار الفضية واحدًا تلو الآخر في كيس القمامة ثم يسحب الرباط الأصفر من جانبي فتحة الكيس، فتبدو الفتحة مثل مؤخرة بقرة انقبضت.

توقف للحظة وهو يمسك بكيس القمامة. أرمقه من فوق كتاب الطبيعة الذي أطالعه؛ شعره المغسول للتو والذي مشطه بعناية إلى جانب رأسه، فبدا أثر أسنان المشط في شعره مثل محراث مر في تربة حقل، وقد دس سيجارة بين شفتيه. جعلته تصفيفة الشعر يبدو أقرب في الشبه إلى "هتلر"، لكنني لم أخبره بذلك؛ ربما يعتقد حينها أنني أكرهه هو أيضًا، وربما بعد ذلك يرحل إلى حيث يكون أقرب إلى التراب، أقرب إلى قبر "ماتياس"، وهو قبر مزدوج، لا

يزال فيه مكان لفرد آخر من الأسرة: "من يأتي أولًا يدخله أولًا"، هكذا تحدثت عنه أمي ذات مرة. وأتمنى ألا يتنافسا على ذلك.

في ذكرى وفاته وفي عيد ميلاده، نذهب إلى المقبرة المجاورة للكنيسة الإصلاحية، حيث تفوح رائحة الموت من أشجار الصنوبر. وعندما نصل إلى قبره، تنظف أمي صورته بقليل من البصاق ومنديل، كما لو أنها تمسح بقايا حليب وهمي من حول فم "ماتياس". ينير أبي المصباح ويسقي النباتات والزهور حول القبر. ينسحق الحصى تحت أقدامنا كلما تحركنا. أحرص على أن أبقى مكاني قدر الإمكان، حتى لا أصطدم بأمي دون قصد. لا نتكلم. أتأمل القبور المحيطة بقبر "ماتياس". أرى قبر فتاة سقطت من على زورق في الصيف ومزقت مروحة المحرك جسدها. وقبر امرأة وضعوا تمثال فراشة ضخمًا على قبرها، لأنها حلمت بالطيران ولم يكن لديها جناحان. وقبر رجل لم يعرفوا أنه مات إلا بعد أن فاحت رائحته. يقول الإنجيل إنه سيأتي يوم تنشق فيه كل القبور عن أصحابها، ليعود الأموات إلى الحياة. كثيرًا ما أرعبتني هذه الفكرة: تخيلت كل الجثث وهي تخرج من الأرض وتسير عبر أرجاء القرية في موكب رهيب، بأسنان عجفاء وأعين جوفاء. ويقرعون الأبواب مدعين بأنهم يعرفونك ويصيحون بأنهم أقاربك. أتذكر آيات سفر "رسائل بولس الرسول إلى أهل كورنثوس" التي قرأتها لي الجدة ذات مرة، عندما وجدتني قلقة من ألا نتعرف على "ماتياس" حين يعود: "يَا غَبِيُّ! الَّذِي تَزْرَعُهُ لاَ يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ. وَالَّذِي تَزْرَعُهُ، لَسْتَ تَزْرَعُ الْجِسْمَ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ، بَلْ حَبَّةً مُجَرَّدَةً، رُبَّمَا مِنْ حِنْطَةٍ أَوْ أَحَدِ

الْبَوَاقِي. وَلَكِنَّ اللهَ يُعْطِيهَا جِسْمًا كَمَا أَرَادَ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْبُزُورِ جِسْمَهُ. لَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ جَسَدًا وَاحِدًا، بَلْ لِلنَّاسِ جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَلِلْبَهَائِمِ جَسَدٌ آخَرُ، وَلِلسَّمَكِ آخَرُ، وَلِلطَّيْرِ آخَرُ. وَأَجْسَامٌ سَمَاوِيَّةٌ، وَأَجْسَامٌ أَرْضِيَّةٌ. لَكِنَّ مَجْدَ السَّمَاوِيَّاتِ شَيْءٌ، وَمَجْدَ الأَرْضِيَّاتِ آخَرُ". لم أفهم.. لماذا اضطررنا إلى زرع "مانياس" في الأرض مثل بذرة في حين أنه كان مزدهرًا فوق الأرض. لا نعرف متى يحين موعد الرحيل إلا عندما يستدير أبي على عقبيه. عادةً ما أمر بيدي على جذوع الصنوبر وأنا أمشي بجانبها، كما لو كنت أقدم للموت تعازي الحارة، واحترامي، وخوفي.

يبدو أن أبي ثبت خصلات شعره المهندمة بالفازلين. لا أريد أن يراه اليهود وهو بهذه الهيئة عن طريق الفجوات الموجودة في لوح خشب الأرضية، سوف يخيفهم دون داعٍ ودون أن يعرف أو يقصد. على الرغم من أنني أشك من الأساس في أنهم ما زالوا يعيشون في القبو. فالقبو هادئ جدًا والشتاء يقترب الآن، يصبح الجو تدريجيًا شديد البرودة هناك في الأسفل. إنها مسألة وقت قبل أن تتجمد أجسادهم، وتصير مثل زجاجات عصير العنب الأسود. سوف أضعهم حينها في مخزن التبن حيث المكان دافئ قليلًا.



أواصل قراءة كتاب الطبيعة، الذي يتحدث عن النمل وقدرته على التحمل، وأتمنى من أجل خاطر أمي أن يكون اليهود هناك في القبو؛ فقد

قرأت أنك لو أخذت من النملة الملكة رعاياها، فإنه لا يمضي وقت طويل قبل أن تموت من الوحدة؛ والعكس صحيح، حيث يموت رعاياها لو أنها غابت عنها. من دون أمي، لن يتمكن أبي، الذي يربط الآن كيس القمامة، من البقاء على قيد الحياة فترةً طويلة. فاز ذات عام بميداليتين فضيتين عن بقرتيه "بودي" و"ويجن"، لأنهما أنتجتا مئة ألف لتر من الحليب. كانتا بقرتي الحليب المفضلتين لديه، حتى إن صورتهما نشرتا في صحيفة الكنيسة. في ذلك الأحد، صافحنا الجميع بعد القداس وتناولنا قطعًا مجانية من كيكة إسفنجة بالفانيلا في أحد الأركان، حيث اعتاد الناس الجلوس للتحدث في موضوع عظة الأسبوع. للحظات، تخيلت أبي وكأنه يشع ضوءًا مقدسًا بين رعايا الكنيسة، مثل نجوم توهجت في ظلمة السماء. تحدث معهم وهو يؤكد كلامه بحركات قوية من يده، وابتسامة عريضة على وجهه؛ الابتسامة نفسها التي أراها كلما باع عجلًا لتاجر ماشية. تأملته وفكرت: هذا ليس أبي، بل هذا غريب سنعود معه إلى المنزل عمًّا قريب، رجل سيفقد نوره عندما يستعيد الآخرون من حوله نورهم مرة أخرى. لهذا كان علينا أن نبقى نحن في الظلام، حتى يُبرز ذلك التباين نور أبي. أُعجبت به وبالطريقة التي حكى بها للناس عن النجاح الذي حققته بقرتاه "بودي" و"ويجن". عليك في بعض الأحيان أن تسوِّق لنفسك بين الناس؛ وهو شيء علينا أن نتعلمه يومًا ما.. يجيد أبي فعل ذلك، وذات يوم سيُبرم صفقة يحدد بها مصيري أنا و"هانا"؛ على الرغم من تلهفنا لأن يكون مصيرنا بين أيدينا. في أثناء استماعي لحديث أبي يوم

الأحد، التقطتُ الحواف الداكنة للكعكة ودسستها في جيب معطفي. عقدت العزم على أن أقف فوق حافة الأريكة في منزلنا وأقدم تلك الحواف لأمي، مثل ديدان متدلية من مناقير طائر "زرزور" صغير. كدت أسألها إن كان من الممكن وضعها على قبر "ماتياس"؛ كان يحب الكعكة، وبخاصة الطازجة الطرية، ذات الكريمة المخفوقة ورشات من الشوكولاتة، لكني قلت لنفسي إن ذلك قد يجذب الديدان والخنافس إلى القبر.

رأيت أبي من النافذة وهو يضع كيس القمامة في الحاوية السوداء. عندما عاد، جلس على كرسيه المخصص للتدخين بجوار النافذة. يغيب وجهه وسط دخان سيجارته. ودون أن ينظر إليَّ، يقول:

- ما كان ينبغي لنا أن نعلق عجلًا في الشجرة احتجاجًا على ما حدث، بل كان يجب أن نتعلق نحن بدلًا منه. كان من شأن هذا أن يحرك قلوب هؤلاء الكفرة القذرين، هؤلاء المخنثين.

ها هو يسب. أتخيل أبي معلقًا من قدميه وقد تدلى لسانه من فمه. الآن، سيهدد على الأرجح بالرحيل نهائيًا. يسألني الآن عمَّا إذا كنت لا أزال أتذكر قصة الرجل الذي ركب دراجته ذات يوم ووصل بها إلى حافة العالم. ولكن، في أثناء قيادته لها، اكتشف أن المكابح لا تعمل، ولكنه لا يشعر بالقلق إزاء ذلك، لأنه الآن، لن يضطر للتوقف لأجل أي شيء أو لأجل أي شخص. يتجاوز الرجل الصالح بدراجته حافة العالم ويظل يتعثر، تمامًا كما كان يتعثر طوال حياته، ولكنه الآن تعثُّر لا نهاية له. هكذا هو

الشعور بالموت؛ مثل سقوط سرمدي لا نهوض منه. أحبس أنفاسي. أدانتني القصة بعض الشيء. ذات مرة، ثبتُّ و"هانا" أغطية زجاجات الماء الغازية على السلوك المعدنية الرفيعة لعجلتيّ دراجة أبي حتى لا يتمكن من اللحاق بذلك الرجل سرًّا. لم أكن أدرك أن أبي كان ذاك الرجل. أبي هو من يتعثر وينهار.

- هل دخلتِ الحمَّام؟

توترت عضلات جسدي فورًا. تمنيتُ للحظة أن يغطيه دخان السجائر الكامل ليختفي بعض الوقت. لم يخرج مني أي شيء سوى سائل الحليب الشوكولاتة.. لا يستحق حتى أن أمنحه اسمًا. يتحدث أبي عن براز مفيقي، من ذلك النوع الذي تحاول جاهدًا وأنت تتخلص منه.

- وما هذا الهراء الذي تقرئينه؟ الأفضل أن تمسكي الإنجيل وتقرئين.

أغلقتُ كتاب الطبيعة مصدومة. يمكن للنملة أن تحمل ما يصل إلى خمسة آلاف ضعف وزنها. بالمقارنة، إن الإنسان أضعف من النملة؛ فهو بالكاد يستطيع حمل ما يساوي وزن جسده، ناهيك بثقل أحزانه. أرفع ركبتيّ نحو جسدي لأحمي نفسي. يطفئ أبي رماد سيجارته في فنجان قهوته. يعلم أن أمي تكره قيامه بذلك، وتقول إنه يفسد مذاق القهوة بطعم التبغ العالق.. السبب الرئيسي للوفاة.

- إذا لم تتبرزي، فلسوف يكون عليهم إحداث فجوة في بطنك، ليخرج الخراء منها في كيس. أتريدين أن يفعلوا بكِ ذلك؟

ينهض أبي عن كرسي التدخين ليشعل النار. يكدس قطع الحطب ويكدس همومه فوقها؛ تشتعل الهموم في أذهاننا المحمومة. كلنا نريد الدفء الموجود في هموم أبي، على الرغم من أنها تحترق بسرعة ولا تصدر الكثير من الدفء.

أهز رأسي أن لا. أود أن أخبره عن "أوبي" وإصبعه، وأن كل شيء على ما يرام. وفي الوقت نفسه، لا أريد أن أحبطه، فعليك ألا تُشعر أحدًا بأن لا فائدة تُرجى منه، فقد يعتريه الصدأ.

- أنتِ لا تمنعيه عن قصد، أليس كذلك؟

أهز رأسي أن لا.. ثانيةً.

يقترب أبي مني. يحمل في يده عود إشعال الحطب. عيناه مظلمتان.. ضاعت زرقتها في عمق حدقتيه.

- حتى الكلاب تتبرز. أريني بطنك.

أنزل ساقيَّ ببطء إلى الأرض. يمسك بأطراف معطفي، فأتذكر الدبوس الذي غرسته في بطني. إن رآه أبي، فسيجذبه بخشونة، مثلما يجذب الوسم من أذن بقرة نفقت. لن يصحبنا أبي وأمي في عطلة بالتأكيد، لأن المكان الوحيد الذي أريد الذهاب إليه هو نفسي.

- أصدقائي.

يأتينا الصوت من خلفنا. يفلت أبي معطفي. يتغير تعبير وجهه في الحال: غالبًا ما تصفو السماء على نحو غير متوقع في المناطق غير الساحلية، كما تقول "ديفيرتجي بلوك" في البرنامج التلفازي الذي يسبق عيد الميلاد. لقد عادت للظهور في التلفاز منذ أسبوع. في بعض الأحيان تغمز لي، فأتيقن حينها من أن ما نقوم به صحيح؛ وأنها ستراقب وتهتم بكل شيء ما إن نرحل أنا و"هانا". يطمئنني هذا بعض الشيء. يفتح أبي باب الموقد ويلقي بالعصا فيه.

- البقرة سليمة من المقدمة ولكن هناك ما يتعبها في مؤخرتها.

تتنقل نظرات البيطري بيني وأبي. ينظر إليَّ بالنظرة نفسها التي يفحص بها البقرة. يومئ البيطري برأسه ويفتح أزرار سترته الخضراء واحدًا تلو الآخر. يبدأ أبي بالتنهد الآن.

- لديها مشكلة في فتحة الشرج.

أتذكر جميع قطع الصابون التي أخفيتها في درج المنضدة جوار الفراش. هناك ثماني قطع. يمكنني أن ألوث بها المحيط بأكمله. سوف أغسل جميع الأسماك وكلاب البحر وأسماك القرش وفرس البحر. وبعد أن أنتهي من غسلها، سأصنع لها حبل غسيل وأعلقها بمشابك أمي.

- زيت زيتون وتنويعة في العلف.

المخاط يسيل من أنفه، فيمسحه بطرف كمه.

أقبض على كتاب الطبيعة بقوة. نسيت أن أطوي طرف الصفحة التي توقفت عندها. تمنيت لو كان هناك من يقوم بذلك لأجلي حتى لا أنسى أين توقفت، وحتى أعرف أين أواصل قراءة نصتي، وحتى أعرف ما إذا كنت سوف أكملها هنا، أم على الجانب الآخر.. أرض الميعاد.

يستدير أبي على عقبيه، ويتجه إلى المطبخ. سمعته يبحث في خزانة الأعشاب. عاد ومعه زجاجة زيت زيتون قديمة. توجد قشور صفراء حول حافة الغطاء. نحن لا نستخدم زيت الزيتون في الطعام. أبي هو الوحيد الذي يستخدمه أحيانًا في تشحيم مفصلات الأبواب لمنعها من الصرير.

- افتحي فمك.

أرمق البيطري. يتجاهلني بالتحديق في صورة زفاف أمي وأبي على الحائط. الصورة الوحيدة التي ينظران فيها إلى بعضهما بعضًا، والوحيدة التي ترى فيها حالة حب، على الرغم من أن ابتسامة أمي حائرة على شفتيها بينما يجثو أمامها أبي في منظر غريب على ركبة واحدة فوق العشب، وساقه المشوهة لا تظهر واضحة في اللقطة. ما زال جسداهما نضرين، كما لو كانا قد غطياهما بطبقة من زيت الزيتون لأجل اللقطة. يرتدي أبي بدلة بنية وأمي فستانًا أبيض بلون الحليب. كلما تأملت الصورة، يزداد شكي في

.دن ابتسامتهما، وكأنهما يعرفان بالفعل ما يخبئه لهما المستقبل، بينما
مع الأبقار من حولهما في الحقل مثل وصيفات الشرف.

قبل أن أقاوم، كتم أبي أنفي، ثم قرب الزجاجة من فمي، وصب الزيت
..اخله. شعرتُ بحشرجة في حلقي، فتركني أبي.

- يكفي هذا.

أحاول ابتلاع الزيت سيئ المذاق فأسعل عدة مرات. أمسح فمي في
،كمتي، وكأنني أدهن صينية بالزيت قبل إدخالها الفرن، وأحمي بطني
بذراعي. لا تتقيئي.. لا تتقيئي وإلا ستموتين. يشير أبي إلى البيطري فيتبعه
إلى الخارج. لا أسمع ما يقولانه. وكل ما أتمناه في تلك اللحظة أن يلتقط
الرب ذات يوم هذه المزرعة مثلما تفعل أسنان آلة التحميل ويلقي بها بعيدًا.
أقبض على بطني بقوة. أود أن أتبرز، ولا أود أن أتبرز. أيكون الحل في أن
يدس "أوبي" في مؤخرتي شيئًا أكبر؟ ولو خرج البراز، فلسوف أطوي
مناديل المرحاض بعناية: المعروف أنها ثمانية مناديل للبراز وأربعة للبول،
وأحرك يديَّ وأنا أمسح مؤخرتي مثل جاروف السماد. هل عليَّ أن أشرب
تلك المادة التي تحدث ثقوبًا في الجبن عندما تضيفها أمي إليها؟ أم أن ذلك
سيتسبب في ثقوب بداخلي أيضًا، وحينها سيخرج كل شيء؟

الفصل الرابع



أهرس البروكلي في صحني، وأنا أتخيله أشجار عيد ميلاد متمنمة.

تذكرني بذلك المساء الذي لم يعد فيه "ماثياس" إلى المنزل، وبالساعات التي قضيتها جالسة عند النافذة ومنظار أبي يتدلى من رقبتي. كان من المفترض بي أن أستخدمه في البحث عن نقار الخشب، ولكنني لم أعثر لا على نقار الخشب ولا على أخي. ترك رباط المنظار أثرًا أحمر في قفاي. آه لو أمكنني أن أقرّب ما صار بعيدًا بمجرد النظر عن طريق العدستين الكبيرتين للمنظار. عندئذ، كنت سأبحث به في السماء طويلًا عن الملاكين الصغيرين اللذين أخرجتهما أنا و"أوبي" سرًّا من الصندوق في العلية بعد أسبوع من وفاة أخينا. فركناهما بقوة؛ بينما يقول "أوبي" في تأثر: "ملاكي الصغير"، فأجيبه: "تمثالي الخزفي الصغير الجميل"،. قبل أن نتركهما ليسقطا من

النافذة العلوية في مصرف مياه الأمطار. ومع الوقت، تحولا إلى كتلتين بلون أخضر. بعضها مدفون تحت أوراق شجر البلوط. وفي كل مرة نذهب للتحقق مما إذا كانت لا تزال هناك، ونشعر بخيبة أمل. فإذا كانت الملائكة قد فقدت قدرتها على الطيران بعد انتكاسة بسيطة مثل هذه، فكيف يمكن أن تكون مع "ماتياس" في الجنة؟ كيف يمكنها حمايته وحمايتنا؟

في النهاية، أغلقت غطائي عدستَيْ المنظار وأعدته إلى علبته. لم أخرجه مرة أخرى إطلاقًا، ولا حتى عندما عاد نقار الخشب.. قررت ألا ترى العدستان سوى السواد إلى الأبد.

تناولت ملعقة كبيرة من البروكلي. نتناول دائمًا وجبة ساخنة في الغداء. أما في المساء، فكل شيء بارد هنا.. فناء المزرعة، والصمت بين أمي وأبي، وقلوبنا، ووجبة الخبز مع السلطة الروسية. لا أعرف كيف أجلس على كرسيّ. أتحرك فوقه قليلًا في محاولة لاستشعار فتحة مؤخرتي الملتهبة، التي تذكرني بإصبع "أوبي" قليلًا. يجب ألا أقول أي شيء عمَّا حدث، وإلا جعل أخي أرنبي باردًا مثل تلك الأمسيات. لا بدَّ وأنني أردت هذا، أليس كذلك؟ أم أن البقرة في محاولتها لاتقاء شر الثور، تعطيه مؤخرتها؟

تسمرت عيناي على سماعة الطبيب التي وضعها الطبيب إلى جانب صحنه. إنها ثاني مرة أرى فيها واحدة حقيقية. رأيتها ذات مرة في القناة الأولى، لكنهم لا يعرضون الجسد الذي توضع السماعة عليه، لأن هذا مشهد عري. أتخيل اللحظة السماعة الطبية على صدري العاري، والبيطري يضعها

في أذنيه ويقول لأمي: "أعتقد أن قلبها ممزق. أهذه وراثة في العائلة، أم أنها أول مرة؟ أنصح بأن تذهب إلى الساحل حيث الهواء نقي. يلمس كل هذا السماد السائل ملابسكم النظيفة ولذا يصاب القلب بالعدوى أسرع".

أتخيله وهو يخرج سكين "ستانلي" من جيب سرواله، مثل تلك التي يستخدمها أبي لقطع حبال العلف الأخضر. ثم يرسم خطوطًا على صدري بقلم لبدي. أفكر في الذئب الكبير الشرير الذي أكل الماعز السبعة الصغيرة، وكيف فتحوا أحشاءه حتى يخرجوها حية منها.. ربما تخرج فتاة كبيرة من داخلي، وتتحرر من مخاوفها، فتاة اختبأت فترة طويلة تحت طبقتين. جلدي ومعطفي. وعندما يرفع السماعة عن جلدي، سيضطر إلى وضع أذنه على صدري، وعن طريق الشهيق والزفير، يمكنني رفع رأسه لأعلى ولأسفل حتى يفهمني. أريد أن أقول له إن الألم في كل مكان، ثم أشير إلى أماكن في جسدي لم يرَها أحد من قبل: من أصابع قدمي إلى قمة رأسي وكل شيء بينهما. يمكننا رسم خطوط إرشادية تربط بين حبات النمش، لنمنح أنفسنا حدودًا أو لنصنع شكلًا، تمامًا مثلما نفعل بتلك النقاط في الصور. ولكنه إن لم يسمع توسلاتي، فسيتعين عليَّ إبعاد المعدن عن صدري، وفتح فمي على اتساعه لإدخال طرف السماعة المستدير إلى أسفل حلقي قدر إمكاني. عندئذ، سوف يستمع. ولكن الاختناق ليس بالعلامة الجيدة أبدًا.

يلكزني "أوبي" في جانب صدري.

– هيه.. أنتِ.. "ياس".. ناوليني الصلصة من فضلك.

ناولتني أمي إناء الصلصة مكسور اليد. هناك قطع من الدسم تطفو في
ه. ناولته بسرعة لـ"أوبي" قبل أن يسألني فيما كنت أفكر. سوف يبدأ في
، ة جميع الأولاد في المدرسة، بينما الصبي الذي أفكر فيه كثيرًا هو ذاك الذي
ف دراجته عند اللوحة التذكارية. لم تكن الأمور مبهجة هذه الأيام على أي
ال، فقد رحلت الأبقار وها هو الطبيب البيطري يتحدث عن تأثير جنون
ر في جميع مزارعي القرية. لا يرغب معظمهم في التحدُّث عن ذلك، وهؤلاء
م الأكثر خطورة، كما يقول، وعما قريب ينهارون ويُقدِمون على فعل أمور
ونية. يقول له أبي من دون أن يرفع عينيه عن صحنه:

- يصعب عليَّ تفهم ذلك. ولكن التحكُّم في الأمور مهم.

رمقت "أوبي"، الذي يكاد يمس صحنه برأسه، كما لو كان يدرس
وام البروكلي ويرى ما إذا كان يمكنه استخدام زهيراته مظلاتٍ نخفي
أنفسنا تحتها. أستطيع أن أتبين من قبضتيه المحمرتين أنه غاضب مما
قاله أبي، أو مما لم يقله أبي. ندرك جميعًا أن أمي وأبي يمكن أن يكونا
شخصين ثقيلين أيضًا، مثل تلك الأثقال التي نستخدمها لتثبيت أطراف
الستائر في الأرض. أستمر في مراقبة البيطري. يمر بين الحين والآخر
بلسانه على الحد المعدني الفضي لسكينه. لسان جميل.. قرمزي. أتذكر
النباتات في صوبة أبي، وكيف يستخدم سكينًا في تطعيم النبتة بنبتة
أخرى، ثم يربطهما معًا. أتخيل لسان البيطري يلامس لساني. هل أباعد
بينهما عندئذ؟ عندما دست "هانا" لسانها في فمي للحظة، تذوقت فيه

طعم آخر قطرة عسل. سألت نفسي عمَّا إذا كان لسان البيطري بطعم العسل، وهل سيهدئ ذلك دغدغة الحشرات في بطني؟

يجلس أبي إلى الطاولة ورأسه بين يديه. لم يعد يستمع إلى البيطري الذي يميل فجأةً إلى الأمام ويهمس لي:

- أعتقد أن معطفك يبدو جميلًا عليك.

لا أعرف لماذا يهمس، فالجميع يسمعون صوته على الرغم من ذلك، فإنني رأيت بعض الناس يهمسون في كثير من الأوقات، كما لو كانوا يريدون من الجميع أن يتوقفوا وينصتوا للحظة لهم، كأنهم مغناطيس، قبل أن يعودوا جميعًا إلى ما كانوا عليه. إنه نوع من حب السيطرة تحسرت على عدم وجود "هانا" التي كانت في منزل إحدى صديقاتها كانت لتسمع بنفسها أن إنقاذنا قريب. ربما يجب أن أنسى واقعة مغرفة الجبن. جعلتني أفقد بعضًا من ثقتي به، تمامًا مثلما حدث في تلك المرة، وكنت في السنة الرابعة الابتدائية، التي دعاني فيها أبي إلى الطاولة. وكانت هذه أول وآخر مرة نتحدث فيها معًا عن أمر لا تكون الأبقار محوره.

- أود أن أخبرك بشيء.

لحظتها، تحسست سطح الطاولة بحثًا عن سكين أو شوكة.. شيئًا أتشبث به، ولكننا كنا بعد العشاء بوقت طويل، ولا أشواك أو سكاكين هناك.

- لا وجود لـ"بابا نويل".

لم ينظر أبي إليّ وهو يخبرني بذلك، بل حدّق إلى فنجان القهوة، الذي يداعبه بين يديه. تنحنح أبي، ثم أردف:

- إن الذي يلعب دور "بابا نويل" في المدرسة هو "تيير"، الزبون الذي يشتري منا الحليب بانتظام.. ذلك الأصلع.

تذكرت "تيير"، والذي يداعبنا أحيانًا بطرق رأسه بأصابعه، وإصدار أصوات مضحكة من فمه. وكنا نحب ذلك منه في كل مرة. عجزت عن تخيُّله بلحية بيضاء ورداء أحمر. حاولت أن أقول شيئًا، لكن حلقي كان ممتلئًا مثل مقياس المطر في الحديقة. وفي النهاية.. بكيت. قلت إن كل شيء كذبة؛ الجلوس أمام المدفأة، وإنشاد أغاني عيد الميلاد على أمل أن يسمعنا "بابا نويل"، وثمرات اليوسفي التي نجدها في أحذيتنا والتي تكسب جواربنا رائحة حمضية. ربما كانت "ديفيرتجي بلوك" كذبة أيضًا. عرفت أن التزامنا بحسن السلوك لكيلا يضعنا "بابا نويل" في جواله وينقلنا إلى إسبانيا مجرد جهد ضائع.

- وماذا عن "ديفيرتجي بلوك"؟

- هي حقيقية.. لكن "بابا نويل" الذي في التلفاز مجرد ممثل.

نظرت إلى قطع الكعك الصغيرة التي وضعتها لي أمي في مرشّح قهوة. كانت تزن كل شيء تعطينا إياه بعناية، حتى هذا البسكويت الصغير المتبل.

تركتها كما هي على الطاولة، وتدفقت دموعي. نهض أبي وأحضر منشفة شاي وجفف بها دموعي بقوة. استمر في التجفيف على الرغم من أنني توقفت عن البكاء، كما لو كان على وجهي ورنيش أحذية؛ من النوع الذي يغذي وهم "بابا نويل". أردت أن أطرق على صدره بالطريقة التي كان يطرق بها الباب لسنوات، ثم أهرب في الليل ولا أعود. لقد كانوا يكذبون عليَّ طوال الوقت. ومع ذلك، وعلى مدى السنوات التي تلت ذلك اليوم، حاولت أن أومن بوجود ذلك القديس تمامًا كما كنت أومن بالرب؛ طالما يمكنني تخيله أو رؤيته على شاشة التلفاز، أو كان لديَّ ما أتمناه أو أصلي من أجله.

يدس البيطري آخر قطعة بروكلي في فمه، ثم يميل إلى الأمام مرة أخرى، ويضع سكينه وشوكته متصالبين على صحنه.. انتهى من تناول الطعام.

- كم عمركِ؟

- اثنا عشر.

- أوشكتِ على بلوغ مرحلة الاكتمال إذًا.

علَّق "أوبي" ساخرًا:

- تقصد على الجنون.

يتجاهله البيطري. شعرت بفخر لفكرة أنني على وشك الاكتمال والاستعداد لشخص ما، على الرغم من أنه أمر أشبه بانفصال أجزائي عن بعضها أكثر فأكثر؛ فإنني أعلم أن الاكتمال علامة جيدة دومًا. فقد اكتملت

مجموعتي من أغطية الحليب.. تقريبًا؛ فليس هناك سوى ثلاث علب بلاستيكية فارغة، لذا سأشعر في مرحلة معينة بالشعور نفسه الذي يراودني وأنا أقرأ ملفي وأتذكر جميع الألعاب التي ربحتها وخسرتها. وعلى الرغم من صعوبة أن تقرأ نفسك، ولكن ربما يكون ذلك ممكنًا وقت أن تكون بالغًا، وقت أن يثبت طولك، ولا تترك تلك العلامة بالقلم الرصاص على عمود الباب، ويستمر طولك الجديد في ملازمتك بقية حياتك. كانت "رابونزل" في الثانية عشرة من عمرها عندما كانت محبوسة في البرج وأنقذها الأمير. ولا يعرف الكثير من الناس أن اسمها هو الاسم الألماني لنبتة خس النعجة.

يحدق البيطري إليَّ:

- لا أعرف لماذا ليس لديك صديق حتى الآن. عندما كنت في عمرك، كنت أعرف ماذا أفعل.

تسخن وجنتيَّ مثل جوانب إناء الصلصة. لا أعرف ما الفارق، ولماذا كان يعرف ماذا يفعل وهو في الثانية عشرة من عمره، ولكنه عندما كبر إلى هذا العمر الذي يتخطى عمر والدي لم يعد يعرف ما يفعل. ألا يفترض أن يعرف الكبار كل شيء؟

- سوف تمطر غدًا.

قالها أبي بغتةً. لم يكن ينصت إلى كلامنا. واستمرت أمي في التنقل بين

رخامة المطبخ والطاولة، حتى لا يلاحظ أحد أنها بالكاد تأكل شيئًا. قرأ
في كتاب الطبيعة أن للنملة معدتين؛ واحدة لها والأخرى لإطعام بقية
النمل. وقد أثرت فيَّ تلك المعلومة. رغبت في أن تكون لي معدتان.. ثم
أستخدم إحداهما في إطعام أمي.

يغمز البيطري لي. قررت أن أحكي عنه لـ"بيل" غدًا. صار لديَّ أخيرًا
من أهمس بحكايات عنه. لن أحكي لها إن لديه الكثير من التجاعيد، وأن
عندها أكثر من التجاعيد في مفرش مائدة غير مكوي، ولن أحكي لها أنه
يسعل مثل عجل مصاب بحمى الخنازير، وأنه ربما يكون أكبر من أبي، وأن
منخاريه يتسعان لثلاث أصابع من البطاطس. سوف أحكي لها أنه أخذ
وسامة من "بودويجن دي جروت". وهي معلومة تذكُر أنها عظيمة. قبل
المدرسة، كثيرًا ما أجلس و"بيل" في غرفتي في العلية لنستمع إلى موسيقاه
وعندما نشعر بحزن شديد؛ لأن "بيل" تشعر أحيانًا بإحباط شديد عندما ا
يرسل لها "توم" حرف X كبير – إشارة إلى قبلة – في نهاية رسالته، بل
يكتفي بحرف x صغير، على الرغم من أن الحرف الكبير يظهر تلقائيًا
عندما تأخذ مسافة بعده. وهكذا كان عليه أن يستبدل الحرف الكبير
بالصغير.. المهم.. عندما نشعر بحزن شديد، نقول لبعضنا: "بداخلي فراشة
غارقة". ثم نومئ لبعضنا ببساطة، وقد فهمت كل منا شعور الأخرى.

الفصل الخامس



أحمل الجاروف الذي ما زال يحمل قصاصات ورق بيضاء نتيجة التصاق ...سباح "أوبي" به. كنت أرتدي منامتي. دخلت الحقل الموجود خلف إسطبل العلف، والذي نسميه فيما بيننا "حظيرة الحيوانات المنوية". أحفر حفرة بجوار المكان الذي دفنا فيه "تايسي"، وحيث أعاد "أوبي" سطح التربة إلى ما كان عليه. لم يغرس عصا هذه المرة لأنه ليس بشيء نريد أن نتذكره، أو أن ننظر إليه. في أثناء الحفر، تزداد حدة الطعنات في بطني، تجعلني أتوسل الهواء، وأشد عضلات أردافي بقوة، بينما أهمس لنفسي: "اصبري قليلًا، "ياس"، تكادين تفعلينها". بمجرد أن تصبح الحفرة عميقة بدرجة كافية، ألقي نظرة سريعة حولي، لا يزال أبي و"أوبي" نائمين و"هانا" تلعب مع عرائسها الـ"باربي" خلف الأريكة. لا أعرف أين أمي، ربما تكون عند الجارة "ليان" وزوجها "كيس"، فلقد ابتاعا اليوم خزانًا جديدًا للحليب تمهيدًا لاستقبال قطيع أبقار جديد. سعته عشرون ألف لتر.

سارعت بإنزال سروال منامتي والسروال الداخلي إلى كاحليّ، وشعرت بالرياح الباردة المثلجة تهب على مؤخرتي، ثم جلست القرفصاء فوق الحفرة. فلم محاولة أخيرة لحل مشكلة البراز، بحث أبي عن حل في الكتاب المقدس مساء أمس، وصادف إشارة في سفر "التثنية": **"وَيَكُونُ لَكُمْ أَيْضًا مَكَانٌ خَارِجَ الْمُعَسْكَرِ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ. فَيَكُونُ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَصًا وَعُدَّةٌ لِيَحْفِرَ لَهُ وَيُغَطِّي فَضَلَاتِهِ بَعْدَ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ"**. أغلق أبي الكتاب المقدس في حسرة فعرفت أنه لم يجد ما يفيد لحل هذه المشكلة، لكنني حفظت الكلمات. أبقتني مستيقظة في الليل. وتقلبت في الظلام وأنا أفكر في كلمتين، "خارج المعسكر". لا بدَّ أن الرب يقصد خارج المزرعة. هل كان هذا هو المكان الوحيد الذي يمكنني فيه التبرز إذًا؟ لم أخبر أبي بأي شيء عن خطتي، لأن عدم القدرة على التبرز هو الموضوع الوحيد الذي ما زال بوسعنا التحدث عنه، الموضوع الوحيد الذي يجعلهما يرفعان أعينهما إليّ عندما أقف أمامهما في المطبخ وأرفع الـ"تي شيرت" لأريهما بطني المنتفخ مثل بيضة ذات صفارين، وأنا أشعر بالشعور نفسه، الفخر الذي يعتريني عندما تضع إحدى طيوري بيضة ضخمة.

أحني رأسي وأنظر إلى الوراء من بين ساقيّ وأنا أشعر بالضغط على مؤخرتي. لقد نجح الأمر.. سواء أكان ذلك بسبب زيت الزيتون أم آيات الكتاب المقدس. ولكن، بدلًا من براز مثل دودة بنية ضخمة تتدلى في بطء نحو الأرض، لم تسقط سوى قطع صغيرة من مؤخرتي. أستمر في الضغط بينما تسيل الدموع على وجهي المشدود.. أشعر بالدوار. لا بدَّ لي أن أستمر في إخراج كل شيء وإلا سأنفجر يومًا ما، وحينها سأبعد أكثر

ن البيت وعن نفسي. يبدو البراز أشبه ببراز أرنبي "ديفيرتجي"، ولكن الحجم أكبر قليلًا. أشبه بفطائر اللحم الصغيرة. قالت الجدة ذات مرة إن البراز يكون دلالة على صحة الجسد عندما يبدو مثل نقانق لحم دهنية. ولكن برازي بعيد كل البعد عن ذلك الآن.

يتصاعد بخار دافئ من الحفرة. أقبض على أنفي حتى لا أشم الرائحة الفظيعة، والتي وجدتها أفظع من رائحة إسطبل ممتلئ بأبقار قتلها جنون البقر. وعندما يئست من خروج المزيد من البراز، تلفت حولي بحثًا عن أوراق شجر، لأنتبه إلى أن كل شيء مدفون تحت طبقة صقيع. وأنا لا أريد أن تتجمد فتحة مؤخرتي مثل سدادة حوض الاستحمام شديدة الجفاف في الحقل والذي تشرب منه الأبقار الماء في الصيف. ولذا أسحب ملابسي إلى أعلى دون أن أنظف مؤخرتي، وأنا أحاذر حتى لا يلامسها قماش منامتي، وإلا اتسخ كل شيء. وعندما أستدير، أنحني نحو الحفرة للحظة، مثل نسر يحوم فوق فراخه. ألقي نظرة إلى البراز القابع هناك في قلب الحفرة قبل أن أردمها. أسوي الأرض بالجاروف، وأدق التربة بحذاء الحقل عدة مرات، ثم أغرس العصا حتى أتذكر المكان الذي فقدت فيه قطعة من نفسي. أغادر الحقل، وأعيد الجاروف بين بقية الأدوات، فيخطر لي أولاد الجيران الذين وجدوا في المرحاض كل الأشياء التي فقدوها: زر أزرق، ومكعب "ليجو"، ورصاصات بلاستيكية من البندقية اللعبة، ومزلاج.

وللحظة.. شعرت بأنني كبيرة.

الفصل السادس



- إن الحزن لا ينمو، ولكن مساحته داخلك تكبر.

هكذا تقول "بيل"... والكلام سهل. مساحة الحزن التي تعنيها لا تتجاوز حجم حوض ماتت فيه سمكتاها. والآن، وهي في الثانية عشرة، أصبح عندها حوض أسماك أكبر. أمّا مساحة حزني أنا، فما زالت تكبر وتكبر، وليس بوسع أحد أن يمنعها من الاستمرار في ذلك. كانت في البداية بطول ستة أقدام، واليوم هي بحجم "جالوت" العملاق في الكتاب المقدس. أومئ برأسي لكلام "بيل" في كل الأحوال. لا أُريد أن ينكسر زجاج حوض السمك ولا أريد لها أن تبكي. لا يمكنني التعامل مع من يبكون؛ فحينها أرغب في لفّهم بورق فضي مثل بسكويت الحليب ثم وضعهم في درج مظلم حتى يجفوا تمامًا. لا أريد أن أشعر بأي حزن، بل أريد أفعالًا؛ شيئًا يزلزل

أمي، مثل فتح بثرة بدبوس حتى يخف الضغط فيها. لكن أفكاري استمرت في الشرود، حتى ظهيرة هذا اليوم، عندما تسببت أمي في "شجار" بعد مغادرة الطبيب البيطري. "شجار".. هكذا يسميه أبي، لأنه لا يأخذه على محمل الجد. قالت أمي فجأةً:

- أريد أن أموت.

قالتها، ثم واصلت تنظيف الطاولة ببساطة، وملأت غسالة الصحون، وجمعت براعم البطاطس التي كانت على لوح التقطيع وألقت بها في سلة التقشير حتى تلقيها للدجاج لاحقًا.

- أريد أن أموت. لم أعد أحتمل. كم سأكون سعيدة لو أن سيارة دهمتني في الغد، ودهستني مثل قنفذ على أسفلت الطريق.

لأول مرة، رأيت اليأس في عينيها.

كان "أوبي" قد نهض عن الطاولة. ضغط بقبضتيه على قمة رأسه، ولكن ذلك لم يهدئ أعصابه. صاح فيها:

- فلتموتي إذًا.. إن كانت هذه أمنيتكِ.

همست له:

- "أوبي"! إنها توشك على الانهيار.

- هل ترين أي أحد ينهار هنا؟ لا ينهار أحد سوانا.

ألقى هاتفه الجوال نحو الجدار المكسو بالقيشاني الأزرق فوق الموقد، وهو يصرخ:

- اللعنة!

تحطَّم هاتفه "النوكيا". حينها فكرت في لعبة "الثعبان".. ربما مات الثعبان الآن. عادةً ما يتشابك جسده عندما يأكل الكثير من الفئران ويبدأ في الانتفاخ ليصير أضخم من الشاشة. الآن، انكسرت الشاشة.

خيَّم صمت مميت، لم أسمع فيه سوى سقوط بذور الصنوبر. ثم اقتحم أبي المكان علينا، قادمًا من غرفة الجلوس، يجر ساقه المشوهة خلفه. دفع "أوبي" بقسوة إلى أرضية المطبخ، وقبض على ذراعيه خلف ظهره. صرخ أخي:

- هيَّا.. افعليها.. اقتلي نفسك.. وإلا سوف أقتلكم جميعًا!

صاح فيه أبي:

- "لَا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلًا، لأَنَّ الرَّبَّ يُعَاقِبُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا".

بدت أمي غير مهتمة بكل ما يجري حولها، فقد وضعت بعضًا من سائل التنظيف على إسفنجة، قبل أن تمسح بها الموقد، وهي تهمس:

- أرأيتم؟ أنا أم سيئة. أنتم أفضل من دوني.

وضعتُ يديَّ على أذنيَّ حتى توقف الصراخ، وترك أبي "أوبي"، وفتحت أمي الموقد وقربت معصمها لثوانٍ من الصينية في قلبه حتى تمنح نفسها بعض الدفء. قلت لها:

- أنتِ أفضل أم.

سمعت الكذب في صوتي، الذي خرج أجوف خاويًا مثل حظيرة الأبقار. لم تبقَ فيه حياة. بدت أمي وكأنها نسيت ما حدث أمامها للتو.

رفع أبي ذراعيه عاليًا، وهو يصيح:

- أنتم تدفعوننا للجنون، أيها المجانين!

ثم خرج إلى مخزن الخشب. تقول جدتي المتدينة دومًا إن عليك إخماد الشجار ما إن يشتعل. وقلت لنفسي، إن الآباء يعيشون في أبنائهم، وليس العكس.. لذا، يبدو أن الجنون يعيش فينا. سألت أمي:

- أتريدين أن تموتي حقًّا؟

- أجل، ولكن لا تهتمي لي، فأنا أم حمقاء.

استدارت، وحملت سلة بقايا الطعام لتأخذها إلى حظيرة الدجاج.

تسمرت في مكاني للحظات، ثم مددت يدي لـ"أوبي". كان أنفه ينزف. أزاح يدي بعيدًا عنه، وهو يسبني.



جلستُ مع "بيل" في "حظيرة الحيوانات المنوية"، على الأرضية الحجرية المتربة. في منتصف الحظيرة هناك هيكل بقرة معدني مغطى بالجلد. من المفترض أن هذا الهيكل يثير جنون الثيران. تحت الغطاء توجد قضبان معدنية عليها كرسي أسود. الكرسي مصنوع من الجلد. يمكنك تحريكه للأمام والخلف حتى يتمكن من تجميع الحيوانات المنوية. الجلد ممزق في بعض الأماكن. يسمون الهيكل "ديرك الرابع"، على اسم ثور شهير أنجب مئات العجول. صنعوا له تمثالًا من البرونز وأقاموه على قاعدة في قلب ساحة القرية. أجادل "بيل" في حجتها بأن الحزن يبدأ صغيرًا دائمًا ثم يكبر. لا نعرف عن الحياة إلا بقدر ما يعرفه السياح عن قريتنا؛ فهم يتوهون في الأزقة المظلمة، ويجهلون المسارات التي يحظر عليهم المشي فيها. أقول لها:

- استلقي على "ديرك".

- الآن هما عاريان تمامًا.

ضحكنا كثيرًا، وكل منا يرسم صورة لهما في خياله. لسوف يخرجان من الحمام متألقين، ملتفين في المناشف، مثل فطيرتي تفاح ساخنتين في مناديل ورقية.

تعالى صرير مفصلات البقرة الدمية مع تسارع الحركة. كان أبي فخورًا بـ"ديرك الرابع". يربت على جانبي المخلوق المعدني كلما استخدمه. فجأةً، أشعر بالتهاب في حلقي، وألم في عينيَّ. ها هي أول ثلوج في العام تتساقط مبكرًا، وتنزل إلى قلبي. ثقيلة.

- لا أرى أي ألوان.

أنهض عن الكرسي وأقف بجانب "بيل" التي ما زالت مغمضة العينين. وأسارع بارتداء معطف المطر الأخضر الخاص بوالدي والذي كان معلقًا فوق كرسي بجوار منضدة في الحظيرة. لحظتها، ينفتح الباب فجأةً ويطل "أوبي" برأسه. تتنقل نظراته بيني وبين "بيل" ثم تستقر عليَّ. يدخل، ويغلق الباب خلفه.

- ماذا تلعبان؟

تصيح "بيل":

- لعبة غبية.

- اخرج من هنا.

لا يمكن لـ"أوبي" أن يشاركنا اللعبة، فأنا متيقنة من أنه سينتهز الفرصة للقيام بشيء خبيث. ثقتي به مثل ثقتي بطقس هذه القرية. لا تزال هناك آثار دماء في أنفه من أثر ارتطامه بأرض المطبخ.

جزء مني يشفق عليه. على الرغم من تضاؤل هذا الشعور في نفسي هذه الأيام؛ بعدما صار يسب ويلعن، وبدأ يسرق الطعام أو النقود من علبة الادخار للعطلة الموجودة على رف الموقد، وبذلك صار يقلل من فرص ذهابنا في عطلة حتى تكاد تقارب الصفر. ناهيك بأنه يسلب أبي مدخراته. الآن، أكثر ما يمكن لأبي أن يشتريه هو محمصة خبز ورفوف الأطباق. يومًا ما، سيسرق قلب أمي وقلب أبي أيضًا. سيحفر للقلبين حفرة في الحقل، ويدفنهما مثلما تفعل قطة ضالة بطائر مستكين في فمها. يقول:

- أعرف حركة مسلية.

- ممنوع أن تلعب معنا.

فقالت "بيل":

- ليس لديَّ مانع في أن تلعب معنا. ألعاب "ياس" مملة.

- أترين.. ليس لدى "بيل" مانع.

يتناول مسدس حقن الأبقار بالحيوانات المنوية - وهو طويل فضي - وعلبة تحوي أنابيب العينات. يستخدمون هذه الأدوات في تخصيب البقرة التي لا تحمل من الثور بالطريقة المعتادة. يناولني قفازًا أزرق. عندما لا

أ، النظر في عينيه، أركز ناظري على تلك الشعيرات الخفيفة في ذقنه. أمدها مثل بذور الكمون التي تطلب مني أمي تقليبها في اللبن الرائب. ان قد بدأ يحلق ذقنه منذ بضعة أيام. أنا أراقبه من كثب هذه الأيام.

- بمكنكِ أن تكوني مساعدتي.

تناول هذه المرة من الخزانة علبة بها شيء هلامي. مكتوب عليه "مزلق". يضع بعضه على الإبرة. يقول لـ "بيل":

- الآن.. أنزلي سروالكِ، وارقدي على بطنكِ فوق البقرة.

امتثلت "بيل" لطلبه، من دون كلمة. أدركت لحظتها أنها لم تعد تتحدث عن "توم" كثيرًا هذه الأيام، بقدر ما صارت تتحدث عن أخي. تريد أن تعرف هواياته وطعامه المفضل وما إذا كان يفضل الشقراوات أم السمراوات، وما إلى ذلك. لا أريد أن يمسها "أوبي". ماذا لو انكسر حوض الأسماك؟ ما الذي سنفعله حينئذ؟ بمجرد أن استلقت "بيل" فوق "ديرك"، حتى كان عليَّ أن أباعد بين ردفيها، لأكشف فتحة مؤخرتها مثل دواية القلم الحبر في المدرسة. تتساءل "بيل" في حذر:

- لن يؤلمني، أليس كذلك؟

أطمئنها بابتسامة على وجهي:

- لا تخافي، أنتِ أغلى من عدد كبير من العصافير.

هذا تعبير تعلمته من إنجيل "لوقا"، بعد أن قالت لي جدتي تلك الكلمات ذات ليلة كنت أبيت فيها معها، وقلت لها إنني أخاف من أن أموت في الليل.

يقف "أوبي" على دلو علف مقلوب، حتى يرى بوضوح، وهو يصوب مسدس الإبرة بين ردفيْ "بيل"، ثم يدفع معدن المسدس البارد داخلها في حركة مباغتة. تصرخ مثل حيوان جريح. ومن صدمتي، تركت ردفيها.

- ابقي مكانك، وإلا زادت شدة الألم.

تتدفق الدموع من عينيها، ويرتجف جسدها. أتذكر قلمي الحبر الذي كان يتدفق منه السائل الأزرق. أخبرني المعلم أن عليًّ تركه منتصبًا في ماء بارد طوال الليل، ثم أشطفه وأجففه بمجفف الشعر في الصباح التالي. هل عليَّ وضع "بيل" في ماء بارد؟ أنظر إلى "أوبي" في قلق، فيومئ برأسه تجاه الحاوية في ركن الحظيرة، حيث نحتفظ بأنابيب الحيوانات المنوية للثور في غاز النيتروجين. لقد نسي أبي أن يغلق الحاوية. أعتقد أن "أوبي" ينوي أن يغسل "بيل". أفتح الحاوية، وأخرج أنبوبة وأناولها لـ"أوبي". فوهة مسدس الحقن ما زالت بارزة بين ردفيْ "بيل".

- أنتِ أفضل مساعدة في العالم.

ها هو الجليد بيننا يبدأ في الذوبان. إذًا، ما نقوم به أمر جيد. ففي بعض الأحيان، يتعين عليك تقديم تضحيات أقسى من هذا، مثلما أمر الرب من "إبراهيم" أن يضحي بـ"إسحاق"، واختبره، قبل أن يهبه حيوانًا آخر. هكذا علينا تجرِبة أشياء مختلفة إلى أن يرضى الرب عن محاولاتنا للتعامل مع الموت، وعندئذ يتركنا لحالنا.

دفع "أوبي" الأنبوب في الفوهة. فعلناها حتى النهاية، دون أن نعرف أن النيتروجين سيحرق جلدها. أشعر بالخوف يكبل ساقيَّ وأنا أفرُّ من حظيرة الحيوانات المنوية و"أوبي" يركض في أعقابي. فرَّ كلانا إلى الجانب الآخر من المزرعة. أهمس لنفسي، **"وَلا تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ"**. رأيتُ "هانا" تسند دراجتها إلى جدار بيت المزرعة، وسادتها مثبتة تحت رابط أمتعتها. تحمل حقيبة ملابس صغيرة في يدها، والتي تمتلئ بحشرة العثة، عندما تتركها فترة طويلة وتتغيب عن الجدة، ونجمعها ونسحقها بين الإبهام والسبابة، ثم ننفخها في الهواء بعيدًا عن أصابعنا. قلت لها:

- تعالي معنا.

سبقتها إلى حيث بالات التبن وراء حظيرة الأرانب. زحفنا بينها لكي نصبح بعيدين عن أنظار أبي، والغربان، والرب.

- هلا احتضنتني؟

أحاول ألا أبكي، وأنا أتذكر صرخات "بيل" التي ما زالت تدوي في أذنيَّ، وقد اتسعت عيناها عن آخرهما في رعب، مثل وعائي أسماك شبه ممتلئين.

- لماذا؟ ماذا جرى؟ أنتِ ترتجفين.

- إذا لم تحتضنيني فلسوف أنفجر.. مثل دجاجة أبي التي كانت تبيض وعلقت البيضة في مؤخرتها. ولولا أن أبي ذبحها، لكانت قد انفجرت وتطايرت أشلاؤها في كل مكان. أنا على وشك أن أنفجر.

- آه.. أتذكر تلك المخلوقة المسكينة.

- أنا مخلوقة مسكينة أيضًا ألن تحتضنيني الآن؟

- سوف أحتضنكِ.

أدس أنفي في شعرها الذي تفوح منه رائحة الشامبو اللطيفة:

- أتعرفين.. أود أن أصير أكبر، ولكنني أود أن تبقى ذراعاي كما هما. حتى تحتضننا جسدكِ بهذا الكمال الذي أشعر به الآن.

سكتت "هانا"، للحظات، ثم قالت:

- عندما تكبران، فسيكون عليَّ حينئذ أن ألفهما حولي مرتين.. مثل وشاح الشتاء.

الفصل السابع



في تلك الليلة، كانت "بيل" بطلة حلمي.

نحن في الغابة.. عند أطراف القرية، قرب المقبرة، ونلعب لعبة صيد الثعالب. لا أعرف السبب، ولكنني وجدت "بيل" ترتدي معطف الأحد الذي ترتديه أمي وقبعتها وفوقها ما يشبه الشاش ويتدلى من جانبها شريط أسود. يلامس المعطف الأرض لتعلق به العيدان والوحل؛ يصدر صوت حفيف وهي تمشي. حينها، أنتبه إلى أن "بيل" والثعلب أصبحا كيانًا واحدًا.. جزء إنسان وجزء حيوان. نسير في عمق الغابة حتى نتوه بين الأشجار الطويلة رفيعة الجذع، التي تشبه رافعات انتصبت في الظلام. أينما أسير، تظهر لي "بيل" بجسد الثعلب ذي اللون الأحمر المحروق. تسألني:

- أنتِ الثعلب؟

- أجل، هيًا اهربي قبل أن ألتهمك كدجاجة طازجة.

لكنها ترفع رأسها في أنفة، وهي تزيح خصلات شعرها للوراء.

- حمقاء.. بل أنا الثعلب. والآن، سأسألك سؤالًا وإن عجزتِ عن الرد، فلسوف تتقيئين أو يصيبك الإسهال أو تموتين قبل موعدك.

صار لأنفها وأذنيها أطراف مدببة. كل ما هو حاد يعدُّ قيمة إضافية؛ فالأسنان تقضم الطعام، والسمع الحاد يجعلنا نسمع كل شيء. يناسبها جسد الثعلب. وكلما تقدمت خطوة، أتراجع خطوة. أنتظرها لكي تصرخ بأعلى صوتها في أي لحظة، كما فعلت في الحظيرة. وأن تتسع عيناها لتصبح باتساع عينيْ مَن لا حيلة له.

- هل أخوكِ ميت بحق، أم أن الموت هو أخوكِ؟

أطرق رأسي، وأهزه في رفض وأنا أتأمل مقدمة حذائي:

- ليس للموت عائلة، ولهذا يظل يبحث عن جثث جديدة حتى لا يشعر بالوحدة. وما إن يضع أحدًا تحت الأرض، حتى يخرج ليبحث عن غيره.

تمدُّ "بيل" يدها نحوي. وفي الحلم، يأتيني صوت القس فجأةً: "سبيلك للتغلب على عدوك هو أن تجعله صديقك".

ألتفت ورائي لآخذ نفسًا عميقًا نقيًا من الجراثيم، ثم أسألها:

- ماذا سيحدث لو أعطيتك يدي؟

تقترب "بيل"، فتفوح منها رائحة لحم محترق. أرى مؤخرتها مغطاة بأكثر من ضمادة.

- سوف ألتهمك في غمضة عين.

- وإذا لم أعطِك يدي؟

- سوف ألتهمك قطعة قطعة.. وهذا مؤلم.

أحاول الهرب منها، ولكنَّ ساقيَّ مثل الهلام وحذائي أضيق من قدميَّ.

- هل تعرفين كم فأر حقل يلزم أن يكون في بطن الثعلب حتى يشبع؟

وحينما نجحت أخيرًا في الفرار منها، سمعتها تنادي عليَّ بصوت هادر له صدًى، وكأننا نلعب الغميضة..

- فأري العزيز.. فأري العزيز.. فأري العزيييييز.



الفصل الثامن



تضيق عينا أبي، وهو يحاول تحديد الارتفاع المناسب لتعليق حذاء تزلج فضي على الجدار.

وضع بين شفتيه ثلاثة براغي، وأمسك بمثقاب كهربائي. وقفت أمي بعيدًا تراقبه بعينيها الحالمتين، وفي يدها خرطوم المكنسة الكهربائية. أنظر إلى حمالة صدرها البيضاء، والتي أراها لأن حزام رداء النوم مفكوك. يمكنني أن ألمح ثدييها المترهلين عن طريق قماش رداء النوم الخفيف. يشبهان قطعتين من حلوى الـ"ميرانج"، التي يطبخها "أوبي" ويبيعها أحيانًا في أثناء الفسحة في أكياس الثلاجة: في كل كيس أربع من الـ"ميرانج". فإذا كانت البيضة قديمة، يصبح بياضها أرق فتكون الـ"ميرانج" رطبة.

يصعد أبي درجات سلم المطبخ وتغلق أمي المكنسة الكهربائية. بدا لي الصمت المباغت بلون الفضة أيضًا. تقول أمي:

- إنه مائل.

- ليس مائلًا.

- بل هو مائل. من مكاني يمكنك أن ترى أنه مائل.

- ينبغي ألا تقفي في مكانك إذًا. لا يوجد ميل، بل إن الفردتين معلقتان بصورة مختلفة من كل زاوية.

تُحكم أمي ربط حزام رداء النوم، وتسرع خارجة من غرفة المعيشة، وهي تسحب المكنسة الكهربائية وراءها من خرطومها؛ وكأنها كلب مطيع يتبعها في جميع أنحاء المنزل طوال اليوم. أغار أحيانًا من هذا الوحش الأزرق القبيح؛ يبدو أن علاقتها به أقوى من علاقتها بأولادها. في نهاية كل أسبوع، أراها وهي تنظف المكنسة من داخلها بحب كبير قبل أن تضع فيها كيس مكنسة جديدًا، في الوقت نفسه الذي يوشك فيه داخلي على الانفجار.

ألقي نظرة أخرى على حذاء التزلج، كان مبطنًا بالمخمل الأحمر. لم يعلقهما أبي على نحو مستقيم، لكني لا أتفوّه برأيي. جلس أبي على الأريكة وحدّق أمامه في شرود. هناك قليل من الغبار على كتفيه. ما زال يمسك بالمثقاب في يده. دخل "أوبي" وقال له في نبرة تحدٍ:

- تبدو مثل الفزّاعة يا أبي.

لم أسمع جلبة أخي التي يسببها عندما يعود إلى المنزل إلا في نحو الخامسة صباحًا. استلقيتُ في فراشي منتظرة، وقلبي ينبض بشدة، أحلل كل صوت أسمعه؛ خطاه المتعرجة، والطريقة التي يتحسس بها الجدار وهو صاعد، ونسيانه أن يتخطى الدرجتين اللتين تصدران صريرًا صاخبًا؛ الدرجة السادسة والثانية عشرة. سمعته وهو يكابد حتى لا يتقيأ، لكنه سرعان ما دخل المرحاض ليفرغ جوفه فيه. كان هذا هو حاله وحالي الليلتين متتاليتين. منامتي مبللة بالعرق باستمرار. يقول أبي إن القيء ليس سوى بقايا خطيئة قديمة يتوق الجسد إلى التخلص منها. كنت أعرف أن "أوبي" أخطأ بقتله الحيوانات، ولكن ما الخطأ في ذهابه إلى الحفلات؟ ما كنت أعرفه هو أنه ظل يقحم لسانه في أفواه فتيات مختلفات. كنت أرى ذلك عن طريق نافذة غرفة نومي؛ وقف هناك في ضوء المصباح الثابت كما لو كان "يسوع"، محاطًا بوهج سماوي، وفي كل مرة أراه فيها يقبِّل إحداهن، كنت أضغط بفمي على ساعدي وأصنع بلساني دوائر على بشرتي المتعرقة.. مذاقها مالح. لم أتحدث كثيرًا معه ذلك الصباح؛ لم أرِد أن أستنشق أي بكتيريا قد تجعلني أتقيأ بدوري. ذكرني الموقف بأول وآخر مرة أمرض فيها، عندما كان "ماتياس" على قيد الحياة.

كان يوم أربعاء، وكنت في عامي الثامن.. تقريبًا، وذهبت مع أبي لجلب الخبز من مخبز القرية، وفي طريق العودة، أعطاني أبي كعكة كشمش كبيرة جدًا. كانت لا تزال طازجة شهية، وتخلو من البقع الزرقاء

يحمل في جيوبه أموالًا يوم أن غاب. كما أننا لم نعد نتذكر إعادة الكتب، لا سيما سلسلة روايات "روالد دال" و"الساحرة الغاضبة"، التي كنا نقرأها في الخفاء لأن والدي يقولان إنها كتب تغضب الرب. لم نكن نريد إعادتها إلى أمينة المكتبة؛ لم تكن لطيفة معنا قطُّ. قال "ماتياس" إنها تخشى الأطفال ذوي الأصابع المتسخة والأطفال الذين يثنون أطراف الصفحات. ولكن من يفعل ذلك هم الأطفال الذين لم يكن لديهم منزل حقيقي، الذين لا يملكون مكانًا يستطيعون العودة إليه دائمًا؛ لكي يعرفوا أين توقفوا، بالطريقة نفسها التي كنت سأفعلها لاحقًا، على الرغم من أنني أصنع ثنية صغيرة للغاية، أشبه بأذن فأر. عندما سألت أبي ذلك السؤال، حملني من قلنسوتي وعلقني في الشماعة الحمراء. كنت أتدلى منها وقدماي تتأرجحان، لكنني لم أستطع تحرير نفسي. اختفت الأرض من تحت قدميَّ.

- من وحده الذي يحق له أن يسأل في هذا المنزل؟

- أنت.

- خطأ.. بل الرب.

عندئذ، فكرت. هل سبق للرب أن سألني؟ لا أتذكر هذا، على الرغم من أنني فكرتُ في كثير من الأجوبة عن أسئلة قد يسألها الناس لي. ربما لهذا كنت منشغلة عن سماع أسئلة الرب.

- ربما أعلقك هكذا، إلى أن يعود "ماتياس".

- ومتى يعود؟

- عندما تعود قدماك إلى الأرض مجددًا.

نظرت إلى الأسفل. عن طريق تجاربي السابقة مع النمو، كنت أعلم أن هذا قد يستغرق وقتًا طويلًا. تظاهر أبي بالمغادرة، لكنه عاد بعد بضع ثوانٍ. كان سحّاب المعطف يؤلم عنقي، وأتنفس بصعوبة. أنزلني على الأرض، بعدها لم أسأل أي سؤال آخر عن أخي. تعمدت أن تتراكم عليّ غرامة كبيرة في المكتبة، وأن أقرأ الروايات بصوت عالٍ تحت لحافي، على أمل أن يسمعني "ماتياس" في الجنة، وأنهي القراءة بالوسم نفسه الذي أكتبه في رسائلي لـ"بيل" والتي أرسلها من هاتفي الـ"نوكيا".



أدور بالعجلة على طول السد خلف دراجة "هانا"؛ وضعت حقيبتها في سلة الدراجة. نَمُرُّ في الطريق على منزل الجارة "ليان". أتحاشى النظر إلى ابنها الجالس على ظهر دراجتها، على الرغم من أنني متيقنة من أنني لست ميالة للأطفال. ولكنَّ هناك شيئًا ملائكيًّا فيه، بشعره الأشقر هذا، وأنا أحب الملائكة، سواء أكانوا أكبر مني أم أصغر. ولكن الجدة تقول إنه يجب علينا ألا نترك للثعلب حراسة الإوز. لا يوجد لدى الجدة ثعلب أو حتى إوز، لكن يمكنني أن أتخيل أن الأمور لن تكون جيدة لو تركنا الثعلب مع الإوز. تلقي علينا "ليان" التحية من مسافة بعيدة. تبدو قلقة. الآن علينا أن نبتسم لها بمرح حتى لا تسأل أي أسئلة عنا أو عن والدينا. أقول لـ"هانا":

- تظاهري بأنك سعيدة.

- ولكنني نسيت كيف أكون سعيدة.

- تخيلي أنهم يلتقطون لكِ صورة في المدرسة.

- أوه.. طيب.

هكذا، ارتسمت على وجهينا أمامها أعرض ابتسامة. نجتاز مرحلة منزل الجارة "ليان" دون أي أسئلة صعبة. رمقت ابنها، وتخيلته يتدلى من ذلك الحبل في العلية؛ يجب علينا دائمًا أن نعلق الملائكة في الهواء حتى تدور حول محورها ويتسنى لها تقديم الدعم نفسه للجميع من حولها. رمشت بعينيَّ عدة مرات حتى أتخلص من تلك الصورة المروعة، وأنا أتذكر ما قاله القس "رينكيما" يوم الأحد الماضي في القداس، اقتبس من إنجيل "لوقا": **"لا يدخلنا الشر من الخارج بل من الداخل، ذاك حيث ابتلاؤنا. يضرب جابي الضرائب على صدره ويصلي. يضرب على صدره وكأنه يقول: هنا مكمن كل شر".**

أضغط بقبضتي على صدري للحظة، لدرجة أن جسدي توتر وبدأت دراجتي تتمايل. همست لنفسي: "سامحني يا إلهي". ثم أعيد يدي إلى المقود حتى لا تقلدني "هانا". غير مسموح لها أن تقود الدراجة ويداها بعيدتان عن مقودها. وأنبهها كلما فعلت ذلك، تمامًا مثلما أفعل كلما مرت جوارنا سيارة أو جرار.

هناك فجوة بين سِنتي "هانا" الأماميتين، مثل تلك التي تجدها بين أسنان المحراث. أشعر بمزيد من الهواء يدخل صدري المتوتر. أشعر في بعض الأحيان كما لو أن عملاقًا يجلس عليَّ، وعندما أحبس أنفاسي في الليل، لأقترب أكثر من "ماتياس"، أشعر به يراقبني وهو جالس على كرسي مكتبي، بعينين واسعتين مثل عيني عجل وليد. يشجعني، قائلًا: "عليكِ أن تحبسي أنفاسك فترة أطول.. أطول بكثير". أعتقد أحيانًا أن العملاق الكبير الودود هرب من كتابي، لأنني تركته مفتوحًا على منضدة السرير ونمت. لكن هذا العملاق ليس ودودًا، بل هو غاضب مستبد. ليست لديه خياشيم، ومع ذلك يمكنه حبس أنفاسه على مر العصور وطوال الليل أحيانًا.

نصل إلى الجسر، فنترك دراجتينا عند أوله. توجد لافتة خشبية في بدايته: "**اُصْحُوا وَاسْهَرُوا. لأَنَّ إِبْلِيسَ خَصْمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ هُوَ**".. إنها كلمات من رسالة "بطرس". أرى علبة علكة فارغة بين العشب. أراد شخص ما الوصول إلى الجانب الآخر بنَفَس جديد منتعش. البحيرة هادئة، مثل وجه مؤمن تقي، يستحيل أن ترى فيه أكاذيب. تكونت بالفعل طبقة رقيقة من الجليد هنا وهناك على حافة الماء. ألقي حصاة، فتهوي على الجليد. تخطو "هانا" على صخرة، وتضع حقيبتها إلى جوارها ثم تحدق إلى الجانب الآخر ويدها تحمي عينيها من أشعة الشمس.

- سمعت أنهم هناك يختفون في الحانات.

- من هم؟

- الرجال، أتعرفين ما يحبون؟

لا أجيبها. أتأملها من ظهرها، فأجد أن أختي ليست أختي، ولكنها شخص يمكن أن يكون مثل أي شخص. شعرها الداكن يزداد طولًا. أعتقد أنها تعمدت تركه ينمو لزمن طويل حتى تضطر أمي إلى الجلوس معها وتضفيره كل يوم؛ أن تلمسها أمي كل يوم. أما أنا، فراضية عن شعري.

- يحبون مضغ علكة لا تفقد مذاقها.

- مستحيل.

- عليكِ أن تكوني لطيفة وأن تظلي كذلك.

- أو عليهم أن يقللوا من مضغ العلكة.

- عليكِ في كل الأحوال ألا تكوني لزجة زيادة عن اللزوم.

- لكن علكتي تفقد طعمها سريعًا.

- هذا لأنك تمضغينها مثل بقرة.

أفكر في أمي. يمضغ فكها الكثير كل يوم، لا بدَّ أن هذا من توتر متزايد، والتوتر المتزايد سبب وجيه للقفز من فوق الصومعة، أو لكسر مقياس الحرارة الذي تستخدمه أمي لقياس درجة حرارة الجبن وابتلاع ما فيه من زئبق. كان أبي يحذرنا من الزئبق عندما كنا صغارًا جدًّا.. ففيه موت

سريع، كما قال لنا. تعلمت من هذا أن هناك فارقًا بين أن تموت بسرعة أو أن تموت ببطء، وأن في كلا الأمرين مزايا وعيوبًا.

أقف خلف "هانا"، وأسند رأسي إلى ظهر معطفها الخفيف. تتنفس في هدوء. وتسألني:

- متى نغادر؟

تداعب الرياح الباردة معطفي. ويرتعد جسدي.

- في الغد، بعد استراحة القهوة.

لم ترد "هانا".

- قال البيطري إنني اكتملت.

- وماذا يعرف عن هذه الأمور؟ إنه لا يتعامل إلا مع حيوانات مكتملة.. أما التي لا تكتمل فيقتلونها.

وجدت في صوتها مرارة. أهي الغيرة؟

أضع يدي على خاصرتها. دفعة واحدة مني وتسقط في الماء. عندئذ، سيمكنني أن أرى على الواقع كيف غرق "ماتياس" تحت الماء، وكيف يكون الغرق.

ها أنا أفعلها. أدفعها من فوق الصخرة إلى الماء، وأشاهدها وهي تغوص فيه قبل أن ترتد لأعلى ثانيةً وهي تصرخ بفم امتلأ بالماء، وعيناها واسعتان بالخوف، مثل عوامتين سوداوين. أصرخ باسمها:

- "هانا".. "هانا".. "هانا"!

لكن الرياح تهوي بكلماتي على الصخور. أجثو على ركبتي عند حافة الماء لأقبض على ذراعها كي أسحبها من الماء. لحظة تغير بعدها كل شيء. أرقد بكامل جسدي فوق جسد أختي المبتل.. وأنا أهمس بصوت محموم:

- لا تموتي.. لا تموتي!

لا ننهض حتى يدق جرس الكنيسة خمس مرات. تقطر المياه من جسد أختي. أمسك بيدها بإحكام، وأضغط عليها وكأنا قطعة قماش مبللة. نقف، فارغتين مثل علبة بسكويت "الملكة بياتريكس" على مائدة الإفطار، تلك التي فزنا بها ذات مرة في اليانصيب. ليس بمقدور أحد أن يملأنا الآن. تتناول حقيبتها، وجسدها يرتجف مثل راية الرياح بلونيها الأحمر والأبيض عند الجسر. كدت أنسى كيف أقود الدراجة، وكيف نعود إلى المنزل. لم أعد أعرف إلى أين نحن ذاهبتان. تحولت أرض الميعاد على الجانب الآخر فجأة إلى صورة باهتة في بطاقة بريدية قديمة. تقول "هانا":

- لقد انزلقت.

أهز رأسي، أن لا، وأنا أضغط بقبضتي على صدغيّ وأكاد أغرس أناملي في جلدي من الندم.

- كلا.. بل إن هذا هو ما حدث.. وهذا ما سوف نقول إنه حدث.

الفصل التاسع



في تلك الليلة، راودتني أحلام محمومة من جديد، ولكن بطلتها هذه المرة كانت أختي.

كانت تتزلج على البحيرة ويداها خلف ظهرها، وأنفاسها تتحول إلى غيوم. أوقف القس "رينكيما" سيارته الـ"فولكس فاجن" قرب البحيرة، وسلط ضوء المصابيح الأمامية على السطح الجليدي. ومن بقعة الضوء المسلطة على سطح البحيرة المتجمد يتضح حجم المسار الذي يجب على "هانا" أن تدور فيه. جلس "رينكيما" على مقدمة السيارة في ردائه الأسود، والكتاب المقدس على حجره. كل شيء حوله أبيض.. الثلج والجليد.

ثم.. ثم بدأت المصابيح الأمامية في التحرك ببطء نحوي. لم أكن إنسانًا، بل كرسيًّا قابلًا للطي يحركه أحدهم بجوار رصيف السد. لا أحد يحتاج

إليَّ ليمسك بي وهو يتزلج. ساقي باردة، وجسدي بلا ذراعين. وفي كل مرة تقترب "هانا" وأسمع وقع زلاجاتها على الجليد، أريد أن أصرخ لها. لكن الكراسي لا تصرخ. أريد أن أحذرها من الفجوات الغادرة في الجليد.. لكن الكراسي لا تحذر البشر. أريد أن أحتضنها، بقوة. أن أحميها. تنظر أختي إليَّ في كل مرة تقترب فيها. أنفها أحمر وهي ترتدي غطاء أذن أبي الذي نرتديه أحيانًا عندما نتوق إلى لمسة يديه على رؤوسنا الباردة. أود أن أبوح لها بحبي، حتى إن ظهر الكرسي، ظهري، يتوهج للحظات بكل الدفء الذي يحتفظ به بعد أن يجلس عليه أحدٌ طوال النهار. لكن الكراسي تعجز عن البوح بالحب لإنسان. ولا أحد يعرفني.. أنا "ياس".. المتنكرة على هيئة كرسي. ومن بعيد تطير فوقي طيور النورس. أنا مطمئنة لأنها لن تغرق في الجليد، على الرغم من أن وزن أختي يساوي وزن خمسة وثلاثين نورسًا على الأقل. وعندما أبحث في الجليد مرة أخرى، أرى أن "هانا" تحركت خارج شريط الضوء لتختفي عن أنظاري. أطلق "رينكيما" بوق سيارته وومض ضوء مصابيحه الأمامية. قبعة أختي "التريكو" الصفراء تغرق ببطء، مثل غروب شمس. لا أريدها أن تغرق. أريد أن أتحول إلى كاسحة جليد وألقي بنفسي عليها لأنقذها. أتوق إلى إنقاذها. لكن الكراسي لا تنقذ البشر. لا يسعها سوى أن تقبع صامتة، تراقب في صمت إلى أن يأتي من يجلس عليها ليرتاح.

الفصل العاشر



- عندما تجدين العيدان بارزة من الأرض، فهذا يعني أن تحت كل واحد منها جحرًا لحيوان الخُلد.

أنار لي أبي، وهو يناولني الجاروف. أمسكته من منتصفه. شعرت بالأسى على حيوانات الخُلد التي وقعت في فخاخ الظلام. أنا مثلها؛ يزداد نهاري ظلامًا كل يوم، وفي المساء أعجز عن رؤية يدي حتى وإن كانت أمام عينيَّ. أحفر قليلًا حول قدميَّ، لأخرج كل شيء كنا قد دفناه تحت التراب. في هذا الصباح، أضأت الكرة الأرضية جوار فراشي، ولكنها أضاءت قليلًا ثم انطفأت تمامًا. جربت المفتاح أكثر من مرة ولكن الكرة بقيت على حالها. للحظة، خُيِّل إليَّ أن محيطاتها طفت بعيدًا عنها؛ وانتبهت إلى أن منامتي مبتلة تمامًا وفاحت رائحة بول. حبست أنفاسي، فتذكرت

"ماتياس". أربعون ثانية. بعدها تنفست بشدة، ثم بدأت أفك براغي الكرة الأرضية. وجدت حالة المصباح بداخلها ممتازة. قلت لنفسي إن هذه هي لعنة الظلام إذًا، اللعنة الأخيرة، وبعدها نكون قد أصبنا بكل اللعنات. لكنني سارعت بطرد الفكرة من رأسي.

كانت المعلمة على حق عندما أخبرت أمي وأبي في اجتماع الآباء بأن لي خيالًا جامحًا مفرطًا في النشاط، وأنني بنيت عالمًا غير واقعي من حولي. مثل عالم "الليجو". من السهل تفكيكه ثم بناؤه من جديد في صورة أخرى؛ وقد حددت من العدو ومن الصديق. أخبرتهما المعلمة كذلك أنني أديت التحية النازية عند باب الفصل؛ رفعت ذراعي بالفعل في الهواء وقلت "يحيا هتلر"، كما طلب مني "أوبي". قال إنني بذلك سأضحك المعلمة. لكنها لم تضحك، وجعلتني أكتب هذا السطر بعد انتهاء يوم المدرسة أكثر من مرة.. "لن أسخر من التاريخ، كما أنني لا أسخر من الرب". فكرت: أنتِ لا تعرفين أنني أنتمي إلى الجانب الخيِّر، وأن أمي تخفي يهودًا في القبو وتسمح لهم بتناول الحلوى، حتى ذلك البسكويت الصغير، وأنني أشرب كمية لا حصر لها من المشروبات الغازية. أخبرها أن للبسكويت الصغير وجهين؛ وجه شوكولاتة ووجه خبز زنجبيل. وأنا لي وجهان أيضًا؛ وجه "هتلر" ووجه يهودي.. وجه طيب ووجه شرير. خلعت المنامة المبللة في الحمام وبسطتها على الأرض الدافئة. ارتديت ملابس داخلية نظيفة ومن فوقها معطفي، واستندت إلى حوض الحمام، في انتظار أن تجف

منامتي، حينها انفتح الباب، ودخل "أوبي". نظر إلى منامتي كما لو كانت جثة ملقاة على الأرض.

- تبولتِ على نفسك؟

هززت رأسي بكل حزم. لا، طبعًا. قبضت على مصباح كرتي الأرضية بشدة. كان مصبحًا صغيرًا.

- كلا.. بل خرجت المياه من ضوء كرتي الأرضية.

- كاذبة.. ليس بها أي مياه.

- بل فيها.. في كرتي الأرضية خمسة محيطات.

- لماذا أشم رائحة بول قوية هنا إذًا؟

- هذه هي رائحة مياه البحر.. بسبب بول السمك.

- المهم.. حان وقت تقديم القربان. وقت التضحية.

- في الغد.

- اليوم هو الغد.

رمق منامتي، ثم أردف:

- وإلا أخبرت الكل في المدرسة أنكِ تتبولين على نفسك.

خرج، وأغلق الباب خلفه.

استلقيت على بطني فوق أرضية الحمام وبدأت أحاكي حركات سباحة أسلوب "الفراشة"، والتي تحولت سريعًا إلى مجرد حك خاصرتي في السجادة الرقيقة الصغيرة، كما لو كانت دميتي الدب، وكما لو كنت أسبح في المحيط بين الأسماك.



أمشي وراء أبي إلى الحقل. حوَّل الصقيع العشب إلى صخور قاسية تحت حذائي. وبما أن الأبقار لم تعد تدخل الحقل، فقد كان يحرص على تفقد الفخاخ كل يوم؛ يمسك بفخين جديدين في يمناه، حتى يضعهما مكان تلك التي انغلقت. عندما أنتهي من واجبات المدرسة، أراقبه من نافذة غرفة نومي وهو يسلك المسار نفسه عبر الحقول. في بعض الأيام، ترافقه أمي ومعها "أوبي". من أعلى، تبدو الأرض تمامًا مثل لوحة لعبة الـ"ليدو". أشعر براحة عندما يعودون بأمان إلى المزرعة، ثم يتمشون في الإسطبلات مثل بيادق الشطرنج. على الرغم من صعوبة وجودنا جميعًا في مكان واحد هذه الأيام، يمكن لكل غرفة في المزرعة أن تتحمل بيدقًا واحدًا فحسب، وبمجرد ظهور المزيد منها، يندلع الشجار. وحينئذ، سيكون على أبي نصب الفخاخ داخل المنزل أيضًا. لم يعد لديه أي شيء آخر ليفعله، وصار يجلس على كرسيه الذي يدخن منه طوال اليوم، في صمت مثل مالك الحزين، ولكنه بدين، في انتظار تحويلنا إلى فريسة له. ومالك الحزين يحب التهام الخُلد. ولو حدث وتفوه بأي شيء، فغالبًا ما يكون كلامه عن

الإنجيل.. النسخة المعتمدة لديه. يسألنا.. من فقد شعره ومن ثم فقد كل قواه؟ من الذي تحول إلى عمود ملح؟ من الذي ابتلعه الحوت؟ من قتل أخاه؟ كم عدد إصحاحات الإنجيل؟ لذلك، نتجنب الاقتراب من كرسي التدخين وكأنه الطاعون. ولكن ذلك يكون في بعض الأحيان حتمًا لا بدَّ منه، مثل أن تمر بجواره وأنت ذاهب لتناول وجبة، وعندما يستمر أبي في طرح الأسئلة حتى يبرد الحساء ويصبح الخبز المحمص طريًّا. تكفي إجابة واحدة خاطئة لإرسالك إلى غرفة نومك مباشرةً. ولا يدرك أبي أن هناك بالفعل الكثير من الأشياء التي يجب التفكير فيها، وأن المزيد منها يستمر في الظهور، وأن أجسادنا تنمو وأن هذه التأملات والأفكار لم تعد تتركنا عندما نمضغ حبات النعناع، كما نفعل في الكنيسة.

يقول أبي:

- في الماضي، كانوا يمنحوننا "جلدًا" عن كل خُلد. وكنت أحرص على تثبيتها ببراغي في الجدران إلى أن تجف.

يجلس القرفصاء بجانب أحد العيدان. هذه الأيام، يقدم حيوانات الخُلد التي يصطادها إلى طيور مالك الحزين خلف حظيرة الأبقار. يغمسونها في الماء أولًا، فلا يمكنها ابتلاعها جافة، ومن ثم تبتلعها دون مضغها، كما لو أنها كلمات أبي أو كلمات الرب، فنحن أيضًا نبتلعها دون مضغ.

- هكذا يا ابنتي، عليكِ الانتباه وأنتِ تتعاملين مع الفخاخ. فلو أنها انغلقت على يديكِ فستجدين أنها مثل البراغي حامية.

يهمس لي وهو يدفع العود عميقًا في الأرض. لا يجد تحته أي حيوان. ننجه إلى الفخ التالي.. لا نجد شيئًا أيضًا. يحب الخُلد أن يعيش وحيدًا، يغوص في الظلام وحيدًا، وكأن على كل منها أن يواجه الجانب المظلم وحده. يزداد السواد داخل عقلي أكثر وأكثر. مع أن "هانا" تتمكن من إخراج نفسها منه من حين لآخر، ولكنني أعجز عن الخروج من ذلك النفق الملعون، حيث يمكنني حبس أمي وأبي في كل ركن، وأثبت ذراعيهما جوار أجسادهما في فخ يشبه فخاخ الخُلد الصدئة.

- الجو بارد جدًا على هذه الحيوانات.

قالها، وأنا أراقب قطرة تكاد تسقط من أنفه. لم يحلق ذقنه منذ أيام. هناك خدش أحمر على أنفه، بعد أن احتك به غصن.

- أجل.. بارد جدًّا.

أمنت على كلامه، وأنا أضم كتفيَّ في تأكيد قسوة البرد.

يحدق أبي إلى العيدان البعيدة، ثم يقول بغتةً:

- الناس يتحدثون عنكِ في القرية. عن معطفك.

- وما الغريب في معطفي؟

- هل أصبح بارزًا مثل جحور الخُلد؟ أم ليس بعد؟

كان يمازحني، واحمرَّ وجهي. بدأت "بيل" تكبر قليلًا هذه الأيام. أرتني الدليل على ذلك، ونحن في غرفة تبديل الملابس في حصة الرياضة؛ صارت حلمتاها ورديتين وكبرتا مثل قطعتي "مارشميلو". قالت لي:

- الآن، دورك، أريني.

- لا.. حلمتاي تكبران في الظلام، مثل نبتة الجرجير. ولا بدَّ ألا أقلقهما وإلا ذبلتا وصغرتا.

بدت مقتنعة بكلامي، ولكنَّ وقتًا طويلًا لن يمر قبل أن يفرغ صبرها وتفضح السر على الرغم من نجاحي و"أوبي" في جعلها تسكت حتى الآن: فهي لم تخبر أبويها عمَّا جرى، وقد عرفت هذا لأننا لم نتلقَ أي مكالمة غاضبة منهما حتى الآن. ولكننا نحرص في المدرسة على وضع كتاب تاريخ ضخم بيننا، مثل سور برلين. ظلت فترة لا تتكلم معي بعدها، كما لم تعد مهتمة ببسكويت الحليب الذي أحضره معي.

- لدى كل بنت صحيحة بروز مثل جحري خُلد.

قالها، وهو ينهض على قدميه أمامي. جفت شفتاه من البرد. بادرت بالإشارة إلى عود يبعد عنا قليلًا.

- أظن أن تحته خُلدًا.

يلتفت أبي للحظة نحو المكان الذي أشرت إليه. طال شعره الأشقر، ليصبح طوله مثل طول شعري، يتوقف عند كتفيه. في السابق، كانت أمي ترسلنا إلى الحلاق في ساحة القرية. الآن، نسيت الأمر. أو ربما تريد أن يطول شعرنا حتى نختفي وراءه ببطء مثل اللبلاب الذي صار يغطي واجهة المنزل بالكامل. عندها لن يتمكن أحد من رؤية مدى ضآلة حجمنا.

– هل تعتقدين أن بوسعك أن تتزوجي في حضرة الرب وأنتِ على هذه الحال؟

يدفع أبي الجاروف في الأرض.. لا خُلد.. كسب مني هذه الجولة. لا يوجد أي ولد في فصلي ينظر إليّ. لا ينظرون إليّ إلا بعد أن يتبادلوا نكتة جديدة تتعلق بي. بالأمس، وضع "بيلي" يده على سرواله ومر بإصبعه على السحّاب، وقال لي:

– أترين.. إنه مشدود.

ومن دون أن أفكر، قبضت على إصبعه وقرصته. شعرت بالعظام عن طريق الجلد الرقيق الذي كان مصفرًا من أثر دخان السجائر. وصاح الفصل بأكمله في دهشة. بادرت بالعودة إلى مكاني المجاور للنافذة. تعالت الضحكات، واهتزت أساسات سور برلين.

أقول لأبي وأنا ما زلت أفكر في الفصل:

– أنا لن أتزوج أبدًا. أنا ذاهبة إلى الجانب الآخر.

إن أفكاري تنزلق خارج عقلي قبل أن أدرك ذلك. يشحب وجه أبي، ... لو أنني قلت كلمة "عارية" في وجهه، ويبدو أن هذا في نظره أسوأ من إيحائه بأننا نتحدث عن حجم النهدين في جسدي.

- كل من فكر يومًا في تحدي الجسر وتجاوزه لم يعد بعدها أبدًا.

صاح بصوت عالٍ. منذ ذلك اليوم الذي لم يعد فيه "ماتياس" إلى المنزل، وهو يحذرنا ويصور لنا المدينة مثل حفرة جهنمية تبتلع كل من يفكر في الاقتراب منها. أهمس له معتذرة:

- آسفة.. لم أفكر في كلامي قبل أن أتفوه به.
- أنتِ تعرفين ما حدث لأخيك. أتريدين أن يحدث لكِ هذا أيضًا؟

يسحب الجاروف من الأرض، ويبتعد عني، ليفسح المجال للرياح بيننا يقرفص عند مكان آخر به فخ.

- في الغد تخلعين معطفك. سوف أحرقه، ولن نتحدث في هذا الموضوع مرةً أخرى.

فجأةً، أتخيل جثة أبي بين شفرات مصيدة الخُلد، ونحن نغرس غصنًا بجوار رأسه حتى نعرف موضع موت البيدق. بعدها سنغسل المصيدة بمياه خرطوم الحديقة القابع في البرميل عند حظيرة الأرانب، لكنني أحرك

أسي بقوة لأبعد تلك الصورة من رأسي سريعًا. أنا لست خائفة من جحور الماء، ولكنني أخاف من الظلام الذي تعيش فيه.

نعود إلى المزرعة خاليي الوفاض. خلال عودتنا، يتوقف من آن لآخر لتسوية التربة في مكان العيدان بجاروفه.

- من الجيد أحيانًا أن نخيفها.. هل ترغبين في ألا يكون لديك نهدان بارزان مثل أمك؟

أتخيل نهدي أمي، فيذكرني تهدلهما وفراغهما بكيسي جمع التبرعات في الكنيسة.

- هذا لأنها لم تعد تأكل.

- ملأها الحزن، فلم يعد في جسدها مكان لشيء غيره.

- ولماذا ملأها الحزن؟

سكت أبي. أعلم أن للأمر علاقة بنا، وأننا لا نتصرف على نحو طبيعي أبدًا؛ حتى عندما نحاول أن نكون طبيعيين فإننا لا نحسن فعل ذلك، كما لو أننا نوع خاطئ من البشر، مثل نوع البطاطس الذي نبت هذا العام. والتي ترى أمي أنها تتفتت سريعًا وأنها شمعية للغاية. لا أجرؤ على الحديث عن الضفدعين الموجودين تحت مكتبي، وأنهما على وشك التزاوج. أعلم أن هذا سيحدث، ومن بعدها سوف يعاودان تناول الطعام ويصبح كل شيء على ما يرام.

- سوف تأكل لو أنكِ خلعتِ معطفك.

رمقني أبي بطرْف عينه، ليرى أثر كلامه فيَّ. يحاول الابتسام لكن ركني فمه تجمدا. أشعر بأنني كبيرة.. للحظة. الكبار يبتسمون لبعضهم. ويفهمون بعضهم، حتى عندما لا يفهمون أنفسهم. أضع يدي على سحَّاب المعطف. وعندما أشاح أبي بعينيه بعيدًا عني، التقطتُ بطرف إصبع يدي الأخرى قطعة مخاط جفت في أنفي ودسستها في فمي.

- سوف أمرض لو خلعت معطفي.

- أتودين أن تبدو كالحمقى في أعين الناس؟ أفعالك تميتنا من الخجل. غدًا تتخلصين منه.

تتباطأ خطواتي، إلى أن أكون خلفه، فأتأمل ظهره. يرتدي سترة حمراء وعلى ظهره حقيبة صياد. لا خُلد فيها. ولا أي شيء آخر. أنصت إلى خشخشة العشب تحت قدميه.

- ولكنني لا أريدكما أنْ تموتا.

خرجت الكلمات، وتخيلتها صراخًا في براثن الرياح. ولكنَّ أبي لم يسمعها.

لا صوت الآن إلا صوت ارتطام الفخاخ الفارغة داخل حقيبة خاوية من الخُلد.

الفصل الحادي عشر



ارتاح رأسا الضفدعين على السطح مثل برعمين طافيين.

أدفع بحذر أكبرهما بسبابتي في وعاء الذي أخرجته سرًا من المطبخ وملأته بالماء، حتى يطفو مرة أخرى. إنهما أضعف من أن يسبحا، لكنهما يطفوان.

- يوم آخر فحسب، وبعدها نرحل إلى الأبد.

أخرجهما من الماء، وأجففهما بجورب أحمر مقلم. أسمع صياح أمي في الأسفل. تتجادل وأبي لأن أحد زبائن الحليب القدامى اشتكى إلى رعية الكنيسة. لم تكن شكواه هذه المرة بخصوص الحليب، الذي صار رديء الجودة، بل اشتكانا نحن.. "الملوك الثلاثة". شحب وجهي وامتلأت عيناي بالدموع. قالت أمي إن ذلك خطأ أبي، وإنه أهملنا، وقال أبي إن ذلك خطأ

أمي لأنها أهملتنا. بعد ذلك، هدد كلاهما الآخر بأنه سيتركه ويرحل، ولكن تبين لهما أن تنفيذ ذلك مستحيل؛ لا يمكن إلا لشخص واحد فحسب أن يحزم حقائبه ويرحل، ويمكن للآخر أن يشعر بالحزن وكفى، ثم يمكن لذلك الذي رحل أن يعود لاحقًا بكل براءة، وكأن شيئًا لم يكن. الآن، يتجادلان عمّن سيرحل. تمنيت في سري أن يرحل أبي، لأنه سرعان ما يعود عندما يقترب وقت القهوة؛ لأنه يصاب بصداع إذا لم يشربها. أما عودة أمي فغير مؤكدة؛ فلا يمكننا إغراؤها بأصناف الحلوى. سيكون علينا أن نتوسل إليها وأن نعرض أنفسنا للخطر. الواضح أنهما يتباعدان أكثر فأكثر. مثلما يحدث عندما يستقل كل منهما دراجته فوق السد إلى الكنيسة في أيام الأحد، حيث تسرع أمي وتسرع ويلهث أبي من خلفها. هكذا الحال في كل جدال بينهما، فأبي هو الذي يلهث وراءها لوضع حد لها. أهمس للضفدعين:

- سوف يخلعان معطفي عني غدًا.

اختلجت عيون الضفدعين، وكأنهما ذهلا من الخبر.

- أنا مثل "شمشون"، لكن قوتي ليست في شعري بل في معطفي. ومن دونه سأصبح لعبة في يد الموت، هل تفهمان ذلك؟

استيقظت وأخفيت الجورب المبلل تحت سريري، عند "الكولون" المبلل بالبول. وضعت الضفدعين في جيب معطفي وذهبت إلى غرفة "هانا". الباب مفتوح، وهي مستلقية على ظهرها. دخلت، ودسست يدي تحت منامتها فوق ظهرها العاري. بشرتها متوترة، مثل قطعة "ليجو"

مريضة. ومثل قطعة "ليجو"، أردت أن أثبت جسدي في جسدها فلا نفترق بعد الآن. تستدير "هانا" والنوم في عينيها. أحكي لها عن حيوانات الخُلد وعن قرار أبي أن أخلع معطفي، وعن الجدال الدائر بالأسفل، وعن تهديد كلٌ منهما للآخر بالرحيل.

- سنصبح أيتامًا.

لم تكن "هانا" تنصت باهتمام. أرى في عينيها أن أفكارها في مكان آخر. لذلك تعصبت. عادةً ما نتجول في أنحاء المزرعة كلما نكون معًا. نفكر في طرائق مثالية للهرب، ونتخيل حياة أفضل ونتظاهر بأن العالم مثالي كلعبة "ذي سيمز".

- فخ خُلد أم زئبق مقياس الحرارة؟

لم تختر "هانا" أيًا من الخيارين، بل سكتت. تضيء وجهي بكشافها؛ فأحمي عينيّ بذراعي. ألا ترى الخطأ الذي نرتكبه؟ نحن نطفو ببطء بعيدًا عن أمي وأبي فوق وسادة زئبق، بدلًا من أن نفعل العكس. لم يدخل الموت روح أمي وأبي فحسب، بل صار داخلنا أيضًا؛ سوف يظل يبحث دائمًا عن جسد أو حيوان ولن يهدأ حتى يصطاد أيهما. يمكننا بسهولة اختيار نهاية مختلفة.. مختلفة عما نعرفه من الكتب.

- سمعت بالأمس أن بوسع المرء أن يتخيل نفسه ميتًا، وأن المزيد والمزيد من الثقوب ستظهر فيكِ لأنها ستنهش فيكِ حتى تنهاري. ومن الأفضل أن تنكسر بمجرد تجربتها؛ فهذا أقل إيلامًا.

تقرب أختي وجهها من وجهي، وهي تقول:

- هناك أشخاص ينتظرون على الجانب الآخر ولا يمكنهم الاستلقاء فوقك إلا في الظلام، مثلما يضغط الليل على النهار حتى يطرحه أرضًا، ولكن بطريقة ألطف. ثم يحركون أفخاذهم. تعرفين كيف بالطبع.. كما تفعل الأرانب مع بعضها. وبعد ذلك، تتحولين إلى امرأة في هذا العالم ويمكنك أن تطيلي شعرك بطول شعر "رابونزل" القابعة في برجها. ويمكنكِ أن تصبحي أي شيء تحبينه. أي شيء.

تتزايد سرعة أنفاس "هانا". وتسخن وجنتاي. أراقبها، وهي تضع الكشاف على الوسادة وترفع منامتها لأعلى باليد الأخرى. تدس يدها أسفل سروالها الداخلي الملون. تحرك أصابعها بعصبية، وقد أغمضت عينيها وفمها مفتوح بعض الشيء. تزداد سرعة أصابعها. أتجمد في مكاني. و"هانا" تئن وتتأوه وجسدها الصغير يتلوى مثل حيوان جريح. يتحرك نصفها السفلي للأمام والخلف في وتيرة عصبية محمومة، فأتذكر ما أفعله مع دبي، ولكن هذا مختلف. لا أدري ما الذي تفكر فيه، ولكنني أعرف أنها لا تفكر في ضرورة شراء مشغِّل الأسطوانات أو في ضرورة أن يتزاوج الضفدعان. ما الذي تفكر فيه الآن إذًا؟ أتناول الكشاف من على الوسادة وأسلطه عليها. هناك قطرات

عرق على جبهتها، مثلما تعلمنا في دروس العلوم عن تكثف بخار الماء من جسم دافئ في مكان بارد. لا أعرف ما إذا كان ينبغي لي نجدتها، فلربما كانت تتألم، أو ما إذا كان ينبغي لي الاستنجاد بأبي من الأسفل: "هانا محمومة، وربما تصل حرارتها إلى أربعين درجة".

- ما الذي تفكرين فيه؟

عيناها مثل قطعتي زجاج. هي في مكان لستُ فيه، كما حدث معها يوم "الكوكاكولا". لذلك تعصبت. نحن نفعل كل شيء معًا.

- أفكر في رجل عارٍ.

- وأين ترينه إذًا؟

- رأيته في مجلات متجر "فان لوك".

- ولكن هذا غير مسموح لنا. هل اشتريتِ سكاكر الـ"فايربول"؟ ذلك النوع الحار؟

لم تجبني "هانا"، وبدأت أقلق. ترفع ذقنها، وتغمض عينيها، وتغرس أسنانها في شفتها السفلى، تتأوه مجددًا ثم تسكن بغتةً ويهمد جسدها فوق الفراش، بجواري. كلها عرق، والتصقت خصلة من شعرها بجانب وجهها. يبدو أنها تتألم، لكنها في الحقيقة لا تتألم. أحاول التفكير في تفسير لما فعلته. أيكون هذا لأنني دفعتها في الماء؟ هل ستخرج من جلدها مثل فراشة تخرج من شرنقتها، ثم تضرب نفسها حتى الموت على زجاج النافذة، وتستقر في راحة يد

"أويي"؟ أريد أن أعتذر لها، فلم أكن أقصد كل ذلك عندما دفعتها في مياه البحيرة. أردت أن أرى بعينيَّ كيف غرق "ماتياس" تحت الماء، لكن جسد "هانا" ليس مثل جسد أخي، كيف أمكنني الخلط بينهما؟ رغبت في أن أخبرها عن الكابوس وأن أطلب منها أن تعدني ألا تتزلج على جليد البحيرة أبدًا، لأن الشتاء قادم بسرعة شديدة إلى القرية. لكن "هانا" بدت سعيدة، وعندما هممت بالابتعاد عنها غاضبةً، سمعت فرقعة مألوفة. لقد أخرجت كرتي "فايربول" حمراوين من جيب منامتها. نستلقي بجوار بعضنا، نمتص ونمضغ وننفخ في رضا، ونسخر من بعضنا حتى صارت السكاكر ساخنة في فمينا. تحتضنني "هانا" بقوة. سمعت باب غرفة الجلوس ينغلق بقوة، وصوت بكاء أمي. بعد ذلك، ساد السكون. اعتدت أن أسمع أحيانًا يد أبي القوية وهي تربِّت على ظهرها، وكأن يده مضرب سجاد يخرج به كل ما امتلأ به جسد أمي في أثناء النهار.. كل ذلك الرماد البائس، غبار الأيام، وطبقات الحزن؛ ولكن، مضى وقت طويل منذ آخر مرة سمعت فيها ذلك الصوت.

تنتفخ "هانا" فقاعة كبيرة. سرعان ما تنفجر.

- ما الذي كنتِ تفعلينه منذ قليل؟

- لا أعرف.. هذا شعور يهيمن عليَّ هذه الأيام. ولكن لا تخبري أمي ولا أبي، اتفقنا؟

- بالطبع.. بالطبع لا. وسوف أصلي لأجلك.

- أشكرك.. أختي الحلوة.

الفصل الثاني عشر



أستيقظ كل صباح وخطوطي أكبر دومًا؛ مثل أجساد البشر، التي تكون في الصباح أطول وذلك لتمدد السائل بين فقرات الظهر ليمنحنا بضعة سنتيمترات طولًا. اليوم سنذهب إلى الجانب الآخر. هل هذا هو سبب ذلك الإحساس الغريب الذي يعتريني؛ أن كل شيء حولي يبدو أشد قتامة مما هو عليه بالفعل؛ رقفتُ مع "أوبي" خلف حظيرة الأبقار والثلوج تتساقط علينا لأول مرة هذا الموسم. التصقت رقائقه بخدودنا، كما لو أن الرب يرش حبات السكر على الدنيا، كما فعلت أمي مع أولى حبات الـ"دونات" التي خبزتها هذا الموسم. وعندما تغرس أسنانك فيها، يقطر العسل من ركنيْ فمك. بكَّرت أمي في خبزها هذا العام؛ حيث قَلَتْها بنفسها ورتبت كل شيء في ثلاث طبقات داخل وعاء عميق؛ الـ"دونات"، ومناديل المطبخ،

وفطائر التفاح. أخذت وعاءين كاملين إلى القبو، حيث اليهود، لأنهم يستحقون الاحتفال بالعام الجديد أيضًا. كلَّت أصابعها تمامًا من تقشير التفاح لإعداد الفطائر.

تحوَّل شعر "أوبي" إلى الأبيض بسبب الثلوج. وعدني بأنه لن يفضح سر تبولي في الفراش إذا ما قمت بتلك التضحية، وأنه هكذا سيتأخر موعد يوم عقابه لها. أخذ ديكًا من الحظيرة. كان أبي فخورًا جدًّا بهذا الديك، اعتاد أحيانًا أن يقول عنه: "أنا فخور به مثل فخري ببقرة لها سبعة ضروع"، وهذا بسبب ريشه الأحمر اللامع والذي ينتهي بريش أخضر جميل عند ذيله، وبسبب عرفه الكبير اللامع. إن الديك هو الكائن الوحيد في المزرعة الذي لم يتأثر بكل ما جرى، والذي يسير متبخترًا في أنحائها وهو منفوش الصدر. والآن، يراقبنا بهدوء وبعينين واجمتين. أشعر بالضفدعين يتحركان في جيب معطفي. آمل ألا يصابا بالبرد. كان يجب أن أضعهما داخل قفَّاز من الصوف.

- توقفي عندما يصيح ثلاث مرات.

ناولني المطرقة. ها أنا ذا أمسك بها للمرة الثانية. أفكر في أمي.. أبي.. "ديفيرتجي".. أخي "ماتياس".. جسدي الممتلئ بقطع الصابون الأخضر.. الرب وغيابه.. الحجر في بطن أمي.. النجم الذي لا نجده.. المعطف الذي عليَّ أن أخلعه.. ومغرفة الجبن في جوف البقرة النافقة. يصيح مرة واحدة قبل أن تلتصق المطرقة بلحمه ويرقد ميتًا فوق الحجر.

،هذه المطرقة جعلتني أمي أحطم حصالتي. والآن، يتدفق الدم وليس المفود. كانت أول مرة أقتل فيها حيوانًا بيدي؛ قبل ذلك كنت مجرد مساعدة. عندما دست ذات مرة على عنكبوت دون قصد في بيت الجدة، قالت لي: "إن الموت هو عملية تتفكك إلى أفعال، والأفعال تتفكك إلى مراحل. لا يقع الموت مصادفةً، فهناك دائمًا ما يسببه. وأنتِ هذه المرة كنتِ السبب. أي إن بوسعكِ أن تكوني قاتلة أيضًا". كانت الجدة على حق. بدأت دموعي تذوب مع ندف الثلج على وجنتيَّ، وارتجفت كتفاي بشدة مهما حاولت كبح مشاعري.

سحب "أوبي" بكل بساطة المطرقة من لحم الديك، وغسلها تحت الصنبور بجوار حظيرة الأبقار، قائلًا:

- أنتِ مريضة بحق. لقد فعلتِها.

ثم استدار، والتقط الديك من ساقيه، ثم اتجه نحو الحقول ورأس الديك مستسلم للريح. وقفتُ متأملة يدي المرتجفة. حوَّلتُ نفسي إلى فتاة صغيرة مصدومة. وعندما وقفتُ مرة أخرى، بدا لي كما لو أن هناك دبابيس في مفاصلي تحافظ على اتصال كل شيء ببعضه، ولكنها تتحرك على نحو مستقل على الرغم من ذلك. فجأةً، رفرفت فراشة "عقعق" حولي، على جناحيها بقع سوداء مثل الحبر المسكوب. أعتقد أنها هربت من مجموعة "أوبي". هذا هو الاحتمال الوحيد. في العادة، لا ترى فراشات أو حشرات عث في ديسمبر؛ فهي تدخل في سبات. أمسكت بها في راحتي وقربتها من

أذني. محظور علينا لمس أي شيء يخص "أوبي": لا شعره ولا ألعابه، وإلا غضب ورمانا بالشتائم. محظور علينا لمس قمة رأسه، بينما هو يضغط عليه طوال الوقت. أسمع الفراشة ترفرف في ذعر بين راحتيّ، فأطبق عليها كما لو كانت قصاصة ورق فيها كلمات بذيئة. عاد الصمت.

لم يعلُ أي صوت على صوت العنف داخل روحي. ظل ينمو وينمو، مثل الحزن. ولكن الحزن يحتاج إلى مساحة أكبر، كما قالت "بيل"، أمّا العنف فيستولي على الروح وحسب. تركت الفراشة الميتة تسقط من يدي على الثلج ثم ألقيت فوقها طبقة ثلج أخرى لأدفنها. قبر جليدي. لكمت جدار الحظيرة بكل غضب الدنيا، فأثخنت جلد يدي بالجروح. أطبقت فكيّ حتى لا أصرخ، وأنا أرى حظائر الأبقار. لن يمر وقت طويل قبل أن تمتلئ بأبقار جديدة، يترقب أبواي وصولها. طلى أبي صومعة العلف بطبقة دهان جديدة. شعرتُ بالقلق من أن تصبح الصومعة أجمل فتجذب أمي إليها، وتشجّع فيها رغبتها في الموت. المشكلة هي أن كل شيء سيبدو كما لو قد عاد إلى طبيعته، كما لو أن الجميع يواصل حياته حتى بعد "ماتياس" وجنون البقر. إلا أنا. ربما يكون الشوق إلى الموت معديًا، أو ربما هو في الرأس فقط.. في رأسي.. تمامًا مثل القمل في رؤوس التلميذات في فصل "هانا". تركتُ جسدي يسقط مرة أخرى في قلب الثلج، ثم بسطتُ ذراعيّ وحركتهما لأعلى ولأسفل. سوف أبذل الكثير من الجهد لأتمكن من النهوض الآن، ولكي أتحول إلى قطعة خزف، قبل أن يسقطني أحدهم دون قصد فأتحطم إلى قطع تُعَدُّ ولا تُحصَى، وينتبه أحدهم إلى

أ.مي محطمة، ولم تعد هناك فائدة مني. مثل تلك الملائكة الملونة الملفوفة بورق فضي. اختفت سحب البخار المنبعثة من فمي. ما زلت أشعر بأثر مقبض المطرقة في لحم راحتي، وما زلت أسمع صياح الديك. "لا تقتل ولا تنتقم لنفسك". وطالما أنني انتقمت بالفعل، فعليّ انتظار الوباء الجديد.

فجأةً، شعرت بيدين تحملني من تحت إبطي وترفعني على قدمي. كان أبي يقف أمامي؛ وقد أصبح لون الـ"بيريه" الأسود فوق رأسه أبيض. رفع يده ببطء إلى خدي. وللحظة، اعتقدت أننا سنضرب كفينا ببعضهما كما يفعلون في سوق الماشية، وهم يفحصون سلامة الأبقار وجودتها، ولكنه اكتفى بالتربيت على خدي سريعًا، لدرجة أنني تساءلت بعد ذلك عما إذا كان ذلك قد حدث بالفعل أم أنني توهمت يدًا تشكلت من أنفاسنا الضبابية في البرد، وأن تلك الأصابع لم تكن سوى مداعبة رياح. حدقتُ مرتجفةً إلى بقعة الدم وسط الساحة، ولكن أبي لم ينتبه إليها. شيئًا فشيئًا تواطأ الثلج مع جريمتي، وأخفى آثار الموت.

- ادخلي.. سوف آتي لأخلع معطفك خلال دقائق.

اتجه إلى الحظيرة لتشغيل كسارة الشمندر. أدار المقبض بإحكام؛ فأصدرت العجلة الصدئة صريرًا في بداية دورانها، ثم تطايرت قطع من شمندر السكر حولها، وسقط معظمها في السلة المعدنية. إنها من أجل الأرانب التي تحب أكلها. تعمدتُ في أثناء ابتعادي ترك آثار خلفي في الثلج. نما بداخلي أمل في أن يجدني شخص ما، وأن يساعدني شخص ما في

العثور على نفسي وأن أقول مثلما نقول في اللعبة: "بارد.. بارد.. فاتر.. دافئ.. أكثر دفئًا.. ساخن".

لم يظهر أي شيء على "أوبي" عندما عاد من الحقول. توقف أمامي وظهره لأبي. وضع يده على سحَّاب معطفي ورفعه لأعلى فجأةً، فقرصني السحَّاب في ذقني. صرخت ألمًا وتراجعت للخلف. أنزلتُ السحَّاب لأسفل ر لأعيده مكانه، وأنا أتلمس البقعة التي آلمتني، والتي ترك فيها حَّاب المعدني أثرًا. همس "أوبي":

- هذا هو إحساس الخيانة، وهذه مجرد البداية. سأعاقبك لو أخبرتِ أبي بأنها كانت فكرتي.

ثم حرك إصبعه على عنقه بإشارة الذبح، قبل أن يدور على عقبيه، ويرفع يده محييًا أبي. مسموح له بدخول الحظيرة معه. ولأول مرة منذ أمد، يعود أبي إلى المكان الذي شهد إبادة جميع أبقاره. لم يسألني إذا كنت أرغب في اللحاق بهما. تركني وراءه في البرد، وقد علقت قطعة من جلدي في السحَّاب، ووجنتي دافئة من لمسة يد أبي. كان يجب عليَّ أن أعطيه خدي الآخر، مثل "يسوع"، لأرى ماذا كان يقصد بتلك اللمسة. عدت إلى المزرعة ورأيت "هانا" وهي تدحرج كرة ثلج.

- هناك عملاق جاثم على صدري.

أخبرها بما حدث، ما إن أصل إليها. توقفت قليلًا ونظرت إليَّ وأنفها أحمر من شدة البرد. ترتدي قفاز "ماتياس" الأزرق، الذي أحضره الطبيب البيطري معه من البحيرة، والذي كان في طبق خلف الموقد مثل قطع لحم تنتظر من يتعشى بها. رأى أخي أن ربط أمي لفردتي القفاز بخيط واحد تصرف طفولي، على الرغم من أنها تخشى أن تفقدهما، وعلى الرغم من أن الأصابع المجمدة هي أسوأ شيء ممكن، كما قالت، ولم يخطر ببالها أن هناك قلبًا أصبح باردًا منذ زمن. سألتني "هانا":

- وما الذي يفعله العملاق فوق صدرك؟

- جاثم وحسب.. ثقيل جدًّا.

- ومنذ متى وهو فوقه؟

- منذ زمن طويل، ولكنه يرفض هذه المرة أن يفارقني. جاء عندما ذهب "أوبي" مع أبي إلى الحظيرة.

- أوه.. تغارين إذًا.

- غير صحيح!

- بل تغارين. والرب يمقت الكذب.

- أنا لا أكذب.

حركت صدري بقوة، وكأنني أحاول أن أبعد عنه براثن مطرقة انغرس فيه هو الآخر. ما زلت أشعر بأثر المطرقة، تمامًا كما شعرت بجسد "أوبي" بعد أن يرقد فوقي، وحتى بعد أن آخذ حمامًا. لم أشعر بالغيرة لأن "أوبي" مع أبي، ولكن لأنه شاركني إحساس قتل ديك أبي المفضل، وعلى الرغم من هذا فهو لم يشعر بأي ندم. ولم يسقط في قلب الثلج كما سقطتُ أنا. لماذا لا يصاب أبدًا بالبرد بعد تنفيذه لإحدى خططه الجليدية التي يورطنا معه فيها؟ أردت أن أحكي لـ"هانا" عن الديك، وعن التضحية التي كان عليّ تنفيذها لإبقاء أمي وأبي على قيد الحياة، لكنني لم أحكِ شيئًا. لا أريد أن أقلقها بلا داعٍ؛ فلربما توقفت عن معانقتي مرة أخرى في السرير، وعن احتضان جسدي الذي أصبح صندوقَ أسرار ثقيلًا.. أثقل مما تعتقد. هذه ظهيرة مناسبة لأن ألصق في مفكرتي شيئًا بالصمغ الجاف حتى يمكنني أن أنزعه فيما بعد، ثم أتخلص منه، وأفكر فيما إذا كان قد حدث فعلًا أم لا.

- يمكنكِ تحويل العملاق إلى قزم بأن تجعلي نفسك كبيرة.

تضع كرتي ثلج فوق بعضهما؛ الرأس والجذع. تذكرني بذلك اليوم الذي صنعنا أنا وهي و"أوبي" رجل ثلج، في يوم عيد الميلاد.. سميته "هاري".

- ألا تتذكرين "هاري"؟

مطت شفتيها إلى أن برزت وجنتاها مثل كرتي "موتزاريلا" في صحن أبيض.

- يوم أن وضعنا الجزرة في المكان الخطأ؟ يومها عاقبتنا أمي بأن أطعمت كل الجزر الذي لدينا في الشتاء للأرانب.

ابتسمتُ وأنا أقول لها:

- كان خطأكِ.

- هذا بسبب تلك المجلة في المتجر.

- في الصباح التالي، اختفى "هاري"، وكان أبي في الغرفة الأمامية والثلج يتساقط عنه.

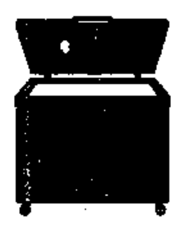
قلدته "هانا" بصوت عميق مصطنع:

- هذا إعلان مهم. لقد مات "هاري".

- لم نأكل الجزر مع البازلاء.. أكلنا البازلاء فقط. كانا يخشيان من أن تراودنا أفكارٌ قذرة إذا وجدنا جزرًا في المنزل مجددًا.

ضحكت "هانا" بشدة. أباعد بين ذراعيّ، أدعوها إلى حضني. تنهض "هانا" وهي تنفض الثلج عن ركبتيها. تعانقني. شعرت بغرابة الحضن في وضح النهار، وخيِّل إليّ أن ذراعينا أقسى وأن الحضن جاف، على الرغم من دفئه ولبونته في المساء. تخرج بقية سيجارة من جيب معطفها. وجدتها في الفناء. لا بدَّ أنها سقطت من فوق أذن "أوبي"، وقد اعتاد وضع سيجارة فوق أذنه، مثله مثل جميع أولاد القرية. دستها "هانا" بين شفتيها للحظة، ثم دست طرفها الآخر بفمها في فم رجل الثلج.. تحت الجزرة.

الفصل الثالث عشر



تقشرت البشرة عن ظهر إصبعين في يدي التي لكمت بها جدار الحظيرة، وتخيلتهما رأسي جمبري مبتورين.

ذهبتُ إلى الحظيرة، وخلعت حذائي عند بابها بقدمي دون أن ألمسه بيدي. تجاهلت أداة خلع الأحذية ذات الرقبة الطويلة، التي تقبع عند الباب مهملة. منذ رحيل الأبقار، وأمي وأبي لا يرتديان سوى قباقيب سوداء. كان لدينا منذ زمن بعيد خالع حذاء من الحديد الزهر، لكنه انثنى وخرب بسبب ساق أبي العاطلة. أركل حذائي، وأعبر الباب الفاصل بين الحظيرة والمنزل إلى المطبخ. وجدته نظيفًا والكراسي مرصوصة على مسافة متساوية من الطاولة، وأكواب القهوة مقلوبة نظيفة على منشفة الشاي فوق الرخامة، وجوارها ملاعق صغيرة مصفوفة بدقة. وجدت على

الرخامة رسالة: "**نمت على نحو سيئ**". فوقها التاريخ، وكان قبل يوم واحد من رحيل الأبقار. كانت أمي تكتب مثل هذه الرسائل ذات الجمل القصيرة منذ تفشي مرض جنون البقر. كتبت يوم قتلوا البقار: "**نصبوا السيرك**". كلمتان.. لا أكثر ولا أقل. إلى جوار دفترها الصغير.. كتبت رسالة أخرى: "**هناك ضيوف في الغرفة الأمامية، التزموا الهدوء**".

مشيت على أطراف أصابعي حتى غرفة الجلوس، ثم وضعت أذني على باب الغرفة الأمامية. أسمع كبار السن وهم يتحدثون بأصوات تملؤها الهيبة. يأتون مرة في الأسبوع، ليتأكدوا من أن "الموعظة قد أتت ثمارها"، ومما إذا كانت "المحاصيل قد نمت بعد أن زرعنا الكلمة". هل نحن مؤمنون أتقياء ونستمع إلى كلمات الرب ومواعظ "رينكيما"؟ بعدها، يبدؤون الحديث عن التسامح وهم يقلبون القهوة. أشعر حينها بأن نظراتهم الثاقبة تصنع دوامات في بطني. عادةً ما تتولى أمي مع أبي استقبال تلك الزيارات المنزلية، ولا ننضم إليهما؛ نحن "الملوك الثلاثة"، إلا مرة واحدة في الشهر. يسألوننا عن أي جزء من الإنجيل نحفظ، وكيف نتعامل، أو نعتقد أننا نتعامل، مع الإنترنت والكحول، ومع نمو أجسادنا، ومع مظهرنا. بعد ذلك يلقون بالتحذير المعتاد: "التقديس والتكريس يتبع التبرير. لا يمكن فصلهما عن بعضهما.. **انْظُرُوا وَتَحَرَّزُوا مِنْ خَمِيرِ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ**".

قطيع الماشية الجديد في الطريق، وقد انشغل أبي بالتحضيرات لاستقباله، ولذلك وجب على أمي استقباله وحدها. على الجانب الآخر من الباب، سمعت عجوزًا تسأل:

- ما مدى نقاء طريقتك في الحياة الآن؟

ضغطت بأذنيَّ بقوة على الخشب، لكنني عجزت عن سماع الإجابة. عندما تهمس أمي فإنها بذلك توحي بأنه كفى؛ هي لا تريد للرب أن يسمعها.. جميعنا نعلم أن آذان هذا المجلس هي أذنا الرب أيضًا.. هو من خلقها. سألتهم أمي بصوت عالٍ:

- ما رأيكم في بعض من البسكويت الحلو؟

تفتح علبة بسكويت "الملكة بياتريكس". وأكاد أشم حلاوة البسكويت بداخلها. إنه رقيق لدرجة أنك لا تستطيع غمسه في القهوة، وعندئذ سيكون عليك إخراج الفتات الذائب بالملعقة من قاع الفنجان. ومع هذا، يصرُّ هؤلاء العجائز على غمس البسكويت في القهوة كل مرة، ولكن بحرص راعي الكنيسة وهو يغمس الوليد في أثناء تعميده في الماء المقدس، بينما يتلو آيات من إصحاح "متى".

نظرت إلى الساعة، فعرفتُ أن الزيارة المنزلية قد بدأت للتو، وأنهم سيظلون معنا ساعة أخرى على الأقل. ممتاز؛ لن يزعجني أحد. أطرق برفق على باب القبو وأنا أهمس:

- أنا صديقة.

لا مجيب. ولكن، بعد قتلي ديك أبي، لم يعد بإمكاني أن أعد نفسي ضمن "الأصدقاء"، ولكنني حتى عندما همست لهم بأنني "عدوة"، لم أسمع أي شيء كذلك. لم أسمع جلبة، ولم يختبئ أحد بسرعة خلف رفوف صلصة التفاح، على الرغم من أنها تكاد تكون فارغة.

أدفع الباب، وأفتحه، وأتلمس الجدار بحثًا عن سلك المصباح. ومض المصباح مرتجفًا، كما لو كان يتساءل في حيرة عما إذا كان عليه أن يضيء أم أن ينطفئ، ثم يحسم أمره ويضيء. أشم رائحة ثقيلة في القبو تنبعث من دلاء الحليب الممتلئة بالـ"دونات" وفطائر التفاح. لا أرى اليهود في أي مكان، ولا أرى وهج نجوم معاطفهم الفسفورية في الظلام. وقفت زجاجات الكشمش الأسود على الرف دون أن يمسها أحد، بجانب عشرات من علب النقانق، وعلب شراب البيض. هل هربوا؟ هل حذرتهم أمي وأخفتهم في مكان آخر؟ أغلقت الباب خلفي ومشيت في قلب القبو، ورأسي محني لتجنب شباك العنكبوت، وسط صمت مطبق.. فلم يعد هناك أحد هنا. تحسست الضفدعين في جيبي. صارا أخيرًا يجلسان فوق بعضهما ويلتصقان بقماش معطفي من الداخل مثل مكعبي ثلج.

- سوف أطلق سراحكما خلال لحظات.

أطمئنهما، وأنا أتذكر كلمات من سفر "الخروج": **"لَا تُظَايِقْ غَرِيبًا مُقِيمًا فِي أَرْضِكَ. فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ مَا يَشْعُرُ بِهِ الْغَرِيبُ، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ".**

حان وقت أن أتركهما يرحلان، لأنهما باردان للغاية، مثل حلوى الـ"فوندان" والشوكولاتة التي يصنعونها على هيئة ضفادع وفئران، والتي تشتريها أمي، وأحرص على الاحتفاظ بأغلفتها الفضية. أمس، على شاشة التلفاز، عضت "ديفيرتجي بلوك" رأس ضفدع أرجواني. وأخرجت حشوته البيضاء.. كان مصنوعًا من المثلجات. غمزت لنا تطمئننا، وقالت إن كل شيء على ما يرام، وأن مساعدي "بابا نويل" ضلوا طريقهم ولكن مزارعًا حاد البصر عثر عليهم ودلهم على الطريق الصحيح مجددًا. سوف يحصل كل طفل على هداياه في الوقت المناسب، طالما كانت المدخنة نظيفة ونقية، مثل قلوب جميع الأطفال.

بعد ذلك، شاهدت أمي حلقة "لينجو" وهي تقف خلف طاولة كي الملابس. اقترحت "هانا" على والدتي أن نرسل بياناتها للبرنامج، حتى تشارك فيه ذات يوم. لكنني رفضت بعصبية؛ فبمجرد أن تصبح أمي خلف زجاج شاشة التلفاز، فلن نتمكن من استعادتها أبدًا، أو ربما لن نراها ثانيةً إلا عندما تنطفئ الشاشة وتصبح ميتة. وعندئذ، ماذا سيحدث لأبي؟ ثم.. من سيتمكن من تخمين الكلمة؟ أمي بارعة في ذلك.. ولكن بالأمس كانت

الكلمة تبدأ بالحرف D. ولأول مرة، عجزت أمي عن تخمينها على نحو صحيح، على الرغم من أنني عرفتها منذ أول وهلة.. D A R K N E S S.. ظلام. أحسستُ بأنها علامة لا يمكنني تجاهلها.

وقفت أمام المجمد بجوار الحائط. أزحت القماشة التي تغطيه والتي ثبتت أمي أطرافها بالفاكهة؛ وهو أمر غير ضروري لأنه لا توجد أي رياح في القبو مطلقًا. أفتح الغطاء. لا أجد سوى كعك عيد الميلاد المجمد. تتلقى أمي وأبي هذا الكعك كل عام من الجزار، واتحاد التزلج، والنقابة. هي أكثر من أن نأكلها كلها، فنشاركنا فيها الدجاجات أيضًا، ولكنها بدورها سئمت منها، وصارت تبتعد عنها وتتركها تتعفن في الأرض رويدًا رويدًا.

غطاء المجمد ثقيل.. على نحو لا يصدق، وعليك أن تجذبه بقوة لأعلى حتى يتسنى لك فتحه. وقد حذرتنا أمي كثيرًا منه: "لو سقط أحدكم فيه، فلن نراه مرة أخرى حتى عيد الميلاد المقبل". كثيرًا ما تخيلت جسد "هانا" وقد استحال طعامًا مجمدًا، وأمي تبذل جهدها لتخرج قطعًا منه.

أفتح الغطاء، ثم أدس القضيب الحديدي القابع بجوار المجمد بين حافتيه بحيث يظل مفتوحًا، وأقحم جسدي بصعوبة عبر الفتحة. أفكر في "ماتياس". هل هذا ما شعر به؟ هل انقطعت أنفاسه فجأةً؟ وفجأةً، أتذكر ما قاله البيطري وهو يحكي كيف أخرج أخي من الماء مع "إيفرتسن": "عندما تنخفض درجة حرارة الإنسان، عليك أن تتعامل معه مثل قطعة خزف. فأصغر لمسة خاطئة قد تقضي عليه". لذلك، وطوال

الوقت كنا نتعامل بحرص شديد للغاية مع "ماتياس".. حتى أننا توقفنا عن الحديث عنه، حتى لا تتهشم ذكراه داخل رؤوسنا.

أستلقي بين كعك عيد الميلاد، وأضع يديَّ على بطني، الذي انتفخ وامتلأ مرة أخرى. أشعر بالدبوس يخترق قماش معطفي، وأتلمس الجليد على جوانب المجمد، وأسمع صخب زلاجات المتسابقين فوقه. عندئذ، أخرج الضفدعين من جيب معطفي، وأضعهما بجانبي في قلب المجمد. ازرقت جلودهما، وقد أغمضا أعينهما. قرأت ذات مرة أنه عندما يركب ضفدع فوق ظهر ضفدع آخر، فإن إبهامي الذكر يخرجان قرنيتين سوداوين حتى يتمكن من السيطرة على جسد الأنثى. كانا يجلسان في سكينة وهدوء شديدين بالقرب من بعضهما، حتى إنني أشفقت عليهما. أُخرج ورق الشوكولاتة الفضي الملون الذي كان من قبل يغطي ضفادع الشوكولاتة من جيب معطفي، وألفه بعناية حول جسديهما، فلربما عاد الدفء إليهما. ومن دون تفكير، أركل القضيب المعدني الذي يرفع الغطاء.

- أنا قادمة إليك يا "ماتياس".

تبع صوت همساتي صوت ارتطام الغطاء المُدَوِّي ثم ساد الظلام بغتةً داخل المجمد.

إنها الظلمة التامة إذًا.. وسكون الجليد.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1.	اسمي نور	إلسا أرسوريو	الأرجنتين
2.	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3.	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4.	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5.	شرخ في الحائط	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
6.	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
7.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
8.	الدبلوماسي	إليت أليشكا	ألبانيا
9.	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتسة	ألمانيا
10.	لأننا في مكان آخر	رشا الخيّاط	ألمانيا
11.	سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
12.	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
13.	أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
14.	مصنع الأحذية	جيفري لويس	أمريكا
15.	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
16.	اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
17.	حياة على باب الثلاجة	أليس كويبرز	إنجلترا
18.	لا صديق سوى الجبال	بهروز بوتشاني	إيران/ كردستان
19.	الموت والبطريق	أندريه كوركوف	أوكرانيا
20.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
21.	البيت السعيد	ويندي إرسكين	أيرلندا
22.	عملية البنك الأيرلندي	ريتشارد أوراو	أيرلندا
23.	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
24.	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
25.	العاصفة	إينار كاراسون	أيسلندا
26.	الفخ	ليليا سيجورادوتير	أيسلندا
27.	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
28.	أسود صقلية	ستيفانيا أوشي	إيطاليا
29.	حذارِ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا

30. من هو لو سيورتينو؟	أوتافيو كابيلاني	إيطاليا
31. أحلام سعيدة يا صغيري	ماسيمو جارميلليني	إيطاليا
32. سيارة اسمها النصر	إيلمار تاسكا	إستونيا
33. أرق من الجلد	أوزمان إسلام خان	باكستان
34. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
35. امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
36. بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
37. كابوس ساو باولو	أنطونيو شيرشيتيسكي	البرازيل
38. الروليت الروسي	رافاييل مونتيز	البرازيل
39. شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
40. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
41. نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
42. الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
43. ماذا فعلت غدًا	برونو فييرا أمارال	البرتغال
44. أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
45. فندق الفقراء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
46. التعساء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
47. صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
48. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيديتش	البوسنة
49. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باتريار	بيرو
50. أبسنت	ليفر تونش	تركيا
51. أحلام محطمة	بيولنت سينوكاك	تركيا
52. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
53. امرأة صيفي	تونا كيرميتشي	تركيا
54. توباز	هاكان جنيد	تركيا
55. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
56. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
57. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
58. الطلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
59. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
60. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
61. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
62. للصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا

63. لون الغواية — هاندي ألتايلي — تركيا
64. مينتا — سولماز كاموران — تركيا
65. نساء إسطنبول — مجموعة قصصية — تركيا
66. سحر — صلاح الدين دميرتاش — تركيا
67. جريمة أبي — هاكان جنيد — تركيا
68. الرجل الذي باع العالم — ألبير جاتيجوز — تركيا
69. المدينة ذات العباءة القرمزية — أصلي إردوغان — تركيا
70. جرائم براغ — ميلوش أوربان — التشيك
71. معسكرات الشيطان — ياخيم توبول — التشيك
72. حدث في كراكوف — بيترا هولوفا — التشيك
73. خُيِّطت القضية — باتريك أورشانديك — التشيك
74. ميتوكس — سوزانا برابيتسوفا — التشيك
75. مرافق طائر البطريق — إميل هاكل — التشيك
76. كافكا — فرانز كافكا — التشيك
77. المواطن فانيك — فاتسلاف هافل — التشيك
78. احذري يا آنا — ماريك سينديلكا — التشيك
79. الحب في زمن الاحتباس الحراري — جوزيف بانيك — التشيك
80. آزوري — ك. سيلو دويكر — جنوب أفريقيا
81. المبعدون — أوجنين سباهيتش — الجبل الأسود
82. العقل المدبر — ديفيد أوجنز — جواتيمالا
83. المنتحر — أولجا سلافنيكوفا — روسيا
84. منطقة الفيضان — رومان سنشين — روسيا
85. رسائل سبتمبر — برايوني رحيم — زيمبابوي
86. امرأة للبيع — أورشولا كوفاليك — سلوفاكيا
87. خلف طاحونة الجبل — مجموعة قصصية — سلوفاكيا
88. يوغوسلافيا.. أرض أبي — جوران فوينوفيتش — سلوفينيا
89. الحياة هنا — ميرال قريشي — سويسرا
90. ربيع البربر — يوناس لوشر — سويسرا
91. كرافت — يوناس لوشر — سويسرا
92. كاتبة وكاتب — فيولا رونر — سويسرا
93. المتلعثم — تشارلز ليفينسكي — سويسرا
94. جريمة عيد الميلاد — أندريه روزلاند — السويد
95. بكين.. بكين — شيو تسي تشين — الصين

96. بنات الصين	بي ماي	الصين
97. الربع الأخير من القمر	تشي زيه جيان	الصين
98. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
99. سبع ليالٍ في حدائق الورد	بي ماي	الصين
100. النجمة الحمراء	يركمي هولانبيك	الصين
101. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
102. أيام.. شهور.. سنوات	يان ليان كه	الصين
103. الأبدية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
104. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
105. جريمة في باريس	صوفي إناف	فرنسا
106. أخي الكبير	ماهر جوفن	فرنسا
107. ندبات	دالي ميشا توريه	فرنسا
108. الجلطة البيضاء	آكي أوليكاينن	فنلندا
109. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
110. اعترافات مؤجلة	ماجيلا بودوين	فنزويلا
111. الكاتدرائية السوداء	مارسيال جالا	كوبا
112. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
113. أين أنت؟	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
114. فتاة كازابلانكا	إن كولي جان بوفان	الكونغو
115. ألوان الذاكرة	جيفري مور	كندا
116. العملية "سمكة النيل"	أوتو أوزولس	لاتفيا
117. لعبي نعيلة مرية	أوندراش فورجانتش	المجر
118. صانع الزجاج	إرميس لافازانوفسكي	مقدونيا
119. القنّاص	بلايز مينيفسكي	مقدونيا
120. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
121. القزم وقصص أخرى	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
122. د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
123. الجريمة المكسيكية	إكتور آجيلار كامين	المكسيك
124. البنج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
125. صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
126. جريمة العروس الهندي	كارين فوسوم	النرويج
127. جريمة على حافة البحيرة	كارين فوسوم	النرويج
128. سبيته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا

129. حرية حزينة	فريدريكه جيزتلينر	النمسا
130. تـ.و م.و	ألويت تينا شميت	النمسا
131. حزن غير محتمل	بيتر هاندكه	النمسا
132. ثقل العالم	بيتر هاندكه	النمسا
133. في ليلة مظلمة تركت منزلي الصامت	بيتر هاندكه	النمسا
134. أعيش مع شبح	لورا فرويندنتالر	النمسا
135. أختي قاتلة متسلسلة	أوينكان بريثويت	نيجيريا
136. دكّان الساري	روپا باجوا	الهند
137. جوي سيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
138. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
139. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
140. عمدة أمستردام	هيرمان كوخ	هولندا
141. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
142. أجمل فتاة في جنوة	إيليا ليونارد فايفر	هولندا
143. قلق الأمسيات	ماريكا لوكاس رينفيلد	هولندا
144. عقيدة الأغنية	ماريا تاسلر	كرواتيا
145. بدلة فضاء برتقالية اللون	لويد ماركهام	ويلز
146. المدينة الخاوية	جاري رايموند	ويلز
147. لماذا قتلت أعز صديقاتي؟	أماندا ميكالوپولو	اليونان

صدر من كتب عامّة:

148. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
149. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
150. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
151. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
152. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
153. لماذا تنتفض الشعوب؟	جيرو فون راندوف	ألمانيا
154. الرمان: تاريخ وحكايات من حول العالم	برند بروتر	ألمانيا
155. القمر	برند بروتر	ألمانيا
156. السادات. شميت: حوار الأزمات	كارل جوزيف كوشيل	ألمانيا
157. مستقبل النسوية	مجموعة مؤلفين	إنجلترا
158. اكتشافات مصرية	جيريمايا لينش	إنجلترا

159. شذرات من التاريخ المصري | آرثر بروم | إنجلترا
160. تشرنوبل: 01:23:40 الحقيقة كما حدثت | أندرو ليذربارو | إنجلترا
161. الهاشميون وحلم العرب | روبرت ماكنمارا | أمريكا
162. الهندي الأحمر الأيسلندي | جون جنار | أيسلندا
163. القرصان الأيسلندي | جون جنار | أيسلندا
164. عن الوقت والماء | أندري سنير ماجنسون | أيسلندا
165. مختصر تاريخ الصين | مايكل ديلون | الصين
166. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب | خورخي كاريون | إسبانيا
167. ضد أمازون | خورخي كاريون | إسبانيا
168. يوميات صحفية إيطالية | جوفانا لوكاتيلي | إيطاليا
169. الذكاء الأخضر | ستيفانو مانكوسو | إيطاليا
170. خيالات الشرق | إيسا دي كيروش | البرتغال
171. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية | دافيد فان ريبروك | بلجيكا
172. أوروبيانا | باتريك أورشانيك | التشيك
173. قوة المستضعفين | فاتسلاف هافل | التشيك
174. كيفية حساب بصمتك الكربونية | دورين باهتشجي | تركيا
175. الثورة المادية | جي. إم. لو كلوزيو | فرنسا
176. لن أمنحكم كراهيتي | أنطوان لاريس | فرنسا
177. جابو | أوسكار بانتوخا | كولومبيا
178. لن أموت: حكايات من حياة جابرييل جارسيا ماركيز | كونرادو زولواجو | كولومبيا
179. الجري | ثور جوتاس | النرويج
180. عقول مريضة | دوي درايسما | هولندا
181. اللعب مع الكبار | يوريس لوينديك | هولندا
182. النسوية للرجال | ينس فان تريخت | هولندا
183. سونيتستان | إريكا فاتلاند | هولندا
184. قصص يحكيها الأطباء عن مرضاهم | إلين دي فيسر | هولندا



كتب _ مختلفة #هولندا



"تعلمت أن الموت في البداية يطلب من الناس الانتباه إلى التفاصيل الصغيرة"

تؤمن "ياس" - بطلة الرواية - بأنها من قتلت أخيها عندما دعت الرب أن يأخذه بدلاً من أرنبها. ينقلب حال الأسرة بعد وفاة الابن الكبير "ماتياس". فارتدت "ياس" معطفها الأحمر وقررت ألا تخلعه أبداً، وتحول حزن أخيها الآخر إلى قسوة، وحلمت أختها الصغيرة بالهرب من المزرعة.

"إن هذه ليست مثل تلك الروايات التي تجعلك تعود للخلف بظهرك لكي تستوعب ما حدث فيها للتو، بل هي رواية تجذبك داخلها لتصبح جزءاً من عالمها ما إن تقرأ أول كلمة فيها"

"تيد هودجكينسون" - رئيس هيئة "الكلمة المنطوقة" وأحد محكمي جائزة البوكر

"رواية أولى عن البراءة التي حطمها الحزن وكيف تقدم لنا العزاء والذعر معاً"

"بارول سيجال" - نيويورك تايمز

"إنها رواية لا تخجل من أن تذكر القسوة صراحة ولكنها في الوقت نفسه قسوة مبررة، فهي تعرف القارئ على رواية لا تتبنى أسلوباً مريحاً صحيحاً لكنها مع ذلك لا يمكن أن تنسى"

"هولي ويليامز" - الجارديان

ماريكا لوكاس رينفيلد

كاتبة هولندية، ولدت عام 1991، وهي أول كاتبة هولندية تفوز بجائزة البوكر العالمية وأصغر من فاز بها.

"قلق الأمسيات" هي الرواية الأولى لها، وتتميز لغتها بالتجريبية والشاعرية. فازت الرواية أيضاً بجائزة "ليبريس" الأدبية الهولندية الرفيعة عام 2019. فازت المؤلفة كذلك بجائزة أفضل ديوان شعري عام 2015 وهي "ماندلا التشجيعية" وبجائزة "سي بادينغ" في عام 2016. نشأت "رينفيلد" في مزرعة في ريف هولندا، وقد أوضحت أن روايتها تلك "قلق الأمسيات" مقتبسة من جزء حقيقي في حياتها وهو وفاة أخيها الكبير عندما كانت في الثالثة، وقد استغرقت ست سنوات في كتابة هذه الرواية إضافة إلى الكتابة. مازالت "رينفيلد" تعمل في مزرعة الآن.

